سلسلة أجمل الروايات العالمية

د. هـ. لورنس

عشيق الليدي تشاترلي

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي

سلسلة أجمل الروايات العالمية

د. هـ. لورنس

عشيق الليدي تشاترلي والغجري والحسناء

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

إسم الكتاب:
عشيق الليدي تشاترلي
والغجري والحسناء
تأليف:
ديفيد هربرت لورانس
إعداد وتحليل وتقديم:
الدكتور رحاب عكاوي
الناشر:
دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
زقاق البلاط - بناية فخر الدين
شارع خليل سركيس
تلفون وفاكس: ٣٦١٠٤٥ / ٠٠٩٦١١
بيروت ـ لبنان
E-MAIL : dar_al_haref_alarabi@yahoo.com
الطبعة:
الأولى ٢٠٠٦ م
تصميم الغلاف:
فؤاد سليمان وهبي

الترقيم الدولي:
ISBN : 9953-449-71-6

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

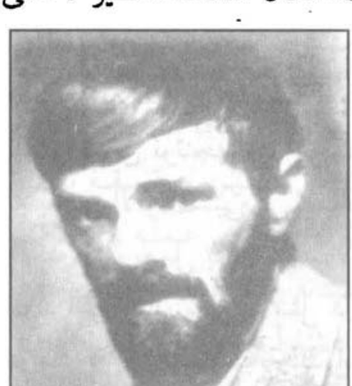
دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠
فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥
بيروت - لبنان

طبع في لبنان Printed In Lebanon

ديڤيد هربرت لورانس
١٩٣٠ - ١٨٨٥

ولد ديڤيد هربرت لورنس ، أو برتي كما كان يُدعى ، في محيط الأسرة في سنة ١٨٨٥ في قرية إيستوود بمقاطعة نوتنجهام شاير بالمنطقة الوسطى من إنكلترا ، لأسرة عمالية متوسطة الحال . كان أبوه من عمال المناجم ، أمّا أمه فكانت تنتمي إلى الطبقة المتوسطة الدنيا ، وكانت على قدر من الثقافة بخلاف الأب ، عملت في التدريس فترة من الزمن قبل الزواج ، ولم تعجبها حياة المناجم التي انتقلت إليها بعد زواجها ، ولذا عملت جاهدة طوال حياتها على حماية أبنائها من مصير والدهم ، فدفعت بهم إلى التعليم دفعاً ، متحمّلة في سبيل ذلك الكثير من التضحيات .

كان «برتي» الابن الرابع بين خمسة أخوة ، أخوين وأختين . وكانت أخته الصغرى «إيدا» أقرب إخوته جميعاً إلى قلبه نظراً لتقارب الفترة الزمنية بينهما . أمّا أخوه الثاني «إرنست» فكان منافسه الخطير لا على قلب الأم فحسب ، بل في مجال الدراسة والتفوّق والنجاح في العمل أيضاً . إلاّ أن هذا الأخ الناجح مات في شبابه ، فاستأثر ديڤيد بحب أمه وأصبح محطاً لآمالها . وقد كانت لتلك الصلة الوثيقة بين الابن وأمه آثار بعيدة المدى فيما بعد .


ديڤيد هربرت لورنس

قضى ديڤيد طفولته في قرية

إيستوود في قلب تلك المنطقة الصناعية التي تتميّز من الناحية الجغرافية بجمال الطبيعة وروعتها وتباين مظاهرها ، بحيث تجمع بين جنباتها الأنهار المنسابة تكتنفها التلال المغطاة بالمروج الخضراء ، والمناجم والمصانع التي تفسد جمال المنظر الطبيعي بدخانها وقاذوراتها وتقضي على هدوء الطبيعة بصوت آلاتها التي لا تتوقّف ليل نهار . وقد عشق الفتى منذ صباه الطبيعة الجميلة في تلك المنطقة ، وكان يقضي الساعات الطوال متجوّلاً في ربوعها . كان شديد الولع بالزهور والطيور والحيوان التي ترتبط حياتها بالطبيعة ، ويحس بعلاقة قوية بينه وبينها . أمّا حياة المناجم والمدنية المرتبطة به فكان يكرهها أشد الكره ، وأصبح في مستقبل حياته يرى في المدينة الصناعية الحديثة سبباً من أهم أسباب جفاف الحياة العاطفية التي يقاسي منها الإنسان في العصر الحديث . وقد استخدم فيما بعد الكثير من الأماكن التي عرفها في صباه وشبابه من هذه المنطقة كمسرح لأحداث قصصه ، حتى سميت هذه المنطقة من إنكلترا باسمه «The Lawrance Country» كما سمّيت مقاطعة دورسيت باسم «توماس هاردي» من قبل .

تلقى ديفيد لورنس دراسته الأولى في مدرسة القرية ، ثم فاز في مسابقة للالتحاق بمدرسة نوتنجهام الثانوية ، فكان يسافر يوميّاً من إيستوود إلى نوتنجهام ، متحمّلاً في ذلك برد الشتاء القارس ، ما كان له بعض الأثر السيئ في صحته . ولم يكن شديد الولع بالدراسة ، ولكنه كان يعمل بجد لإرضاء أمه ، وحقّق قدراً من التفوق في بعض المواد التي كان يحبها مثل دراسة الأدب ومادة النبات . وعند نهاية دراسته الثانوية فاز بمنحة للدراسة بجامعة نوتنجهام ، ولكنه اضطر إلى العمل بعض الوقت قبل الالتحاق بالجامعة ، فعمل كاتباً في مصنع

صغير للأدوات الطبية بمدينة نوتنجهام، ولكن ما لبث أن أصيب بنزلة رئوية حادّة ألزمته الفراش فترة من الزمن لم يعد بعدها إلى العمل، بل عاد إلى الدراسة، فالتحق بالقسم التربوي بجامعة نوتنجهام في أيلول/ سبتمبر ١٩٠٦، أي وهو في الواحد والعشرين من عمره. وبعد عامين حصل على شهادة تؤهله للتدريس، وعمل مدرساً بمدرسة في «كرويدن» جنوبي لندن. ولكنّ التدريس لم يعجبه وسرعان ما تركه نتيجة نوبة ثانية من المرض، كرّس حياته بعدها للكتابة، فقد كان يعلم منذ البداية أنّ الكتابة مهنته وأنه قد خلق ليكتب. وكان بدأ الكتابة بالفعل في أثناء دراسته العليا وقيامه بالتدريس، وكان ينتظر الفرصة المؤاتية ليتفرّغ للكتابة كلياً.

كان لحياة ديفيد الأولى أكبر الأثر في شخصيّته، ومن ثمّ في كتابته، لا من الناحية النفسية فحسب، بل من الناحية الفكرية أيضاً. ولعلّ حياته الشخصية أصبحت بعد الكتابات العديدة التي تركها لنا أصدقاؤه ومن عرفوه في حياته موضوعاً لكثير من الجدل والنقاش من ناحية، ولكثير من عمليات النبش والبحث والتقصّي من ناحية ثانية. على أن المجال هنا لا يتسع للخوض في كثير من المسائل الشخصية البحتة المتعلقة بلورنس، فمجالها يكاد يكون خارجاً تماماً عن نطاق السيرة الأدبية. إلاّ أنّ من الضروري، كي نتبيّن حقيقة بعض خصائص شخصيته التي كان لها أثر واضح في عمله، أن نلقي الضوء على جانب من أهم جوانب حياته وهو علاقته بأمه التي أصبحت فعلاً موضوعاً لأكثر رواياته انتشاراً وقرباً إلى قلوب عامّة القراء، وهي «أبناء وعشّاق» «Sons and Lovers»، والتي يرى البعض أن آثارها ظلت باقية مع لورنس إلى النهاية.

من المعروف أن الطفل شديد التأثر بالجو العاطفي الذي يعيش فيه في سنواته الأولى . وقد كان الجو الذي نشأ فيه ديفيد لورنس جواً مشحوناً بعوامل الخلاف والصراع والكره . فقد كان أبواه على طرفي نقيض ، ولذا فشلت حياتهما الزوجية ، وتحمّل الأبناء تبعة هذا الفشل . فقد كان الأب عاملاً يكاد يكون أمياً ، ولكنه كان شاباً وسيماً يتمتع بحيوية دافقة وشخصية مرحة جذابة ، خفق لها قلب فتاة على قدر من الثقافة ، تنحدر من أسرة متديّنة شديدة التزمّت ، وجدت في تلك الجذوة المتأججة في جسده وفي الابتسامة العريضة التي لا تفارق شفتيه والضحكة الرنانة ما جعلها تحبه ولا تلبث أن تتزوجه وتنتقل إلى داره وهي لا تعلم شيئاً عن مهنته أو أخلاقه . وقد صوّر لنا لورنس في رواية «أبناء وعشاق» هذه الفترة من حياة أبويه تصويراً رائعاً . ولكن سرعان ما تكتشف الزوجة من صفات زوجها ما ينفّرها منه ، ويدبّ الخلاف والفرقة بينهما . فهي ترى فيه الآن إنساناً عديم المسؤولية يعوزه التهذيب والاهتمام بالمسائل الأخلاقية ، على العموم ، وتفشل من ثم في أن تجعل منه زوجاً أليفاً . أمّا الزوج فيأخذ في الهرب من المنزل وإلى الحانة التي كان قد هجرها مع بداية حياته الزوجية ، ليجد فيها الصحبة والتعاطف الذي لا يجده في المنزل بين أقرانه من العمال الذين يعرجون على الحانة لتناول كأس أو كأسين من الشراب في طريق العودة إلى المنزل بعد عمل يوم شاق . إلاّ أن ازدياد شقة الخلاف بين هذين الزوجين تدفع بالزوج أكثر فأكثر خارج المنزل فيطيل البقاء في الحانات ويغرق في الشراب ويعود إلى المنزل متعباً ثائر الأعصاب يتلمّس الأسباب للعراك والشجار . أمّا الزوجة فلا تني عن إظهار احتقارها لزوجها وتقريعها له والتنديد ببقائه خارج

المنزل وإنفاق ما تحتاج إليه الأسرة من نقود قليلة يكسبها على ملذاته .

يصوّر لورنس في روايته الخالدة تلك تطوّر العلاقة الزوجية بين أبويه ، مبيّناً كيف ينتهي الحال بهذين الزوجين إلى درجة من الخلاف والكره والقسوة تجعل جو المنزل لا يكاد يطاق في وجود الأبوين معاً . وبالرغم من أن الصورة الأدبية تختلف في بعض تفاصيلها عن القصة الواقعية إلا أنها تمتاز بدرجة من الصدق والأمانة تسوّغ اتخاذها كسجل لحياة لورنس العائلية . ولعل من أهم نتائج هذه الفرقة بين الأبوين ما يصيب الأبناء من قلق وتمزّق عاطفي . وقد أفلحت الأم هنا في جذب الأبناء إلى صفها فتحولّوا عن الأب وانحازوا إلى جانبها . وتعلّقت الأم بأبنائها تعلّقاً مبالغاً فيه في محاولة للتعويض عمّا فاتها من حب زوجها ، وتبع ذلك تعلّق شديد من جانب الأبناء بأمهم ، له ما له من عواقب نفسية وخيمة .

ولعل ديڤيد لورنس قد أصابه جرّاء ذلك أكثر ممّا أصاب غيره من الأبناء ، فقد بدأ تعلّق الأم به منذ مولده ، إذ ولد طفلاً رقيقاً ضعيف البنية حزين الملامح ، أكثر عرضة للمرض من غيره من الأطفال الأصحاء ، ويحتاج إلى قدر أكبر من الحب والرعاية . أضف إلى كل ذلك شعور الأم بالإثم نتيجة عدم رغبتها في مولده لعدم حبها لزوجها ، ما حدا بها إلى التعويض عن ذلك بمضاعفة الرعاية والحب له ، إلاّ أنه لم يصبح محور اهتمام الأم إلاّ بعد وفاة ابنها الثاني «إرنست» الذي شغل مكان الصدارة في قلبها إلى ذلك الوقت ، وبعد أن مرض هذا الابن الثالث مرضاً هدّده بمصير أخيه لولا عناية الأم الفائقة التي أنقذته من براثن الموت . وهكذا أصبح «برتي» الابن المفضل ، ولعل من دواعي اهتمام الأم بهذا الابن الأصغر أيضاً ما بدا

عليه من عبقرية جعلت الأم تبني عليه الآمال الكبار وترى فيه البطل الذي سيحقّق لها ما خيّبه زوجها من أحلام .

شيئاً فشيئاً أصبح مقت الزوجة لزوجها يداني في عنفه حب الأم لأبنائها ، وأصبح الأبناء ميداناً للصراع في الحرب المستعرة بين الأبوين ، وأصبح تعلّقهم بأمهم ونفورهم من والدهم يهددان حياتهم النفسية بالخطر . وفي حالة ديڤيد لورنس صار تعلقه بأمه سبباً لاإرادياً في خضوعه لرغباتها ، وفي تشكيل علاقته بالمرأة وخصوصاً في فترة شبابه . هنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع جانب آخر من جوانب حياة لورنس طال الجدل بشأنه ، وهو علاقته بـ«جيسي تشمبرز» التي دامت حوالى أربع عشرة سنة وانتهت بالفشل والخيبة . وقد صوّر لورنس هذه العلاقة من وجهة نظره الخاصة في النصف الثاني من رواية «أبناء وعشاق» ، وصوّرتها الفتاة نفسها فيما بعد من وجهة نظرها وبصورة مختلفة في الكتاب الذي نشرته بعد وفاة لورنس وأسمته «سجل خاص» «A Personal Record» عام ١٩٣٦ .

كان لورنس التقى هذه الفتاة ، التي تصغره بعام واحد وهو في سن الخامسة عشرة ، في صيف عام ١٩٠١ في المزرعة التي كانت تقيم فيها مع أسرتها وتسمّى «Haggs farm» وتبعد عن إيستوود حوالى ميلين تقريباً . كانت فتاة جميلة رقيقة تحب القراءة ، وكان ديڤيد يتردّد على هذه الأسرة ، ولكن سرعان ما أصبحت هي صديقته المفضلة بين أسرة أحبّ جميع أفرادها ، وبادلوه هم الحب لحيويته وخفة روحه ومعلوماته الكثيرة وما كان يضفيه على جو المنزل الملحق بالمزرعة من بهجة بزياراته المتكررة . وقد بدأت العلاقة بينه وبين جيسي عندما قام بتعليمها اللغة الفرنسية والرياضة وقراءة كتب الأدب

والشعر معها . وتدريجاً أخذت الصداقة التي توثقت بينهما تتحوّل إلى حب قائم على إعجاب متبادل ، وخصوصاً من جانب الفتاة التي تقول إنها أحسّت بعبقرية لورنس واختلافه عن غيره من الشبان . أما لورنس فكان يجد فيها الأذن الصاغية التي يصب فيها أفكاره عن الأدب والحياة ، والفتاة الذكية المرهفة الحس التي يناقش معها مشاكله الأدبية والشخصية ، ويعرض عليها كتاباته ويستنير برأيها في كثير من الأمور . وقد كانت هي شديدة الإعجاب بكتاباته ، حتى إنها أخذت على عاتقها مسؤولية السعي لنشر بعض قصائده ونجحت في ذلك بالفعل . إلاّ أن هذا الحب يتعثّر ويفشل في النهاية ، وقد اختلفت الآراء في تفسير أسباب هذا الفشل ، وإن كان من المرجّح أن ذلك يرجع في الدرجة الأولى إلى تعلّق لورنس بأمه ورغبة الأم في الاحتفاظ بولدها وعدم التنازل عنه لأية امرأة أخرى وخصوصاً جيسي التي كانت الأم ترى أنها تريد امتلاك قلب ابنها وعقله ولن تترك لها شيئاً منه .

في رواية «أبناء وعشاق» للورنس ، التي يصبح فيها هو «پول موريل» وتصبح جيسي «مريم» نرى الابن ممزّقاً بين حبه لهذه الفتاة ورفض أمه لعلاقته بها وكرهها لها ومحاولة نزع ابنها من بين يديها ، ويحاول الابن في النهاية تفسير خضوعه لتأثير الأم فيتّهم الفتاة بالبرود العاطفي ، مدّعياً أنها لا تثير فيه الرغبة التي يجب أن تثيرها فيه الفتاة التي يتزوجها ، ويؤكد على روحانيّتها ، وشغفها بامتلاك الأشياء ، وخلوّها من الناحية الحسية الجنسية التي يمكن أن تشبع رغباته الملحة في تلك الفترة من حياته..

جيسي من جهتها تزعم في تصويرها لما حدث أن لورنس كان

يبادلها الحب وأنه كان يعلم أنها تكنّ له حبّاً عميقاً تأمل أن ينتهي بالطريق الطبيعي الوحيد وهو الزواج ، ولكن خضوعه لأمه التي كانت تريد الاحتفاظ به كان خضوعاً كاملاً حدا به إلى الخداع وتشويه الحقيقة حتى فيما بينه وبين نفسه . وتقول إنه في اللحظات التي كان يتحرر فيها من تأثير الأم كان يظهر لها حبّاً ورقة بالغين ، ولكنه سرعان ما كان يعود مع نساء أخرى لا يكنّ لهنّ أي حب حقيقي . ولذا فقد كانت هذه العلاقات تنتهي بالفشل . وتشير جيسي إلى ما تسمّيه بالانفصال بين جانبي شخصية لورنس : الجانب الصادق الذي أحبها به ، والجانب الحسي الذي سعى وراء الجنس وأضفى عليه كل تلك الأهمية الزائفة .

ولعلّ الحقيقة كانت مزيجاً من كل هذه العوامل التي لعبت دورها في التفريق بين هذين الشابين .

ومهما يكن من أمر فقد فشلت جيسي في استعادة قلب لورنس بعد وفاة أمّه ، وتزوجت بعد أن تغلّبت على شعورها بالخيبة والإهانة من رجل آخر . أمّا لورنس فقد كانت له علاقات مختلفة مع عدد من النساء ، وأخيراً تزوّج من «فريدا» ، وهي سيدة ألمانية كانت زوجة لأحد أساتذته وأصبحت أهم امرأة في حياته . وبدا أنّ الوسيلة الحقيقية التي تغلّب بها على مرارة تلك الفترة من حياته كانت في كتابته لرواية «أبناء وعشاق» التي كانت بمثابة علاج نفسي واجه به لورنس الماضي بآلامه وانتصر عليه .

نجحت «فريدا» فيما فشلت فيه «جيسي» وهو انتزاع لورنس من الخضوع لذكرى أمه . ومن الغريب أن لورنس كان يعلم مدى سيطرة أمه على عواطفه ، فقد كتب مرة يقول إنه لو كانت أمه على قيد

الحياة لما تركته يحب فريدا . وكتبت فريدا أن لورنس تغلّب على ذلك الحب ، ولكنه كان حبّاً عنيفاً عارماً أضرّ بالصبيّ الذي لم تكن لديه القوة الكافية لتحمّله(*) .

كان ديفيد لورنس في السادسة والعشرين من عمره عندما عرف فريدا ، شاباً رقيقاً يخفي تحت مظهره الهادئ حيوية وحبّاً شديداً للحياة . أمّا فريدا الشابة الأرستقراطية الأصل فكانت في الثانية والثلاثين ، وكانت أمّاً لثلاثة أطفال ، مضى على زواجها من رجل يكبرها بكثير عدة سنوات . أثار لورنس اهتمامها ففضلته على كل شيء وتركت بيتها وأبناءها من أجله ، وأحبها لورنس حبّاً شديداً ، فقد وجد فيها حسب قوله المرأة التي طالما بحث عنها . لم يكن الموقف سهلاً في البداية ، فقد رفض الزوج الطلاق ولم تستطع فريدا أن تنسى أولادها ، فكانت حياة فريدا مع لورنس قبل أن يتم طلاقها حياة قلقة غير مستقرة ، إذ لم يكن لورنس راضياً عن أسلوب حياتهما معاً دون زواج ، وكان يزعجه ما يحيط بتحركاتهما أولاً من سرية وكتمان . ولكنه كان يعلم أن فريدا هي المرأة التي طال بحثه عنها وأنه لن يفترق عنها مهما كلفه الأمر . وأخيراً تم الطلاق ثم الزواج في ألمانيا في سنة ١٩١٤ واستقرت حياتهما بعض الشيء ، ولم يكن الاستقرار من طبيعة لورنس الذي ظل طيلة حياته متنقّلاً بين أرجاء العالم .

قضى لورنس وفريدا فترة من الزمن (١٩١٢ ـ ١٩١٤) متنقّلين بين ألمانيا وإيطاليا ، أتمّ فيها لورنس «أبناء وعشاق» سنة ١٩١٣ ، وبدأ العمل الكبير الذي أطلق عليه أولاً عنوان «الأختان» ثم جعل منه فيما

(*) انظر: Harry. T. Moore, The Intelligent Heart, Penguin 1960, p176 .

بعد روايتين منفصلتين هما «قوس قزح» سنة ١٩١٥ و«نساء عاشقات» سنة ١٩١٦ ، وتعدّان باعتراف النقاد جميعاً خيرة أعماله . ثم عاد إلى إنكلترا مع بداية الحرب العالمية الأولى . وقد كانت سنوات الحرب ، نظراً لعدم اشتراك لورنس فيها وما ثار حوله من شكوك بسبب زوجته الألمانية ، سنوات قاسية ، تعرّضا فيها لكثير من المضايقات وخصوصاً في أثناء وجودهما في منطقة «كورنوول» على الساحل الجنوبي لإنكلترا . كذلك كانت تلك الفترة فترة فقر مادي ، إذ لم يكسب لورنس كثيراً من أعماله الأدبية ، ولم يجد له عملاً من نوع آخر . فما إن انتهت الحرب حتى تركا إنكلترا وعاودا الترحال في أنحاء أوروبا وأميركا الجنوبية .

كره لورنس الحياة في إنكلترا لما لقيته أعماله فيها من نقد وإعراض ، ولم يعد إليها بعد سنة ١٩١٩ إلاّ في رحلات قليلة قصيرة في ١٩٢٣ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، وكان في كل مرة يعود إليها يجدها كريهة فلا يلبث أن يتركها . وهو يعزو الأمر إلى المعاملة التي يلقاها عمّال المناجم على أيدي أصحابها القساة القلوب ، وإلى قرارات الرقابة الجائرة ، وإلى ما لقيه من عنت في أثناء الحرب من المواطنين والرسميين . وكان في طوافه ببلاد العالم ، وخصوصاً في الشرق وأميركا الجنوبية يبحث عن مكان يقيم فيه عالماً مثالياً صغيراً يضم نخبة مختارة من الأصدقاء ورجال الأدب ، إلاّ أن الفكرة لم يتح لها أن تتحقق وإن ظل لورنس طوال عمره يحلم بتحقيقها .

وهكذا قضى لورنس الشطر الأخير من حياته غريباً متنقلاً لا يستقر به المقام طويلاً في مكان واحد ، ولا بين مجموعة واحدة من الأصدقاء أو المعارف . وزاد مرضه من قلقه وعدم استقراره ، فأصبح

سريع الغضب ، شديد الضيق بالناس ، لا يكف عن إظهار عيوبهم ونقائصهم ، ولا يتردّد في استخدام أقرب الناس إليه مادة لرواياته ، واختلف مع كثير من الأصدقاء الذين دامت صداقاتهم سنوات عدة مثل «مدلتون موري Middleton Murry» و«برتراند راسل Bertrand Russell» من قبله .

وأخيراً اشتدت وطأة المرض وقضى لورنس في الثاني من شهر آذار/ مارس سنة ١٩٣٠ في «فنس» في جنوبي فرنسا ودفن هناك ، ثم أحرقت زوجته فريدا جثته وحملت رمادها إلى «تاوس» في نيو مكسيكو حيث أقامت له مدفناً خاصّاً في المكان الذي قضى به بعض الوقت وكتب فيه بعض أعماله المتأخرة .

□ **مؤلفاته :**

بدأ لورنس حياته الأدبية بكتابة الشعر والقصة القصيرة ، وأول ما نشر من أعماله قصة قصيرة بعنوان «Aprelude» فازت بجائزة جريدة ««نوتنجهام شاير غارديان» ونشرت فيها في ٧ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٠٧ . ثم نشرت له مجلة «نيو ريڤيو» عدداً من القصائد كانت «جيسي تشمبرز» اختارتها وأرسلتها إليها في عام ١٩٠٩ ، ثم قصة قصيرة في عام ١٩١٠ . أمّا روايته الأولى ، وهي «الطاووس الأبيض White Peacock» فقد كتبها في أثناء قيامه بالتدريس وأتمها قبل وفاة أمه ، ونشرت في ١٩١١ ولم تلق نجاحاً كبيراً . ثم توالت أعماله الروائية وكان آخرها «عشيق الليدي تشاترلي Lady Chatterly's Lover» عام ١٩٢٨ . وإستمر لورنس في الكتابة حتى أواخر أيامه بالرغم ممّا كان يعانيه من مرض وآلام .

كان شاعراً مفلّقاً وكاتباً مسرحياً وناقداً من الطراز الأول ولكنه كان روائيّاً في المكانة الأولى ، ترك لنا ثلاثة مجلدات من الشعر وخمس مسرحيات وأربعة كتب في أدب الرحلات وما يملأ مجلداً كبيراً في النقد الأدبي ومجلدين من المقالات العامة عبّر فيهما عن كثير من آرائه في الحياة وهما : «التحليل النفسي واللاوعي Psychoanalysis and the Unconscious» و«التخيل واللاوعي Fantasy and the Unconscious» . هذا إلى جانب مجموعة أخرى كبيرة من الكتابات العامة والأدبية التي جُمعت في «العنقاء Phoenix» . أمّا في ميدان القصص فله عشر روايات طويلة وسبع روايات قصيرة من أهمها «سانت مور St. Mowr» ، وحوالى خمسين قصة قصيرة أهمها «عروس الضابط The Captain's Doll» و«الضابط البروسي وقصص أخرى «The Prussian Officer and other Stories» .

أمّا أعماله الروائية فقد توالت على هذا الوجه : «الطاووس الأبيض» «The White Peacock» (١٩١١) وتدور حول حياته العائلية في مستهل صباه ، وتصوّر حياة عمال المناجم ، يتبعها «المعتدي» «The Trespassex» (١٩١٢) ، ثم «أبناء وعشاق Sons and Lovers» ، وهي تمثّل أول عمل روائي كبير ثبّت قدمي لورنس في عالم الرواية ، وأضاف بها شيئاً جديداً إلى الرواية الإنكليزية . ثم نشرت «قوس قزح Rainbow» (١٩١٥) ، والرواية التي تكملها «نساء عاشقات» (١٩٢٠) يتبعها «الفتاة الضائعة The Lost Girl» (١٩٢٠) ثم «قضيب هارون Aoron's Rod» ، وليست على مستوى «قوس قزح» و«نساء عاشقات» ، فقد بدا لورنس وكأنه فقد شيئاً من تلك القدرة الخلاّقة الغريزية التي كان يتميّز بها في الفترة الأولى من حياته

الأدبية . كذلك آلمه عدم فهم الناس لفلسفته ، فبدا كأنه لا يستطيع مقاومة استخدام الرواية كوسيلة للوعظ والتبشير كلما سنحت الفرصة لذلك ، ويبدو ذلك جلياً فيما يلي من أعمال وخصوصاً في «كنغارو Kangaroo» (١٩٢٣) و«الحـيّـة المجنّحـة The Pluved Serpent» (١٩٢٦) و«عشيق الليدي تشاترلي» (١٩٢٨) ، حيث تضيع لحظات رائعة ومواقف من أجمل ما كتب لورنس في زحمة من التكرار والوعظ والتعليق . أمّا روايته الأخيرة ـ موضوع كتابنا ـ «عشيق الليدي تشاترلي» فقد أثارت ضجة كبرى نظراً لجرأتها المتناهية في تصوير العلاقات الجنسية ، ولم تنشر كاملة في إنكلترا إلاّ مع بداية الستينات ، ولعل القارئ ذكر قضية نشرها في إنكلترا وما أثارته من اهتمام في الأوساط الأدبية في العالم أجمع .

□ لورنس والتجديد من خلال «عشيق الليدي تشاترلي» :

بالرغم ممّا يقال أحياناً من أن لورنس لم يكن مجدّداً من ناحية الشكل الروائي ، وأن إضافته للرواية اقتصرت على المادة الجديدة التي أضافها أو المواضيع التي عالجها ، فمما لا شك فيه أن هذه المادة الحديثة اقتضت تطوير الشكل التقليدي ، بحيث لا يمكن القول إنّ «نساء عاشقات» أو «عشيق الليدي تشاترلي» مثلاً لا تختلف في الشكل والتصميم أو التكنيك عن روايات جورج إليوت وهنري جيمس . فالذي لا شك فيه أن لورنس قد جدّد بالفعل في أساليب الرواية كي يتمكّن من تصوير النفس الإنسانية أو الإنسان الكامل كما يراه .

يرى لورنس أن وظيفة الفن هي الكشف عن العلاقة بين الإنسان وبين عالمه المحيط به في اللحظة الحية . وهذا الرأي قائم على اعتقاده

بأن الإنسان يحقق ذاته بتكوين عدد من العلاقات الحية بالعالم المحيط به : علاقة بينه وبين شخص آخر ، بينه وبين أخته ، بينه وبين جنس من الأجناس ، بينه وبين الحيوان ، بينه وبين النبات ، عدداً لا حصر له من العلاقات الخالصة ، الكبيرة والصغيرة ، مثل نجوم السماء . والرواية وحدها ، في رأي لورنس ، هي القادرة على تقديم الحياة بأكملها ، فبالمقارنة بها لا يعالج الدين أو العلوم أو الفلسفة أو الشعر إلاّ أجزاء مشتقّة من الكل . أمّا العلاقات بين الإنسان وغيره من الناس فأهمها ، على كثرتها وتنوعها ، العلاقة بين الرجل والمرأة . فالعلاقة بين رجل وآخر ، أو بين امرأة وأخرى ، أو بين الأب والابن ، ستظل دائماً علاقة ثانوية . كذلك فإن العلاقة بين الرجل والمرأة ستظل دائمة التغيّر ، وستظل دائماً المفتاح الرئيسي للحياة الإنسانية . فالرواية إذاً لقدرتها على الكشف عن هذه العلاقة في اللحظة الحية تستطيع أن تساعد على الحياة أكثر من أي شيء آخر ، كذلك فإنّ الرواية تهتم بالكائن الحي ككل وليس كروح أو عقل أو جسد فقط .

طوّر لورنس لنفسه أسلوباً يمكّنه من الكشف عن التجربة الإنسانية في اللحظة الحية ، أي في لحظة التجربة نفسها ، ومن نقلها بكل ثرائها وحيويّتها ودفئها ـ حال الليدي تشاترلي ـ وبالرغم من اتساع اهتمامات لورنس وتعدّدها إلاّ أن العلاقة بين الرجل والمرأة ظلت محور رؤيته للحياة الإنسانية . فالذي لا شك فيه أن لورنس كان يرى الفرد في العالم الصناعي الحديث ويدرك مدى أثر المدنية الصناعية فيه ، وفي حياته النفسية أو العاطفية على وجه الخصوص ، ويدرك كنه انفصال الكائن الحي عن الكون أو الطبيعة وما يعنيه ذلك من فقر وجدب بل موت . كان يتوق أحياناً إلى العودة إلى الحياة البدائية أو

الطبيعة ـ كوخ البستاني العشيق ـ ويتصوّر أن في ذلك خلاص الإنسان، ويلعن أحياناً العقلانية والآلية التي تقتل منابع الحياة في الإنسان الحديث. ولكنه كان مهتماً في الدرجة الأولى بالكائن الحي المتكامل الذي يحقق ذاته من طريق إقامة علاقات حية فعّالة بينه وبين العالم المحيط به، بينه وبين غيره من الرجال والنساء، وخصوصاً بينه وبين امرأة تكمله روحاً وجسداً.

ولعل هذا هو السبب في أن روايات د. هـ. لورنس التي تعالج العلاقات الإنسانية الخاصة في الدرجة الأولى ترتكز على خلفية واقعية تتميز بالدقة والصدق. فقد صوّر الحياة في المناطق الصناعية، وبين عمال المناجم، وبين المزارعين، كما لم يفعل أحد من قبل، كما صوّر أثر المدنية الصناعية لا على العمّال فحسب، بل على ضحاياها من أصحاب الأعمال ومديري المصانع ـ واللوردات أيضاً ـ ممّن يصبحون عبيداً للآلة كما هو الحال في «عشيق الليدي تشاترلي» في شخصية «لورد تشاترلي» كما قدّم لنا صوراً للحياة البوهيمية التي يهرب إليها المثقفون والفنانون والمثرون ـ الليدي تشاترلي ـ وصوراً للبرجوازية الصغيرة وأمثلة من الطبقة الأرستقراطية. قدّم كل ذلك في صور ملحمية تتبع اتصال الحياة وطور طرقها وتتميز بالعمق والامتداد، وتكشف عن تعدّد وجوه الحياة وتباينها، ولكنها تؤكد فلسفة هامة هي أن الحياة مستمرة، وأن الإنسان كفيل بتحقيق ذاته وسعادته إن سلك السبيل السويّ وأدرك القيم الحقيقية للحياة الإنسانية.

شخصيات الرواية:

كلفورد تشاترلي: بارون (ضابط متقاعد) كسيح.

كونستنس (كوني) تشاترلي: زوجة البارون، اتخذت لقب «الليدي».

السير مالكولم : والد الليدي تشاترلي .
هيلدا : شقيقة كوني (الليدي) .
دنكان فوربز : صديق عائلة الليدي .
ملورد : حارس الصيد وخادم البارون .
السيدة بولتون : الممرّضة .
ميخائيل الإرلندي : كاتب تمثيليات .

بداية . . نهايتها بانتهاء الرواية

«عصرنا عصر حزن وأسى ، ولهذا نأبى أن ننظر إلى الدنيا نظرة تفجّع وتلوّع . لقد أخذتنا الجائحة ، وها نحن اليوم بين الأنقاض ، نبني من جديد ، ونأوي إلى مساكن صغيرة جديدة . إنه عمل شاق ، وليس أمامنا طريق ممهّد للمستقبل ، ولكنّا ندور ونلف أو نتعثّر بالعراقيل ، وعلينا أن نحيا مهما كان الأمر ، علينا أن نعيش دون التفات إلى عدد النكبات التي نزلت بنا» .

ذاك كان موقف كونستنس تشاترلي ، فقد قوّضت الحرب دعائم بيتها فسقط على رأسها ، وأيقنت بعد أن جرفها تيار المصائب أنّ على المرء أن يحيا وأن يتعلّم .

تزوجت كلفورد تشاترلي عام ١٩١٧ عندما قفل راجعاً من ميدان القتال ليقضي شهراً في الراحة والاستجمام ، وأمضيا شهر العسل في متعة ولذة وهناء . ثم عاد أدراجه إلى ساح الوغى ليصاب بعد ستة أشهر وينقل إلى إنكلترا أشبه بشلو ! وكانت كونستنس في ذلك الحين امرأة يافعة لا تتعدى الثالثة والعشرين وكان يكبرها بست سنين .

تمسّك الإنسان المحطّم بالحياة . . فلم يمت . . وتراءى أن الأشلاء

المزقة قد تجمّعت ثانية في جسد متماسك . ولبث الطبيب يعالجه ويشرف عليه ، حتى إذا مرّت سنتان جهر برأيه وقراره وأعلن للجميع أن الخطر زال ولكن الجسد شُلّ جزؤه الأسفل .

هذا كان سنة ١٩٢٠ ، ورجع الزوجان إلى بيتهما في «رغبي» مقر أسرة تشاترلي ، وكان والد كلفورد قد قضى نحبه قبل ذلك ، فآل إلى الكسيح لقب البارونية وورث بعض المال ، وأضحت كونستنس بذلك تكنّى بالليدي تشاترلي .

عشيق الليدي تشاترلي

- ١ -

عصرنا عصر حزن وأسى ، ولهذا نأبى أن ننظر إلى الدنيا نظرة تفجّع وتلوّع . لقد أخذتنا الجائحة ، وها نحن اليوم بين الأنقاض ، نبني من جديد ، ونأوي إلى مساكن صغيرة جديدة . إنه عمل شاق ، وليس أمامنا طريق ممهّد للمستقبل ، ولكننا ندور ونلف أو نتعثر بالعراقيل ، وعلينا أن نحيا مهما كان الأمر ، علينا أن نعيش دون التفات إلى عدد النكبات التي نزلت .

هذا كان موقف كونستنس تشاترلي ، فقد قوضت الحرب دعائم بيتها فسقط على رأسها ، وأيقنت بعد أن جرفها تيار المصائب أنّ على المرء أن يحيا وأن يتعلّم .

تزوجت من كلفورد تشاترلي عام ١٩١٧ عندما قفل راجعاً من ميدان القتال ليقضي شهراً في الراحة والاستجمام ، وأمضيا شهر العسل في متعة ولذة وهناء . ثم عاد أدراجه إلى ساحة القتال ، ليصاب بعد ستة شهور وينقل إلى إنجلترا أشبه بشلو ! وكانت كونستنس في ذلك الحين امرأة يافعة لا تتعدى الثالثة والعشرين وكان يكبرها بست سنين .

وتمسّك الإنسان المحطّم بالحياة ، فلم يمت . . وتراءى أن الأشلاء الممزقة قد تجمّعت ثانية في جسد متماسك . ولبث الطبيب يعالجه ويشرف عليه ، حتى إذا ما مرّت سنتان جهر برأيه وقراره وأعلن للجميع أن الخطر زال ولكن الجسد شل جزؤه الأسفل ـ أي أن الرأس والصدر كسبا من الموت والحياة ، وما تبقى فقد تجمد إلى الأبد !

هذا كان سنة ١٩٢٠ . ورجع الزوجان إلى بيتهما في (رغبي) مقر أسرة تشاترلي ، وكان والده قد قضى نحبه قبل ذلك ، فآل إلى الكسيح لقب البارونية ، وورث القليل من المال ، وأضحت كونستنس بذلك تكنى بالليدي تشاترلي .

وكان على الزوجين أن يلزما مقتضيات الاقتصاد ، فلا يسرفان ولا يبذخان ، ولا يبذران المال حتى لا ينقصهما المال ، وحتى لا تعوزهما الحاجة .

وكان لكلفورد شقيقة تعيش في مكان بعيد ، أمّا غيرها فلم يبق له من ذوي القربى أحد يعتمد عليه الرجل المستضعف الذي سلبته الحرب من قوته وحيويته وحركته .

وعاش بهدوء وصبر ، وكأنه يزمع أن يحيي اسم العائلة فهو آخر ذريتها ، ومتى قضى امّحى الاسم وتلاشى اللقب ، وحذف سطر من سجل النبلاء يحمل اسم تشاترلي .

وراض نفسه على الجلوس في عربة ذات عجلات ، وضع له فيها آلة صغيرة يديرها متى شاء فيجوس خلال الحديقة ويزجي وقته في التأمل بالأزاهير والورود والخمائل .

ولم يعد يشعر بالألم من كثرة ما تألم ، وانطبع على ثغره شبح ابتسامة فاترة ، وانبعث من عينيه نور يحسبه كل من رآه نور السعادة والحبور .

كان جميل الصورة عريض المنكبين قوي اليدين ، مهندماً أنيقاً . . ومع ذلك فما قدر على إخفاء الحقيقة ، بل إن الحقيقة كانت تسترق طريقها أحياناً إلى عينيه ، فيزوغ بصره ويشرد طرفه ، وتعبر هاتان العينان عن نظرة مترقبة ، نظرة مقعد فارغة لا رجاء فيها ولا أمل ، بل

ترقب وتأمل ، بل فراغ . . فراغ مفزع مرعب !

وكانت كونستنس زوجته متحدّرة هي الأخرى من دوحة عالية باسقة الفروع ، كان أبوها صاحب لقب ، وكانت أمها عريقة الحسب .

وتعلمت الفتاة وأختها في المدرسة وفي الجامعة ، ثم في معهد العالم تعلمتا أصول المحادثة ، ولباقة التصرف ، ورقة الحاشية ، ودماثة الخلق ، حتى أصبح الفن طبعاً فيهما ، والذوق سجية ممتزجة بدمائهما .

ولـمّا شبتا عن الطوق ، وبلغتا ربيع العمر ، تفتحت أكمامهما عن عاطفة الحب ، فأحبتا وعشقتا ، وكان من أحبتا رجلين كالرجال الآخرين ، لا يكتفيان ولا يقنعان ! وقد أخذا كثيراً وطلبا أكثر ! وما فتئا يلحان ويلحفان حتى استحوذا على الياقوتتين وبلغا من الفتاتين الغضتين وطرهما ومأربهما .

والرجل كالكلب في عاطفته وحبه ، فهو لا يبحث إلاّ عن الشهوة الجنسية مهما غلى مرجل الحب في قلبه . أمّا المرأة فحريتها الرائعة النقية أكثر جمالاً من الشهوة ، ولكنها عاجزة عن كبح جماح الرجل ، وعن كبت المشاعر التي يثيرها الرجل في قرارتها . ولا بد لها في نهاية المطاف من الرضوخ والإذعان ، وإلاّ فسيكون الرجل أشبه بطفل مدلّل يغضب ويصرخ إذا ما بخلت عليه المرأة بما يطلب ! بيد أن المرأة قد تسلّم له بجسدها دون أن تتنزل عن حرية روحها ، أو حرية أعماقها . . إنها تستطيع أن تعطيه ما يشاء ولا تعطيه ما تضنّ عليه به وتستبقيه لغيره ـ للرجل الذي يفعم ليلها بالأحلام وينقع صدى روحها ، ويفسح في مجال خيالها آفاقاً شاسعة .

ولـمّا قفلا راجعين إلى بيتهما سنة ١٩١٣ ، رأى والدهما فيهما ما

أثبت له أنهما عجما عود الحب وذاقا ثمرته ، ولكنه لم يثر أو يغضب ، فهو الآخر رجل من الرجال يود دوماً أن تسير الأمور في مجراها الطبيعي دون عقبات أو عراقيل !

ونشبت الحرب فاشتركت الفتاتان في المجهود الشعبي ، وتقابلت كوني أو (كونستنس) مراراً مع كلفورد تشاترلي خريج كامبردج ، وكان في ذلك الحين ابن اثنتين وعشرين سنة ، كان قوي التكوين متين البنيان حلو التقاطيع ، يملأ الشباب أعطافه ، وتزيده بزة الضابط العسكرية مهابة وكمالاً .

وافتتن الشاب بكوني ، وكلف بها وأحبها .

وفي سنة ١٩١٦ مات أخوه الأكبر في إحدى المعارك فأصبح هو وارث اللقب ، وأصبح صاحب المنزل والمزرعة والغابة في (رغبي) .

وود والده أن يبحث ابنه عن امرأة تساويه قدراً ومكانة ، وصدع الفتى بالأمر الذي أعرب عنه الشيخ كرأي ، ولكنه خيّب رجاءه واقترن بكونستنس .

جرى هذا سنة ١٩١٧ ، وأمضى العريسان شهر العسل سوياً ، ثم غادر الزوج بيته لينضم ثانية إلى فرقة العسكرية .

وفي مستهل عام ١٩١٨ رجع كلفورد محمولاً على محفة المرضى . . رجع إلى زوجه حطاماً لا قيمة له . . رجع ملهوفاً مضيع الأمل . . واستقبلته الزوجة الشابة بذهول المخبول . . ومضت الأيام وهي لا تدري من أمرها إلاّ ما يدريه فاقد العقل مما يجري له ويجري حوله .

وقضى أبوه نحبه بعد قليل ، وأصبح يحمل لقبه ويصرف أموره

بنفسه ، ولكن من بعيد ، من كرسيه المتحركة أو سريره ، أو حديقة منزله !

وذهبت شقيقة كلفورد إلى لندن وبقي الزوجان بمفردهما ـ المشلول الكسير القلب ، والحسناء المتلعّجة الصدر !

- ٢ -

كانت رغبي مسكناً مستطيلاً منخفضاً ، حجارته بنية قديمة ، وقد شيّد في القرن الثامن عشر وزيد فيه وأضيف إليه ، وكان المسكن يتوسّط حديقة ينتشر فيها شجر البلوط وتتخللها خطوط من الزهر والورود .

وهكذا سارت الأمور : الأمور المقدّرة ، الأمور المكتوبة في لوحة الزمان سارت في مجراها ؛ وكانت مريعة ، ولكن ما فائدة الاحتجاج والتذمر والتمرد؟ سارت الأمور كما خُطّ لها ـ واتجهت الحياة في تعاريجها ودروبها وشعابها !

وفزعت كوني وخُيّل إليها أنها تعيش في قبرٍ ، وما عتمت أن ارتاضت على هذه الحياة وعلى هذا المنزل .

لقد وصل ـ السيد سيد البيت والمقاطعة إلى رغبي ، ولكن أحداً لم يحتف به ، ولم تهرع إلى بيته وفود الفلاحين . . ! إنهم أجلاف ! هؤلاء الفلاحون ـ هكذا فكرت كوني ـ إنهم أجلاف !

ولم يكن هناك أي اتصال بين هذا البيت وبين قرية (تفرشل) ، ولم يكن كذلك أي علاقة من ود ومحبة . ولـمّا مرّ كلفورد مع كوني في سيارتهما بالقرية ، لم يلتفت إليهما أحد من الأهلين باستثناء بعض الأشخاص الذين حنوا هاماتهم لكوني .

ومع ذلك فقد حزنت القرية لمصيبة كلفورد ، ولو أنها حزنت وابتأست إلاّ أن نساءها تهامسن فيما بينهنّ ، وتحدثن عن الليدي تشاترلي ـ فكانت الواحدة منهم تقول للباقيات : «لقد رأيتها وتبادلت

معها الحديث ، على أنها يجب أن لا تظنّني أدنى منها درجة ، فأنا مثلها امرأة كيّسة مهذبة» .

هكذا عاش الفريقان منفصلين غير متصلين ـ كلفورد مع زوجته وخدمه في بيتهما ، وأهل القرية كلهم في ناحية ثانية . لقد تركهم كلفورد لشأنهم ، وتركوه هم لشأنه . وطفق الجميع ينظرون إلى كوني نظرتهم إلى تمثال لا حياة فيه . وإذا استدعت الحاجة اجتماع الطرفين بحكم المصلحة والعمل ، كان كلفورد يعاملهم بفظاظة ويسمعهم الألفاظ النابية ، كان يحتقرهم في قرارة نفسه ولا يرغب إلاّ في إظهارهم على حقيقة شعوره نحوهم .

أمّا هو فما كان في رأيهم إلاّ شيئاً كسائر الأشياء ـ كبيته مثلاً ، وكحديقته . . وكامرأته أيضاً !

وأمّا العلاقة بين الزوجين فكانت موطدة الدعائم مؤسسة على تفاهم وثقة متبادلة ، ولكنها كانت تأخذ عليه شدته وصرامته في معاملته لأهل القرية الذين يعملون في المنجم . . كانت تلومه على موقفه ، فهم لا شيء في نظره ، هم تتمة عمل لا جزء من حياة . . وظاهرة غير طبيعية ، لأناس مثله يعيشون كما يعيش . .

كان يخافهم ولا يطيق أن ينظروا إليه متأملين . . فقد ذهبت قوته وشلت حركته ، وأمسى مُقعَداً لا حول له ولا طول .

واعتمد الرجل على زوجته ، احتاج إليها ، وكانت بمثابة الدم الذي يجري في نصف جسده الحي . إنه واهن عاجز لا يستطيع إلى الحركة سبيلاً ، ولا يجد إلى الانتقال مجالاً إلاّ في عجلته ، على أنه من دون كوني كان أعجز من أن يفعل شيئاً .

ولكن طموحه لم تخمد وقدته ، بل شرع يكتب القصص ؛ وكانت

قصصه مثيرة تحوي الأعاجيب ، وتتغلغل في أعماق الحياة ، إلاّ أنها لم تخلُ من الفراغ ، ولم تخلُ من الغموض . كانت كأن كل شيء فيها حدث في كون آخر لا حياة فيه .

ونشرت جميع قصصه ومدحها القوم وعابوها ، وكان الانتقاد اللاذع يؤثر في كلفورد كتأثير الطعنة النجلاء في الإنسان المطعون !

وزار والد كوني ابنته في فصل الربيع ، ولـمّا رنا إليها مشفقاً ذات يوم وقال : «عسى أن لا تضطركِ الأحداث إلى معيشة فتاةٍ بتول . . .» .

أجابت وهي شاردة اللب زائغة البصر : «ولماذا؟ لماذا؟» .

قال : «لأنك زهرة تذبلين !» .

ولـمّا خلا إلى كلفورد جابهه بالكلام نفسه وقال معقباً : «وأخشى أن لا توافق هذه الحياة عزيزتنا كوني» .

وفكّر كلفورد ، ثم تصاعد الدم إلى وجهه ، وشعر بالغيظ والمهانة .

ولم يلبث أن تساءل بجفاء : «ماذا تعني؟» .

فأجاب الرجل : «إنها كما أرى تنحل وتذبل» .

وحاول كلفورد بعد ذلك أن يفاتحها بهذا الموضوع ، إلاّ أنه لم يجسر ، فقد ألجم لسانه ـ إنهما زوجان لا يفصل بينهما شيء ، ولكنهما بعيدان كل البعد الواحد عن الآخر ، بجسديهما وغريزتيهما .

وأيقنت كوني أن أباها فاتح زوجها بالأمر ، وأيقنت كذلك أن زوجها لا يحفل شعورها ما دام قد افتقد الشعور والحساسية ، ولم يعد يرى ـ وما لا تراه العين ، وما لا يستوعبه الفكر ، لا وجود له !

ومضت سنتان والاثنان منهمكان في التأليف ـ كلفورد يكتب وهي

تتابع ما يكتب ـ وكأن اهتمامهما انصهر بعد الكارثة في بوتقة واحدة .

وما أكثر ما كانا يغوصان في بحر من الجدل ، فيتباحثان في اللغة والأسلوب والسياق . . ولكنهما رغم هذا كله كانا يشعران أن شيئاً ما آخذ في التبلور ، وأن شيئاً يتكوّن ليقع ـ شيئاً كالهباء أو كالهواء .

وهكذا ابتعدا عن الحياة . . عاشا في الهباء أو في الهواء ، وكانا كأنهما لم يكونا ـ كل شيء لا وجود له ـ بيتهما وقريتهما وخدمهما . . . كل شيء لا وجود له .

*

كانت كوني تخرج إلى الغابة وتنعم بالوحدة والفكر ، ولكنه كان حلماً ، أو حقيقة تبعد إلى أقصى حد عن الحقيقة ـ فأغصان شجرة البلوط كانت كأغصان شجرة البلوط ، ولكنها كانت شبحاً في مرآة ! وهي بالذات كانت شبحاً قرأ عنه الناس شيئاً ! لكنها كانت تجني الورود المبعثرة في الغاب وكأنها تجني أشباحاً أو ذكريات أو كلمات ! لقد تلاشت المادة وتلاشت هي . . ولم يعد هناك شيء يمسّها بعصا الحقيقة . . إلاّ حياتها مع كلفورد ، هذا النسيج الدائم ، نسيج العنكبوت ، هذيان الضمير ، قصص زوجها ـ فراغ . . فراغ !

ودعا كلفورد أصحابه إلى بيته ، دعا أنواعاً مختلفة من الناس ، وكان جلهم من أهل القلم ، وقد سرتهم لفتة الرجل المقعد فأثنوا عليه ثناء عاطراً ، وأطروا كتبه !

وفهمت كوني كل شيء ، وخيل إليها أن كل شيء شبح يتراءى في مرآة ! فماذا دهاها؟ ماذا أصابها؟

وكرّت الأيام ، وكان ما يجري كأنه لا يجري !

وتصرّم الوقت وتعاقب الزمان ، ودارت الساعة ، ودارت ، وتراءى لها للمرة المائة أن الأيام والوقت والساعة ، كلّها ، جميعها شبح مجسّم في مرآة ! . .

فطنت كوني إلى ما لحق بها من قلق واضطراب وتشنّج . . وكان هذا الانفعال يزداد على مر الأيام ، فكانت عضلات وجهها تتوتر دون سبب ، وكانت يداها تنقبضان على الهواء كلما خلت إلى نفسها ، وكان ثمة شيء غامض يتمخض في داخلها ، جعلها تشعر بأنه يجب أن تقفز أو تنطرح على الأرض ، أو ترتمي في الماء البارد إن شاءت التخلص من هذا الشيء الخفي ـ من هذا الشعور المجنون الذي جعل قلبها يخفق قوياً عنيفاً ؛ والذي بدأت صحتها تتأخر بسببه ، وعودها ينحل ، ولونها يصفر !

كانت تفرّ من كلفورد وتنهار على الأعشاب الخضراء في الحديقة ، وكانت تشعر بضرورة مغادرة البيت إن أرادت الإبقاء على عقلها سليماً لا لوثة فيه !

فهل كانت الحديقة ملاذها الحامي؟ وهل كانت الغابة الملجأ الذي يخفف عنها شدّتها؟ كلاّ ، بل كانا مكاناً تفر إليه من البيت دون أن تؤثر الأشجار أو الأزهار في روحها ، ودون أن تبعث الطمأنينة إلى نفسها .

وأيقنت أنها تتمزق ، تتمزق بطريقة ما . . لقد فصل شيء مجهول بينها وبين المحسوس . . ولكن ، ماذا تفعل؟ إنها كمن يقرع رأسه بصخرة . . كما أنها أيقنت أن كلفورد وكتبه وأوراقه هم في الحقيقة هباء !

وأعاد والدها الكرّة فحذرها من النهاية المروعة ، وقال لها : «ولماذا

لا تشغلين نفسك برجل آخر يا كوني؟» .

*

في ذلك الشتاء جاء إلى المنزل ميخائيل الإرلندي ، وكان شاباً موسراً يكتب التمثيليات ويبيعها في أميركا . وقد شق طريقه في المجتمع الراقي في لندن ثم اختلط بهذه الطبقة الرفيعة المترفة . ولكن سرعان ما اكتشف الناس أنه يكره الإنكليز ، فنبذوه وأقصوه عن مجتمعهم ليصبح شبح نبيل لفظه أترابه !

على أن كلفورد شذ عن الجميع واحتفظ بصداقة الشاب ، وجعل يدعوه إلى (رغبي) بين الوقت والآخر . وقد سُرّ الشاب وتودد إلى صديقه معرباً له في كل حين عن شكره وتقديره .

أمّا الحقيقة التي حثّت كلفورد على التقرب إلى الشاب فهي رغبته في أن يقوم الأخير بالدعاية لكتبه في المجلات والجرائد . لقد كان كلفورد يحب الشهرة ، وكانت زوجته تعجب لميله هذا ، وتتساءل عمّا يريده زوجها وعمّا يبغيه هذا المشلول الميت .

وأحبّت كوني في الشاب شيئاً مخالفاً لطبيعة الرجال ، أحبت فيه تواضعه وقلة اكتراثه وعزوفه عن الدعاية لما يفعل ولما يكتب . كان يحدثها باتزان وإيجاز . كان يعلم أن كلفورد يحتاج إليه ولكنه لا يذكر ذلك أمامها . وكان يسأل باقتضاب ويجيب بإيجاز وصراحة .

وعندما كانوا يذكرون المال ، كان يقول ضاحكاً : «إنّ جمع المال غريزة في الرجل ، وهو أمر عادي ، وجمعه لا يجلب للإنسان غير المضرة والأذى» .

فإذا ما ذكّرته كوني بثروته أجاب :

«إنني كتبت وجهدت نفسي في العمل فنلت ما أستحق» .

وما أكثر ما كان يحدق فيها بعينيه الثاقبتين ، فترتعد قليلاً ـ كان يبدو لها شيخاً بالرغم من صغر سنه . . كان يبدو شيخاً لا حصر لعدد السنين التي عاشها . . ولكنه كان شيخاً شاباً يجد المرء فيه ذلك الغموض اللذيذ الذي تحدر إليه من أجيال كثيرة خلت . إنه كالأرض أو كطبقات الأرض ـ قديمة بالية ، إلاّ أن الإنسان لا يصبر على فراقها . . ولكن عجباً ـ إنه طفل محبوب جميل !

وسألته كوني مرة : «وهل تعيش وحدك؟» .

فقهقه ضاحكاً وأجاب : «ماذا تعنين؟ إن خادمي يعيش معي وسائق سيارتي ، ثم إني أزمع أن أتزوج» .

«وهل زوجتك المقبلة إنكليزية؟» .

«كلاّ ، بل إرلندية» .

وقالت مرة أخرى في يوم آخر : «إنّي أشبّهك بعصفور وحيد لا أليف له» .

فأجاب : «وأنت؟ ألست أيضاً عصفوراً ضلّ في تيه الدنيا؟» .

فاقشعر بدن كوني ، وفكّرت في نفسها كعصفورة فقدت أليفها ، ولكنها أجابت بهدوء : «قد أكون ذلك العصفور ، ولكني لا أشبهك» .

ورمقها بعينين متأملتين ، فهاله ما رآه منطبعاً على أمائرها من علامات الحزن والأسى .

وبادلته كوني النظرات ، فشعرت بشيء يجذبها إليه ، وفقدت توازنها ، ونكس هو طرفه ثم رفع رأسه ثانية . وخيل إليها أن الروحين التائهتين قد تلاقتا في صعيد واحد . . وضحكا ، ومد يده إليها

فأمسك راحتها ، ثم جثا قريباً منها وأحاط ساقيها بيديه ودفن يده في ثوبها وجمد ولم يتحرك .

وتولّى المرأة ذهول شديد ، وطفقت تحدق في شعره الجميل وتشعر بنفسه الحار يهب على ساقيها ، ولم تشعر إلاّ وهي تلقي يدها على عنقه ، وارتجف الرجل وارتعش .

وما لبث أن رفع إليها رأسه بنظرة متضرعة لم تقوَ معها على الصمود . . وتدفق من صدرها ذلك الإحساس الذي كمن ونام ليستيقظ الآن قوياً جيّاشاً عارماً !

وأعطته . . أعطته . . ولم يكن لها مفرّ من الرضوخ .

*

«لا تكرهيني . . .» .

قال الرجل ، وقبّل يدها .

فرنت إليه بعينين ضاحكتين وأجابت : «ولِمَ أكرهك؟» .

فهتف بصوت متألم : «أوّاه ! لقد فتحت أمامي مصاريع الجنة» .

وتفرّست فيه متعجبة ، واستتلى هو يقول :

«إنني ذاهب الآن إلى القرية وسأرجع مساء ، فلأقبّل الآن يديك ولأطلب إليك أن تحبيني ، إنني أرغب في حبك» .

ومضى الرجل في سبيله . ولمّا اجتمع الزوجان على مائدة الطعام ، قال كلفورد : «إنني لا أميل إلى هذا الرجل فهو ثقيل مهذار وهو فوق ذلك مغرور يكرهنا» .

فقالت : «ولكنه كريم النفس ، وقد دعوته أنت إلى منزلنا ، كما كنت تدعوه دائماً ، وكما كنت تدعو سواه من الأصدقاء !» .

فهز كلفورد رأسه وقال : «على أن ظاهره خدّاع لا يبين حقيقة باطنه . . إنه مراوغ . .» .

فقاطعته محتدمة : «كفى . . كفى . . لقد أسدى إليك كثيراً من العون ، ومع ذلك أراك تقلب له في دقيقة ظهر المجن !» .

وصمت الزوج وصمتت الزوجة .

لقد أحبته . . فهل أحبته حقيقة؟ هل وقعت في هواه؟ أم أن الحرمان جعلها تظن أنها عشقت؟ أم أنه البعد عن الرجال صوّر لها الوهم حقيقة ، والحقيقة خيالاً؟

ومضت أيام أخرى تساقى في خلالها الاثنان كؤوس الغرام ، فكانا يجتمعان خلسة وفي غفلة عن كلفورد والخدم . وكان هو سيال العاطفة ، فوّار الشعور ، يغمرها بقبلاته ويترشف رضابها حتى تشعر بأنها تذوب تحت وطأة ضماته . . كانت تذوب . . وكأن الكبت الطويل ، والفرج المباغت ، تفاعلا ليسفرا عن كينونة جديدة لها ولروحها ولنفسها !

لقد فارقها ما لزمها من السأم ، وعادت الابتسامة إلى ثغرها ، وعاد الدم فضرج وجنتيها ، وعاد البشر فسطع جلياً واضحاً في عينيها . . لقد تكلمت عيناها بعد أن صمتتا طويلاً . . تكلمت هاتان العينان بعد أن خرستا . . فماذا قالتا؟ ماذا قالتا؟

- ٤ -

لم تحب كوني الرجل كما تحب العاشقة عشيقها فقد كانت مرتبطة بكلفورد ، وكان كلفورد بحاجة إليها ، كان يحتاج إلى قسم كبير من حياتها ، وقد وهبته هذا القسم . ولكنها كانت بجانب ذلك في حاجة ماسة إلى حياة رجل ، وهذا لم يقو كلفورد على إتاحته لها . ولعل قلّة تعلقها بميخائيل يرجع السبب فيه إلى قلق بيّن في طبع الرجل وميلٍ غريزي إلى التغيير والتبديل ـ فالرجل متحرّر من القيود وتأبى نفسه أن تصفدها العاطفة بالأغلال .

وكان كلفورد يتّجه بخطى واسعة نحو الشهرة والإثراء . وقد أخذ الناس يفدون على بيته ليزوروه وليتحدثوا معه . ومن بين القادمين إلى (رغبي) رجال لهم مكانتهم في عالم الكتابة والأدب ، وكان منهم أيضاً شخصيات كبيرة في الجيش والحكومة ، ومع أن مشاريهم كانت تختلف كل الاختلاف ، إلاّ أنهم آمنوا بحياة العقل ، وما خلا ذلك فهو في نظرهم مسألة شخصية خاصة لا يخلق بهم أن يختلفوا فيها .

وقد قال أحدهم مرة وهو يؤيد نظرة الجماعة الآنفة : «إن مسألة الجنس برمتها في الحقيقة لا تعتبر مشكلة . . فنحن لا نرغب في تتبع أثر رجل ذاهب إلى المرحاض ، فكيف نسوغ لأنفسنا أن نلحق به إلى مخدعه وفراشه؟ ففي فراشه تكمن المشكلة إن أردنا اكتشافها . . ولهذا فمتى أغضينا عن الفراش تلاشت المشكلة . إنه الفضول ، فلنتخلّ عنه» .

وأجابه رجل آخر بقوله : «هذا هراء يا صاحبي ، فلو أنت رأيت أحدهم يطارح زوجتك الغرام فماذا تصنع؟ ألا تثور وتقيم الدنيا وتقعدها؟» .

قال : «دون ريب . . إذا رأيته يغازلها في مكتبي على سبيل المثال ، فلكل مكان كما تعلم حرمته ، ولا يليق بالإنسان أن يستعمل غرفة الطعام لشيء غير الطعام» .

«أنت تعني إذاً أنك لا تحفل الأمر إن طارحها الغرام في عش الغرام؟ !» .

«قد أعني ذلك وقد لا أعنيه !» .

ونظر إلى محدثه بعين تقدح شرراً . . فهو يذكر أن هذا الرجل أساء الأدب مرة ، حتى جعله يشك في نواياه تجاه امرأته !

وانبرى ثالث يقول : «أمّا أنا فرأيي هو أن مطارحة الغرام لا تسيء إلى إنسان بقدر ما تسيء مراقصة المرأة ، فهذان أمران تافهان من وجهة نظرنا للماديات والمعنويات ، أليس كذلك؟» .

وعقب رابع يقول : «ألسنا من الداعين إلى التمرّد والانعتاق؟ إن المسألة الجنسية كالحديث ، فمتى حدثتك امرأة بحديث الحب والغرام ، من وجهة عامة أو خاصة ، فحديثها يكون بمثابة الدعوة لشيء ، ولا تثريب على المرء متى بادلها الكلام ليس باللسان ، بل باللمسة والشفة وغيرهما ، وهذا ضروري لإنهاء ما نطق به الفم !» .

وأصغت كوني لما يقال دون أن تشترك في البحث والكلام . كان عليها أن تجلس حيث يجلسون ، لأنها المضيفة وربة الدار ، ولكنها كانت بعيدة بفكرها عنهم جميعاً .

كانت تفكّر بالرجل . . تفكّر بالرجل . . إنها امرأة ، ذاقت ، بعد حرمان ، المتعة واللذة ، فاستفاقت غريزتها ، وتنبهت عاطفتها ، وتفتّح بصرها وبصيرتها . . .

*

وفي صباح الجمعة خرج كلفورد وكوني في نزهة إلى الغابة ، أي خرج كلفورد في عجلته ومشت كوني إلى جانبه !

وكانت الغابة المكان الذي لاذ به روبن هود . كانت فيما مضى غابة عامة تملكها الحكومة ، وأصبحت الآن ملكاً لكلفورد . . أمّا حيوانات الصيد فقد أتت عليها الحرب ، وظلت الغابة لسنين كثيرة دون حارس . فلمّا رجع كلفورد كسيحاً محطماً عيّن لها حارساً شابّاً ، وهو تواق إلى منع الناس عن دخولها ، حتى يخلو فيها إلى نفسه ، ويجلس تحت شجرة البلوط الأثيرة لديه التي أحبها منذ نعومة أظفاره ، ولاذ بها ساعات كل يوم .

ووصلا إلى رأس المرتفع ، فلم يجرؤ كلفورد على الانحدار فأوقف عجلته ، وجلست كوني على صخرة ، وران الصمت عليهما ، وطفقا يتأملان فيما يحيط بهما ويكتنفهما من أرض عُرّيت من الشجر .

وقال كلفورد بغتة : «إنني ناقم على والدي لأنه رضي بقطع أشجار هذا الجانب من الغابة . .» .

قالت : «ولكنه قطعها منساقاً وراء الرغبة في توفير الوقود للآلة الحربية !» .

قال : «ولكن هذه الناحية هي مثال صادق عن إنكلترا القديمة ، ولا حياة لإنكلترا الجديدة متى زالت تلك الظاهرة التقليدية ، ظاهرة التمسك ببعض عاداتنا ، أو ببعض مناظرنا التي تذكرنا بتلك العادات والتقاليد !» .

قالت : ولكن مآل هذه الغابة مهما بذلت في إصلاحها وإرجاعها إلى عهدها القديم مجهول ، أو على الأصح ، سوف يؤول أمرها إلى

سواك من الناس فيزيلوا معالمها ، ويطمسوا آثار إنكلترا القديمة فيها . .» .

قال : «أصبت ، فأنا لا أملك من أمر ذريتي شيئاً . .» .

قالت : «أوّاه ! لو كان لدينا ابن نرعاه ويرعى هو بدوره هذه الغابة !» .

قال : «لو . . لو . . ولم لا يكون؟ وماذا يمنع أن يكون؟ ألا يجدر بنا أن نظفر بالابن من رجل آخر؟ وما قيمة الأبوة في نظري إلاّ كقيمة قبضة من هواء ! ومتى كان لدينا الطفل ، شعرنا بأنه لنا . . لنا نحن !» .

وفكرت : الطفل . . . لنا . . . نحن . . . تبّاً له ! الطفل في نظره شجرة . . ملك . . عقار . . أثر !

وقالت : «ومن هو الرجل الآخر؟ من؟» .

قال : «وهل يمثل الرجل الآخر مشكلة لا انحلال لها؟ ما أهمية الرجل الآخر ما دمنا نقر الفكرة ونوافق عليها؟ لقد أحببت رجلاً في ألمانيا ، فماذا تبع ذلك؟ لا شيء ، ذهب هو في سبيله ، وذهبت أنت في سبيلك . . وماذا تبع علاقتك به؟ لا شيء ! ويخيل إليّ أن هذه العلاقات الطفيفة ، التي نصنعها في حياتنا ، لا تؤثر في كثير أو قليل في هذه الحياة . . فهي تمر كما تمر السحابة في الأفق . . وما يؤثر ، وما يعني الإنسان هو ما يبقى ، فأنا تعنيني حياتي ، لأنها باقية ، ولأني حريص على بقائها ! وأنتِ كذلك ، وغيرنا من الناس أيضاً !» .

وفكرت كوني بميخائيل ، ولكن زوجها يمقته ، فمن من الرجال تختار إذاً؟

وقالت بغتة : «وهل تكترث كثيراً بشخصية الأب؟ أعني هل يخلق بنا اختياره بعد إعمال الروّية؟» .

قال : «إني أفوّض أمره إلى اتزانك وعقليتك ، فوالد ابننا يجب أن يكون إنساناً بمعنى الكلمة» .

قالت : «على أن للرجل نظرة تختلف عن نظرة المرأة ، فأنت تعتبره أمرأً من الناس تافهاً لا قيمة له ، بينما أعتبره أنا رجلاً مثالياً !» .

قال : «كلاّ . . كلاّ . . لقد اخترتني من بين الناس ، وأحببتني ، ولهذا ترينني أثق بذوقك وصدق فراستك !» .

قالت : «وهل ترغب إليّ في إحاطتك باسم الرجل؟» .

قال : «كلاّ . . كلاّ . . فمن الخير لي أن لا أعرف والد ابني !» .

وفكّر قليلاً ثم استتلى :

«وأنت ولا شكّ توافقين معي على أن الحياة الجنسية لا قيمة لها إذا قيست بالحياة التي يعيشها اثنان معاً ، ويقضيان العمر فيها متقاربين متفاهمين . ألا تظنين أن الإنسان يستطيع أن يخضع عاطفته الجنسية لمتطلبات حياة طويلة؟ وعلى كل هل لهذه الاتصالات الوقتية أهمية كبرى في حياتنا؟ فمتى كان خلوّ الحياة من العاطفة الجنسية سبباً لتحطيمك ، فاخرجي واشفي غليلك . . . ومتى كان الحنين إلى طفل مقدمة إلى شقاء دائم ، فاحملي وأنجبي الطفل المنشود ! ولكن عليك أن تفعلي هذه الأمور لغاية واحدة فحسب ـ للإبقاء على اندماجك في الحياة وشعورك بأنك من جملة من يحيا ! على أن تستمري في نسج حياتك في حياتي ـ وهذا هو ما أعنيه ساعة أذكر الاندماج» .

واضطربت كوني ـ إنه صادق مصيب ، ولكن ، هل يتسنى لها الاستمرار في رفقته؟ هل تستطيع أن تندمج في حياته إلى الأبد؟ !

وقالت : «أنت على حق يا كلفورد ، بيد أني أخشى أن يجري ما لم يكن في الحسبان» .

قال : «إلى أن يقع غير المنتظر ، لا يسعنا إلاّ المضيّ في طريقنا المرسوم ، فهل توافقين؟» .

قالت : «نعم ، أوافق» .

وكانت تراقب في تلك الأثناء كلب صيد خرج من وراء دغل وجعل ينظر إليهما بأنف مرفوع ، بينما بدا من الناحية الأخرى رجل يحمل بندقية ويسرع نحوهما ، ولا يعتم أن يقف فجأة ويحييهما .

كان الرجل حارس الصيد الجديد ، ولكنه أخاف كوني ، فقد بدا كأنه ظهر بمصيبة جديدة . . هكذا رأته كوني ـ كهجمة شيء مخيف ـ شيء مخيف لم تعلم مصدره ولا كنهه !

كان وجهه أحمر وشارباه حمراوين . . كان حادّ البصر . . وانحدر هابطاً في السفح .

بيد أن كلفورد صاح بأعلى صوته : «ملورد . . ملورد . .» .

ووقف الرجل ، واستدار ، ثم أدى التحية ، كما لو كان جندياً يحيي قائده !

وقال كلفورد : «أرجو أن تحوّل اتجاه العجلة وتدفعها قليلاً ، فهذا يسهل تقدمنا» .

فألقى الرجل بندقيته على كتفه ، ودنا من كلفورد بتلك الخطوة الخفيفة الناعمة . وكان طويلاً في اعتدال ، نحيفاً في عدم إسراف ،

وكان صموتاً ، وتجنب النظر إلى كوني ، وحدّد عينيه في الكرسي فقط .

وقال كلفورد : «هذا هو حارس الصيد الجديد يا كوني . . . ملورد ، ألم تحدث الليدي تشاترلي من قبل؟ ألم تصدفها في الغابة؟» .

قال : «كلاّ يا سيدي ، لم يحدث هذا» .

ورفع قبعته عن رأسه ؛ فكشف عن شعر كثيف ذهبي . وحدّق في عيني كوني بنظرة جريئة ، كأنه يود أن يعلم مَن مِنَ النساء هي . حتى أنها شعرت بالحياء ، وحتى أنها أحنت له رأسها بحَياء . وأحنى هو لها هامته كما يفعل رجل مثقف ، ولكنه لم يقل شيئاً .

أمّا كوني فقد قالت تسأله : «ومتى جئت إلى هنا؟» .

قال : «منذ ثمانية شهور» .

قالت : «وهل ارتاح قلبك إلى الناحية؟» .

قال : «أجل ، فأنا ابن المنطقة . .» .

وكان صوته مشوباً بلهجة غامضة أدنى إلى التهكم . . كان في حديثه وحركته أشبه برجل اختلط بالطبقة الراقية . . وعجبت كوني .

وتقدّم الرجل من العجلة ، وعندما أدار كلفورد آلتها ، أمسك بها من الخلف وحوّلها صوب المنحدر ، وتقدموا جميعاً .

واختلست كوني إليه النظر ، فلم تجد فيه طبيعة الخادم ، بل وجدت رجلاً قوياً في إهاب جندي يؤدي واجبه بأنفة وكبرياء !

ولدى وصولهم إلى الحاجز المفضي إلى المنزل ، أسرعت كوني راكضة وفتحت الباب . ولـمّا عبر الرجلان ، نظر إليها كلفورد نظرة

منتقدة ، ونظر إليها الحارس بعينين تجلّى فيهما الفضول . . ولا شك أنه كان يتشوق إلى معرفتها ، معرفة حقيقتها وسبر غور نفسها ، واستشفاف أعماقها ، واستكشاف ما جبلت عليه . . لقد استحوذت المرأة الجميلة على تفكيره ، ولم تغفل هي عن ذلك . . بل استطاعت أن ترى في عينيه الزرقاوين ألماً دفيناً ، وهمّاً مكبوتاً ، وانعزالاً وانفراداً . . وكذلك أحست بأن فيهما دفئاً وحرارة .

ولـمّا دخلوا ، أوقف كلفورد العجلة وقال موجّهاً كلامه إلى زوجته :

«ولماذا هرولت؟ لماذا عدوت؟ ألم تصبري؟ ألم يكن الأحرى بك أن تنتظري ريثما يفتح ملورد الباب؟» .

قالت : «أحب الركض أحياناً وأشعر أني لم أخالف التقاليد !» .

واستأنف الثلاثة تقدمهم ، وبدا على الرجل كأنه لم يسمع كلمة من حديث الزوجين ، ولكنها أيقنت أنه وعى كل شيء .

ولـمّا انفرد الزوجان سألت كوني زوجها فجأة :

«من هو حارس صيدك هذا؟» .

«إنه مواطن وجد في هذه البقعة وترعرع وبلغ طور الرجولة ، ثم ذهب إلى الحرب ولـمّا رجع ألفى امرأته بغيّاً فاجرة ، فحاول إصلاحها ، ولكنها لم ترعو ، بل تمادت في الغيّ ، وفرّت مع رجل آخر . .» .

«وهل يعيش وحده؟» .

«أجل ، وقد كان والدي يثق به ويستأمنه» .

«أليس له أم؟» .

«أعتقد أن أمه تعيش في القرية مع ابنته» .

ورمقها متعجّباً ، واختلست إليه النظر ، فرأت الحياة تعيش جنباً لجنب مع الموت ، رأت النصف الأعلى يفور بالحياة والحركة ، ورأت النصف الأسفل يفنى في الموت !

ورأت في شيء من الغموض ، رأت في غلالة ، قانوناً عظيماً من قوانين الروح البشرية : هو أنه عندما تصاب الروح العاطفية بصدمة شديدة لا تقتل الجسد ، فإنها تشفى شيئاً فشيئاً كما يشفى الجسد من الجرح . إلاّ أن هذا يجري في الظاهر فقط ، إنه رجوع الروح إلى طبيعتها وعادتها ، ثم يبدأ جرح الروح يؤلم صاحبها ، ويكون كالطعنة التي تعمق رويداً رويداً حتى تصبح عامة قتالة تمتد إلى الذهن المفكر . . وعندما نظن أننا شفينا ونسينا ، يقع ردّ الفعل المريع ، وتبدأ الآلام ، وتتضاعف الأسقام !

هكذا كان شأن كلفورد ـ فما برئ من أوجاعه ، وما شفي من آلام جسده ، وما رجع إلى (رغبي) وانكب يكتب ويؤلف ، ويشعر بالحياة تدب في جسده ، ويشعر بأنه يعيش حقاً وبأعجوبة ، حتى رأت كوني جراح الخوف والرعب تملأ قلبه وإحساسه .

وكما انتشر في قلبه وإحساسه وحشاشته هذا الخوف المهول ، انتشر في حناياها هي ـ لقد أحست به يتغلغل في نفسها ، ويتشعب ويتفرع ، حتى انقلب الضياء ظلاماً والحقيقة سراباً .

وقد تكلم كلفورد بحماسة عن ضرورة وجود وارث لـ(رغبي) ولو كان أبوه رجلاً من الخارج . . إلاّ أن حماسته ما لبثت أن خمدت وهمدت ، وأصبحت الكلمات البراقة ، التي تلفظ بها ، أشبه بأوراق الشجر اليابسة التي تذروها الريح ـ لم تكن كلماته أوراق حياة حقيقية

مجدية ، حياة صغيرة قوية لشجرة وارفة باسقة ، بل كانت كلمات أوراق ميتة لحياة ميتة !

يا للمسكينة ! تعاقبت الأيام ، وأثّر في حياتها الخوف من اللاشيئية التي ملأت عليها حياتها . . وأصبحت حياة كلفورد الذهنية وحياتها هي أيضاً تشعران شيئاً فشيئاً باللاشيئية . . وطفقا يريان أحياناً أن زواجهما ، وحياتهما المندمجة المؤسسة على عادة الألفة والمودة ، ليسا في الحقيقة إلاّ فراغاً ـ فضاءً ـ هباءً ـ لا شيء !

كل شيء أصبح لا شيء ، وما خلا ذلك فكلام تملق وتزويق وتمويه ؛ يخدع هو به نفسه والحقيقة ، وتجاريه هي فتخدع نفسها والحقيقة !

ولا شك أنه أحرز الشهرة ، وكتبت عنه الصحف ، وظهرت صوره في معارض الكتب والكتاب . ولكن كوني لم ترَ من عبقريته إلاّ كذبة ، ولم ترَ من فنه إلاّ خدعة !

لا شيء . . لا شيء . . هذا هو خلاصة الكأس ـ كأس السم الذي كانت الأيام تقدمه لها على دفعات !

ومضت حياتها على الوتيرة نفسها ـ أفكار وأفعال وأعمال . . وكل شيء باطل . . واللاشيئية يستفحل أمرها في أعماقها . . والتمثيلية تتجسم في ناظريها ـ التمثيلية ـ الهزء ـ السخرية ـ باطل . . باطل باطل . . . وخيل إليها أن في الكون صوتاً واحداً ـ صوتاً رتيباً لا يني يردّد بجرس واحد ، وبنغمة واحدة :

باطل . . باطل . . باطل . .

وكادت تُجن ـ كادت تفقد إدراكها وعقلها !

ومثّل ميخائيل الدور الأول معها في هذه التمثيلية ، وكان أبرع من

كلفورد في نظرها ـ بالتمثيل والإجادة على مسرح اللاشيئية !

ورأت فيه سخفاً وغروراً ، فآلت على نفسها بعد مغامرتها معه أن لا تطلب المزيد مع رجل سواه . . لقد طلب إليها أن تتخلى عن زوجها فأظهر لها بذلك أنانية تشبه لاشيئية حياتها . . وهكذا وطّنت النفس على أن لا تطلب شيئاً .

ولكنّها تطلب طفلاً ! طفلاً ! لمَ لا تقدم على تحقيق هذا الأمر؟ وليس لها إلاّ البحث عن الرجل المنشود ـ الأب الموعود ـ الذي يجيء ويذهب كسحابة صغيرة !

ولكن الرجال طفقوا يثيرون اشمئزازها واحتقارها ـ لقد فكرت بميخائيل كحبيب ، فهل يمكن أن تقنع به أباً لوليدها ! هذا اللاشيء ، هذا التافه !

فعليها إذاً أن تبحث عن الرجل ، ولتبحث عنه في الشتاء القادم في لندن أو في پاريس أو في روما ـ ستبحث عنه ، يجب أن تجده ، وستقنع زوجها بعد أشهر بالسفر إلى هذه المدن العجيبة التي يعيش فيها آلاف الرجال !

*

وأمطرت السماء ، فكفّ كلفورد عن الخروج إلى الغابة ، وجعلت كوني تلجأ إليها بمفردها ، وقد سرّها ذلك ، سرّها أن تخلو مع نفسها ، وأن تنفرد بأفكارها وتأملاتها بعد أن أكرهت في الشهور المنصرمة على ملازمة كلفورد ومزاملته في كل ساعة من ساعات النهار .

أمطرت السماء ، وخرجت كوني ذات يوم بناءً على رغبة زوجها لترى حارس الصيد في أمر هام ، فقد مرض الخادم فجأة ولم يرَ كلفورد مانعاً من تفويض زوجته بالمهمة .

ومشت كوني بخطى وئيدة ، ووطئت الأرض التي تغطيها طبقة من أوراق الشجر ببطء وتثاقل وكأنها عجوز بلغت من العمر عتيّاً !

وخرجت من الغابة في الجهة الشمالية ، فظهر لها منزل حارس الصيد ، وكان صغيراً بنيّ اللون يبدو كأنه كوخ مهجور لا يسكنه إنسان . . ولـمّا دنت منه أعجبها فيه حديقته الصغيرة التي تنتثر فيها الأزهار والورود ، كما أعجبها ما اكتنفه من النظافة والنظام .

وشعرت بالخجل ، فالرجل كما بدا لها مثقف مدرك ، ورأت في إلقاء الأوامر عليه غضاضة له ، وودت لو رجعت من حيث أتت . . ولكنها قرعت الباب فلم تسمع من الداخل أي جواب . وأعادت الكرة ، ولـمّا لم ينفتح لها الباب ، اشرأبت بعنقها قليلاً ونظرت من النافذة ، فشاهدت الغرفة الصغيرة المعتمة قليلاً ، المطمئنة إلى هدوئها وعزلتها ، وخُيّل لكوني أن الغرفة تشبه صاحبها في عزلته ووحدته ، وبعده عن الناس !

ولـمّا تأكدت من عدم وجوده دارت حول الكوخ ، ثم انحدرت قليلاً في السفح الذي يفضي إلى الغابة من الناحية الثانية .

ولكنها لم تملك نفسها من الوقوف بغتة ، وكأن شيئاً خفيّاً شدّ قدميها إلى الأرض شدّاً !

فإنها ما كادت تقطع مسافة قليلة حتى شاهدت الرجل يغتسل . كان عارياً من ملابسه ، وكان يدير للبيت ظهره ، لهذا لم يرها أو يشعر بوجودها . كان يغسل رأسه في إناء ضخم ، كان يرفع رأسه إلى أعلى ، ثم ينحني حتى يختفي وجهه في الماء . . وكان لحركته تفاعل عجيب في عظام ظهره ، كان نحيفاً ، ولكن قوياً . . كان رقيق العود ، ولكن متينه . . كان أبيض البشرة دون تشويه . .

ونكصت كوني على عقبيها مرتاعة ، وهرولت إلى الغابة من الطريق التي عبرتها . . وشعرت بشيء مخيف ـ رجل عار ! وماذا في هذا الأمر؟ رجل عار ! . . ولكنها أحست بالقشعريرة تسري في ظهرها ـ رجل يعيش وحده ـ هذا جميل ، ويغتسل عارياً دون أن يخشى أعين الرقباء ، هذا رائع ـ وقد رأته هي ، ولكنه لم يشعر بها ، هذا مريع !

إنه جميل ، وقد أسبغت عليه الوحدة والطبيعة جمالاً خاصاً . . إنه جميل ، ليس في جسمه فحسب ، بل في دفء هذا الجسم ـ لقد خُيل إليها أن الجسم دافئ ـ لذيذ ـ كالطبيعة التي تغمره بحنانها وتلفّه بوشاحها الرطب الذي تشيع فيه ليونة منبثقة من سحر الجبل ، وفتنة الشجر ، وسقسقة العندليب ، وتغريد البلبل ، ونقيق الضفدع أيضاً !

وهكذا هربت من نفسها ـ نعم هربت من نفسها ـ وجلست بعد قليل على حجر ، ولم تفكّر ، فقد اختلط عليها الفكر . على أنها عولت أن تتم ما جاءت من أجله ، ولهذا تريثت وانتظرت ، وما لبثت بعد ربع ساعة أن رجعت أدراجها فقرعت باب الكوخ .

وسمعت صوتاً ، ثم فتح الباب ، وحملق فيها الرجل مشدوهاً . إلا أنه ما لبث أن ابتسم ضاحكاً وقال بهدوء الواثق :

«الليدي تشاترلي ! تفضلي ، ادخلي !» .

فقالت : «إني آتية إليك برسالة من السير كلفورد» .

قال وقد تغيّرت حالته من الرجل الهادئ إلى الجندي المتأهب لتلقي أمر ضابطه : «مري أصدع يا سيدتي !» .

ولـمّا أطلعته على ما يريده زوجها ، تفرّس فيها مصعداً طرفه

الثاقب في جسدها ووجهها . وبدا الإعجاب جليّاً في نظرته . . وتردّدت المرأة الحسناء ، وهمّت بالرجوع ، إلاّ أنها قالت متسائلة :

«هل تعيش وحيداً في هذا المكان؟» .

«أجل أعيش بمفردي» .

«وأمك؟» .

«تعيش في القرية مع طفلتي !» .

ونظرت كوني إلى عينيه ، فلمحت فيهما ابتسامة تختلف عن ابتسامة شفتيه ، وارتجفت ، واختلجت أهدابها !

وكفّت العينان الزرقاوان عن الابتسام ، فخيل إليها أنهما تبكيان ، ومع ذلك لم تفقدا ذلك الدفء اللذيذ ! كانت عيناه دافئتين ، ولكن ، كيف شعرت بدفئهما؟ إنها الغريزة السادسة ، غريزة المرأة التي لا يملك الرجل شبيهاً لها . . إنها الغريزة السادسة .

وانثنت بغتة وانصرفت . . ولبث هو ملازماً الباب . . ولبث نظره يتبع الجسد اللدن الطري المبتعد بسرعة . . ولبثت الأفكار تطوف برأسه .

أمّا هي فقد تعثرت قدماها مراراً ، وكان عقلها أيضاً يتعثر بفكرة واحدة ! إن عينيه دافئتان ، وجسده دافئ ! !

إنه يخالف ميخائيل ويناقض زوجها . .

إنه وحيد . . وحيد . .

وهو لذلك طاهر لم تلحقه أوضار المجتمع

هو طاهر لأنه لم ينصهر في نفاق المجتمع

هو طاهر لأنه صديق الطبيعة وحبيبها

وهو رجل لأنه يعيش وحده مع هذه الطبيعة .

- ٥ -

عندما صعدت كوني إلى مخدعها في تلك الليلة، نضت عنها جميع ملابسها، ووقفت أمام المرآة تتأمل في جسدها العاري. ولم تعلم ما كانت تبحث عنه، لم تعلم الحافز لها على التأمل في ثنايا هذا الجسد.

ولكنها فكّرت... ما أضعف هذا الجسد! ما أشد ضعف الإنسان! إنه غير مكتمل، إنه ناقص متى تعرّى!».

كان جسدها ممشوقاً، وكان قوامها أهيف، إلاّ أن قعودها واستسلامها، وقلة مبالاتها، شوّه قليلاً من رشاقتها. لم تكن مديدة القامة، بل كانت تميل إلى القصر، وخيل إليها وهي تتأمل شكلها أنها صبي مترعرع طفق جسده ينمو أكثر من اللازم لشراهته وكسله!

وأيقنت وهي حزينة مبتئسة أن جسدها قد ترهّل قبل الأوان، وأنها ستفقد رواءها وملاحتها إن لم تنتبه إلى نفسها، وإن لم تبادر إلى معالجة قوامها بالرياضة المستمرة، وبأشياء «أخرى» تعيد إليها أنوثتها وفتنتها!

ولبست منامتها، ورقدت في فراشها، ولكنها لم تنم، بل أرخت العنان لأحزانها وذرفت الدمع المدرار. وفي مرارتها هذه نقمت على زوجها، وعلى كتابته، وحديثه. نقمت عليه وعلى من يماثله لاستهانتهم بالمرأة وبحق جسدها عليها! بل شعرت في تلك الليلة بالمقت الشديد له.. أليست إنسانة؟ أليس لجسدها من الحقوق والواجبات عليها ما يضطرها إلى منح هذا الجسد تلك الحقوق وتأدية تلك الواجبات؟!

ظلم ! ظلم ! إجحاف ! إجحاف ! واندلعت النيران في أعماق روحها ، اندلعت نيران الشعور بالظلم الذي يحيق بجسدها .

ولكنها لم تتأخر في كل صباح عن النهوض في الساعة السابعة ، كما أنها لم تتخلّف عن واجباتها ، بل أدتها كلها في مواعيدها وأوقاتها .

على أن ذلك الإحساس لم يتخلّ عنها ، بل لزمها ملازمة الظل ، والشعور بالظلم خطر داهم متى نبه من هجعته ! ويجب اكتشاف المنفذ له ، يجب العثور على المتنفس ، وإلاّ التهم الشخص الذي تنبه في أعماقه . . فيا لكلفورد المسكين ! إنه لا يلام . . ومصيبته أفظع المصائب ، وآلامه أشد الآلام ، وأسقامه لا مثيل لها بين الأنام !

ولكنّ ذلك لا يعنيها ، إنها تتعذّب وتتألم ، وموات الإحساس في زوجها لا يملي عليها أن تميت إحساسها .

وغزت قلبها موجة تمرّد وانتفاض ـ وتأملت في حالتها ، وتساءلت عن قيمة تضحيتها ، وتساءلت عن هذا الواجب الشاق الذي فرضته من تلقاء نفسها على نفسها .

وقرأت لفيلسوف معاصر متعمّق في الأبحاث الإنسانية :

«أعطني لذة اللمسة . . لذة اللمسة . . عوضاً عن لذة الجيب ! !» .

وتجاوب في أعماقها صدى الكلمات . . وهتف هاتف في مهجتها :

«وأعطني أيضاً البعث . . بعث الجسد ! !» .

وأحست بالنشوة ، وبكت ثم ضحكت .

وغمرها تيار اليأس فأدارت وجهها ناحية شقيقتها هيلدا تستجير

بها وترجوها أن تهرع إلى نجدتها . وجاءت هيلدا في سيارتها ذات المقعدين ، وما وقع بصرها على شقيقتها حتى هتفت ملهوفة مذعورة :

«أنت مريضة يا عزيزتي !» .

وكانت تكبرها بسنتين .

وأجابت كوني : «كلاّ لعلّي ضجرة مللت الحياة !» .

وظهرت على تقاطيع هيلدا علائم التأهب لخوض المعركة ، وما لبثت أن قالت : «تبّاً لهذا المكان البائس !» .

وكان المكان حقّاً بائساً ، بل جامداً إذا قورن بالحياة المتدفقة من عينيها ، والروعة المنبثقة من وجهها وحركتها . . كانت كالتفاحة التي حان قطافها ، كانت إجاصة حلوة ، حلوة . . .

وانسابت برفق إلى المكان الذي كان فيه كلفورد . وأعجب بها الرجل ، وهمس : «ما أجملها !» .

ومع ذلك فقد انقبضت نفسه ساعة دنت منه ، وطفق ينتظر أخبارها وهو يوجس خيفة من مجيئها الفجائي .

وقالت هيلدا وهي تحدجه بنظرة المستعد لكل احتمال :

«إني قلقة على كوني ، فهي تبدو لي مستضعفة نحيلة» .

«لقد أصبت إنها شاحبة بعض الشيء» .

«ألم تحاول أن تفعل شيئاً؟» .

«أمن الضروري ذلك؟ وهل ثمة ما يستدعي القيام بعمل؟» .

فتأمّلت فيه متعجبة من هدوئه وبروده ، وما عتمت أن قالت محتدة :

«سأصحبها إلى طبيب ، سآخذها غداً معي إلى لندن» .

وتأجم كلفورد غضباً ، ولكنه كتم ما خالج صدره ، وإن نمت عيناه عن ثورته وغيظه .

وتابعت هيلدا : «ويخلق بنا أن نتدبر لك امرأة تعنى بك ، امرأة وسطاً تخدمك ، وتخفف بذلك عن كوني كثيراً من العبء !» .

فهتف وهو يستشيط غيظاً : «على رسلك يا سيدتي ، سأتحدث مع زوجتي في هذا الشأن !» .

قالت : «لقد تحدثت معها ، واتفقنا على البحث عن المرأة المناسبة !» .

ولاذ كلفورد بالصمت ، وابيضّت حدقتاه ، ثم اصفرّتا ، لقد آذته شقيقة زوجته ، لقد أثارت حفيظته ، وأجّجت نار موجدته .

*

وذهبت الشقيقتان إلى لندن في اليوم التالي . وأجرى الطبيب فحصه الدقيق على كوني ، فلم يجد فيها ما يقلق ويشغل البال ، بل ألفاها متوترة الأعصاب ، منهارة المقاومة . فأوصاها بالأناة ، وأمرها أن تمتّع نفسها ، وأن تسافر ، وأن تضحك ، وإلاّ فلن يكون مسؤولاً عن النتائج .

ولمّا قفلتا راجعتين إلى رغبي ، أرسلتا على التوّ في طلب الممرضة بولتون .

وجاءت المرأة ـ وكانت زوجة وأمّاً ، وقد مات رجلها منذ عشرين عاماً ، وأشرفت على تربية فتاتيها حتى ترعرعتا واقترنتا بشابين كفؤين . وظلت المرأة تعيش وحدها ، فتعمل وتكسب الرزق ، وتقضي

أيامها في حياة رتيبة منظمة .

وانهمكت في عملها الجديد ، فبدت بارعة ماهرة ، حتى أن كلفورد نفسه أبدى إعجابه بها ، ووكل إليها أموره .

ولم يأخذ على امرأته إلاّ سرورها بتخلّيها عن خدمته ، وخدمته في رأيه الرباط الوثيق الذي يربط بينه وبينها .

وتفرغت كوني لنفسها بعد مجيء المرأة المحنكة ، وجعلت تعزف أحياناً على البيان ، وجعلت تغني . . وفرحت لظفرها بحريتها ، فهي لم تعد مكرهة على ملازمة زوجها طيلة الوقت ، هي تستطيع الآن أن تبتعد عنه بجسدها وتفكيرها . . وقد سرّها ذلك ، سرّها كثيراً !

وتنفست كوني بطريقة أخرى ـ أجل ، شعرت أنها لم تعد تتنفس الآن ، بعد مجيء الممرضة ، كما كانت تتنفّس قبلاً ! ولا غرابة في ذلك فقد تطوّرت الأمور من حيث لا تشعر ، وتمخض الزمن عن أحداث ، وتأهبت الأيام لكشف النقاب عن هذه الأحداث . .

إن حياتها تطوّرت ، إن فكرها تطوّر . .

لقد تمخّضت الطبيعة ولا يمكن للإنسان إلاّ أن يرضخ لسنّة القدر . .

إن الإنسان آلة طيّعة ، وهو يفعل ما كتب له ؛ وهو مسير لا يختار ، ومنساق لا يقود !

*

رعت الممرضة بولتون الرجل المشلول ، ولكنها لم تغفل أيضاً عن زوجته ، فهي لا تبرح توصي كوني بوجوب الاعتناء بصحتها . وهي تطلب إليها دائماً أن تخرج إلى الغابة ، وأن تمشي طويلاً تحت أشعة

الشمس ، وأن تتنفس ملء رئتيها الهواء النقي المشبع برائحة الشجر .

وكانت قد نسيت كل شيء عن حارس الصيد . فلمّا أوصتها المرأة بفائدة الخروج إلى الغابة تذكّرته ، ورأت جسده بعين مخيلتها ، فخفق قلبها ، واستيقظ إحساس جديد في صدرها ، وخرجت قبل الأصيل تمشي في طريق الكوخ المنعزل عن سائر الأكواخ .

ووصلت ، وكان كل شيء حوله هادئاً لا ينم عن وجود الحياة . ودارت حوله وانحدرت قليلاً ، ثم جلست بقرب جذع ضخم . ومضت ساعة وهي ساهية عن الفكر غارقة في نشوة لذيذة ، أشبه بنشوة النائم الحالم .

ولمّا تنبّهت إلى مضي الوقت قامت بسرعة ، وانطلقت إلى البيت ، وهي تشعر بقوتها تنتعش ، وبحيويتها تعود ، وبالأمل يخلف اليأس .

وفي اليوم التالي أعادت الكرة ، ولكنها ذهبت في هذه المرة إلى نبع تسيل منه مياه باردة كالثلج ، فجلست بقربه وعبثت بمياهه ، ثم رجعت متخذة لها طريقاً آخر يتخلل أشجاراً وأدغالاً كثيفة .

ولاحظت في منتصف الطريق ممرّاً خفيّاً بين الأدغال ، وتناهى إلى سمعها صوت طرق رتيب ، فانثنت هابطة في الممرّ الضيق ، ورأت على بعد مائة خطوة كوخاً خشبيّاً ، ورأت الحارس منهمكاً في إنجاز عمله في الكوخ الجديد .

وتنبّه الرجل لقدومها فانتصب واقفاً ، وحيّته هي وخاطبته قائلة : «إنه الفضول ولا شك ، ولكني سمعت طرقاً مستمراً فأحببت أن أقف على السرّ!» .

وجلست قريباً من الباب ، واستأنف الرجل عمله ، وكأنه نسي وجودها . ومضى الوقت وهو يعمل بجد ونشاط ، حتى إذا أتمّ ما كان منهمكاً فيه دنا منها . فانتصبت واقفة ، ونظرت إلى الأفق ، فرأت الشمس تجنح إلى المغيب ، رأت نور الغسق يضرج السماء ؛ وما عتمت أن قالت :

«إنه مكان رائع هادئ!» .

«أجل ، إنه كذلك» .

«وإني أرغب في المجيء دائماً إلى هذا المكان» .

«تستطيعين ذلك !» .

«وهل ترتج الباب بالمزلاج؟» .

«أجل !» .

«أتستطيع أن تعطيني مفتاحاً آخر؟» .

«كلاّ ، فليس لدي إلاّ هذا» .

«ولكن من السهل صنع مثيل له» .

«مفتاح آخر؟» ونظر إليها ملياً بعينين تبعثان بالشرر . .

ورأت هي ما داهمه من غيظ ، فقالت غاضبة : «أريد مفتاحاً آخر ، أفهمت؟» .

فتردّد ، ثم أجاب ببرود : «لكن ذلك !» .

وتلاقى النظران ، فكانت نظرته الكراهية والحقد والاحتقار ، وكانت نظرتها تحدي السيد للمسود المعتد !

ولكن قلبها غاص بين أضلعها ، وقالت بسرعة : «أنا ذاهبة أسعدت مساء» .

وأحنى الرجل هامته واستدار وذهب .

وقصدت الكوخ بعد يومين ، فالتقت الحارس وتحدثت معه . فأعرب لها عن استعداده للتنازل عن مفتاحه . . ثم خاض معها حديثاً ملأ صدرها بشعور الغضب والغيظ . . لقد تعمد هذا الرجل الغريب الأطوار أن يثير غضبها ، وكأنه بذلك يود أن يذل نفسها ويحطم كبرياءها . . وقد أسمعته كلمات جافة نابية ، وأفهمته أنه لا يزيد عن كونه خادماً . . ولكنه ضحك ونظر إليها تلك النظرة الوقحة الصارخة ، فلم تملك أعصابها ، بل فرّت لا تلوي ، ووصلت البيت وهي تلهث ، ووجهها المتضرج يشي بانفعالها وهياجها .

ولكنها كانت محتارة في أمرها . فماذا دهاها؟ ولم أصبحت موزعة البال؟ لم تنشد أموراً لا تعلم كنهها؟

*

هذا النفور الطارئ من زوجها ، شده كوني كثيراً ، وتولاّها منه ذعر . . بيد أنها لما حاسبت نفسها ، شعرت أنها لا تميل إليه . هي لا تكرهه ، بل تنفر منه من ناحية جسده ـ منذ زواجها منه ، أي قبل أن يتعطّل ويشلّ ـ وخيل إليها أنها تزوجت منه لأنه جذبها إليه بقوة عقله ، وبحدة ذكائه . . لقد أثار حماستها ، وبدا لها سيداً لها ! معلماً ـ مرشداً ـ هادياً !

وقد ذهب الجاذب الذهني مخلفاً وراءه النفور ـ النفور المتزايد على توالي الأيام وتعاقبها .

وكما تسلّط عليها بعقله في أول الأمر ، تسلّط على ممرضته ، وجعل يملي إرادته عليها بطريقته . وقد أجذله هذا ، وملأ قلبه حبوراً . وكانت المرأة معتدة بنفسها ، ولكن كلفورد أخضعها بطريقته ،

فأصبحت تصدع بكل أمر يصدره ولا تجرؤ على الاعتراض ، ولو كان في أمره خطل وخلل !

ولكنه كان علّمها كما علّم كوني . . كان يثقفها رويداً رويداً . . وقد سرها ذلك ، فأقبلت على دروسه تحفظها ، حتى أتقنت جميع القواعد والمبادئ ، والأصول والفروع ، وغدت سيدة كأرقى السيدات في عاداتها وطباعها .

وودت كوني أن تعنّفه على إقباله على المرأة الدخيلة ، بيد أنها سخرت من نفسها ، فماذا يهمها وماذا يغمها؟ ليفعل ما يريد ، ليَلهُ ، فينساها ويطلق حريتها ، وتستطيع هي بذلك أن تلوذ بحجرتها متى شاءت ، وتخرج من البيت كلّما شاءت .

أمّا الممرضة فقد تعلقت بكلفورد وكرّست له نفسها ووقتها . . لقد أحبته ، لا شك في ذلك ، بل إنها عشقته ، وآلت أن تضحي بكل شيء في سبيل راحته ورفاهيته .

وفعلت الممرضة ، ما لم تفعله الزوجة ، فقد بعثت في قرارته حب الحياة من جديد ، وجعلته يعير مصالحه المادية انتباهه ، بل جعلته يذهب بنفسه إلى المناجم ، فيزورها ويستوضح عن العمل فيها ، ثم يراجع في البيت تقارير الحكومة والشركات .

وما هو إلاّ قليل حتى تراءى له أن حياة جديدة قد ولدت في داخله ، شعر أنه يحيا الآن فقط ، وأنه يحيا ليعمل ، وليدرس وليحرز النجاح .

وأيقن والغبطة تعمر فؤاده أنه نجا أخيراً من انطواءته ، نجا من نفسه ، وخرج إلى الهواء الطلق ، إلى ميدان الكفاح . .

وكانت خلوته بالممرضة تجعله يتكلم ببساطة ويسر وثقة ، وكان اجتماعه بكوني زوجته يربك فكره ويلعثم لسانه . . كان يشعر أنه مدين لهذه الزوجة بكل شيء ، فيحترمها ويجلّها . . ولكنه كان يخشاها . . كان يخشى شيئاً غامضاً فيها ـ فماذا كان يخاف؟ مم كان يخاف؟ !

ولكنه لم يفكّر قط بتأثير الممرضة بولتون في حياته ، لم يفكر أنها تقف وراءه في كل عمل يؤديه . . لم يفكر أنه لولا وجودها لبقي حيث هو ـ في كرسيه المتحرك ـ كتلة عاجزة عن الحركة ، تفكّر بالأدب ، وتكتب القصص ، وتتلاشى رويداً رويداً . . وتضمحل . . وتزول . .

قلّ عدد الضيوف الذين أصبحوا يلمّون برغبي ، وجعل كلفورد يمضي أكثر وقته إلى جانب جهاز الراديو الذي استحضره حديثاً ويذل كثيراً من الجهد والمال في جعله صالحاً للإذاعة ، وفي تركيب مكبر الصوت بطريقة جيدة تكفل الأداء الجيد .

أمضى كلفورد الساعات الطوال وهو يصيخ لهذه الآلة العجيبة الحديثة الصنع .

وقد دهشت كوني لما رأته من تعلق زوجها بالراديو ، ولكنها لم تدر إنْ كان جموده أمام الجهاز لساعات ، وشخوصه بعينين جاحظتين لا يطرف لهما جفن ، من قبيل الإصغاء ، أم مقدمة لحالة نفسانية أدنى إلى الجنون؟

هل هناك شيء تتمخض عنه الأيام في داخل الرجل الكسيح؟

وانتابها قلق واضطراب . . وخافت وذعرت . . وجعلت تفر منه كما يفر الصحيح من المريض ؛ فتصعد إلى حجرتها ، أو تهرول إلى الغابة حيث تحتضنها أشجارها بعطف ومحبة ورقة متناهية .

وسوّلت لها نفسها أحياناً مغادرة رغبي إلى الأبد ، ولكن ضميرها كان يقف لها بالمرصاد ، فيهيب بها أن لا تتخلى عن الرجل المهيض . . لقد انهمك كلفورد في تشييد صرح وطيد للصناعة والتنجيم ، وكان يشفق على نفسه من خلو الدار من زوجته ـ الليدي تشاترلي ـ وكانت كوني تعلم يقيناً أنه يقضي لوعة وأسى لو هي هجرته ومضت في سبيلها ـ ومضت لتبحث لها عن منفذ ومتنفس ـ

كان ضميرها إذاً يمنعها من قتل الرجل . . وقد استجابت ورضخت، ولم تقض على هذا الذي حطمته الحرب فيما حطمت من الملايين!

وكانت تنفر منه، ولكنها لا تملك نفسها من الإعجاب به، فهو أريب ذكي، أتقن عمله بسرعة مذهلة، وجعل يديره كما يدير الصانع الماهر آلته . . جعل يدير صناعته من كرسيه المتحرك، وجعل يدير إدارته وهو يشير ويومئ . . كانت تصغي إلى صوته وكلماته وهو يترأس اجتماع مجلس الإدارة، فتمتلئ زهواً به . . ولكن سرعان ما يعودها شبحه المستضعف فتنفر .

الجسد ـ المادة ـ القوة .

وما نفع العقل؟ ما نفع القوة الذهنية إن فقد الجسد حركته، وبطلت قوة تفاعله، وكفّت عاطفته عن إثبات وجودها؟!

لقد تعلّق بكوني وأحبها، لقد هام بها، فهي زوجته . . هام بها كما يهيم الوثني بصنمه ـ وعلِقَ بها كالوثني علاقة أساسها الخوف الفظيع من قوة وهميّة . ومن ضَعفه هو! وكل ما أراده منها، كل ما كان يطلبه هو أن تقسم له، تقسم دائماً، أنها لن تتخلّى عنه!

وقالت له يوماً ـ بعد حصولها على مفتاح الكوخ :

«أي كلفورد، أترغب حقيقة في الظفر بطفل يرثك ويحمل اسمك ولقبك؟» .

فنظر إليها في خشية وتوجس، وقال وهو يخفض صوته :

«قد يسرني ذلك، إن لم يفرق بيننا» .

«ماذا تعني؟» .

«أن لا يلاشي هذا الأمر حبّنا لبعضنا . . أن لا يهدم ما بنيناه بيننا

من تفاهم وتعلق ووداد!» .

فرمقته مبهوتة وأجابت :

«ولو رجع؟ أعني لو رجعت العاطفة؟ أأكبحها؟ أأستطيع؟» .

«قد أسترجع ما فقدت في أحد الأيام، من يعلم؟ قد أرجع إلى سابق عهدي» .

ولزمت كوني الصمت فلم تجب . وخُيّل إليها أنه مجنون يتعلق بالأوهام ويتشبّث بخيوط الأحلام .

وتعذّبت المرأة المعلقة في فضاء . . تعذّبت كثيراً . . إنه يتعشّقها ولكن من بعيد، من مكان ناءٍ في الروح، إنه ضعيف يموت إن تخلت عنه، ولكنّه جبّار ساعةً يخلو إلى ممرضته، وساعة يجتمع بعماله ومساعديه .

وتعذبت ـ رأت فيه مخبولاً من نوع فريد . . مخبولاً قوياً غاية القوة، ضعيفاً إلى أقصى حد من الضعف ـ وأيقنت أنها ستفقد عقلها بعد حين أو تتلاشى مقاومتها فتموت وتقضي .

وأكثرت من ذهابها إلى الكوخ، جعلت تؤمه في ساعات الصباح، وجعلت تلم به في المساء . . وكانت تلتقي الحارس أحياناً، فتتبادل معه حديثاً عابراً، وتطرح عليه قليلاً من الأسئلة ثم تقفل راجعة .

وجعلت ترى فيه رجلاً مؤدباً صحيح الجسم رغم هزاله، صحيح الجسم إذا قيس بزوجها!

وفي إحدى الأمسيات فرّت من جحيم فكرها، وعدت عدواً إلى الكوخ، وأخذت تراقب الفراخ وهي تلاحق أمها . . وعادها حنين إلى الحب، عادها شوق إلى الحياة الطبيعية، وأذاب عطف الأم على

أطفالها حشاشتها ، فسالت مدامعها ، وانتحبت . . انتحبت وشهقت . .

وجاء الحارس في تلك اللحظة ـ أرسله القدر ـ فدنا منها وربت على ظهرها . . وقال :

«لا . . لا تبكي . . تجلدي . . تجلدي . .» .

فتضاعف حزنها ، ولكنها حاولت أن تكفكف عبرتها ، فما قدرت على ذلك . .

وأمسكها الرجل بلطفٍ من ذراعها ، وقال هامساً :

«هلمي . . ادخلي . . أنت متعبة ، أنت في حاجة إلى راحة الجسم والروح . .» .

وانصاعت فدخلت . . وكان الكوخ يسبح في عتمة تزداد ظلمتها مع مرور الدقائق . . وأجلسها الرجل على مقعد ، ثم جاء بغطاء فيه حشوة من القطن فبسطه على الأرض ، وقال :

«انهضي يا سيدة ، ارقدي على هذه الحشوة . . أنت متعبة . . متعبة . .» .

وصدعت بالأمر ، فاستلقت على الأرض مستسلمة راضخة .

وأحست باليد الناعمة الدقيقة الرقيقة الراغبة تهدهد جسدها . . وأحست بالفم يلمس فمها . . وأحست بالقبلة النارية تنطبع على شفتيها . . وأغمضت عينيها !

*

ثم تساءلت متعجّبة عن السبب الذي يجعل الصلة ضرورة لا بدّ منها؟ تساءلت عن مصدر هذه الرغبة؟ وتساءلت لماذا انجابت من فوق

عينيها غمامة؟ ولماذا شعرت بالسلام؟ أهذه هي الحقيقة التي بحثت عنها؟ وهل الحقيقة تكمن في هذا التماس العجيب؟!

وأدركت الفرق بين الحقيقة واللاشيئية، وشعرت أنها أصبحت حقيقة، وأن لاشيئيتها قد زالت تماماً!

ولاذ الرجل بالصمت. ولم تجرؤ هي على قطع تأملاته بكلامها.. لقد كان غريباً عنها، وكانت لا تعرف شيئاً عنه.. ولهذا جارته وانتظرت.

كان قريباً منها.. كان جسده يلامس جسدها.. وكانت ذراعه تحوطها. ومع ذلك ظلت مخلدة للصمت.. ومع ذلك ارتاحت إلى السكينة، واطمأنت إلى الهدوء، وانتظرت منه كلمة، انتظرت بصبر واستسلام.

ونهض بعد قليل، فانتصب فوقها، ثم فتح الباب وخرج.

وأطل عليها قمر صغير من خلال الأغصان، وسارعت إلى النهوض فأصلحت من شأنها، ثم مشت إلى الخارج، وكانت الظلمة تلف الغابة بوشاح دامس، ومع ذلك فقد شعت السماء بنور فضي جذاب. ونقّلت كوني طرفها بين الغابة المظلمة والسماء المشعة، وأيقنت أنها انتقلت بغتة من ظلمة تشبه ظلمة الغابة إلى إشراق يشبه إشراقة السماء.. وأيقنت كذلك أن البُلَهنية في تلك الدقيقة قد خلفت الهمّ والقنوط... وأيقنت أيضاً:

أن للحياة سرّاً.. سرّاً عجيباً..

ودنا منها الرجل وقال:

«هل نذهب؟».

قالت :

«إلى أين؟» .

قال : «إلى البيت . .» .

قالت :

«آه . . نعم إلى البيت . . هلم . .» .

قال :

«سأصحبك حتى مدخل الحديقة ثم أعود» .

وسألها وهما يمشيان جنباً لجنب :

«أأنت حزينة؟ أنادمة؟ أغاضبة؟» .

فأجابت :

«كلاّ . . كلاّ . . وأنت؟» .

قال :

«لما وقع؟ لا . . بل أنا مغتبط مسرور» .

وأضاف بعد لحظة :

«ولكن ، هناك أمور أخرى !» .

«وأية أمور؟» .

«السير كلفورد ، وسواه . . وما يتبع علاقتنا من متاعب ، وما ينجم عنها من اختلاطات وأخطار . .» .

«ولم ذلك؟» .

«إن الأمر ينقلب دائماً في الاتجاه المعاكس» .

«وهل تشعر بالندم؟» .

«نوعاً ما !» .

ورفع رأسه إلى السماء ، واستتلى :

«ظننت أني انتهيت ، وأن غريزتي تلك قد غرقت في سبات لا صحوة منه . . أمّا الآن فقد اكتشفت أني بدأت من جديد» .

«بدأت ماذا؟» .

«الحياة» .

«الحياة !» .

«أجل ، الحياة . . ولا بدّ مما ليس منه بدّ ، وإن صمم المرء على العزوف والصدوف إلى النهاية فالموت خير له» .

«فهو الحب إذاً عاطفة الحب تغزو قلبك وتطغى على روحك» .

«ادعي العاطفة هذه بأي اسم تشائين ، فأنا لا أحفل الكلمات بل المسمى ، بل الملموس ، الواقع ، المحسوس !» .

وتابعا السرى في الغابة المظلمة وقد خيم عليهما سكوت وصمت . وانتهيا إلى الباب الكبير المفضي إلى الحديقة . وابتدرته تقول وهما يتريّثان :

«ولكنك لا تبغضني ، هل تبغضني؟» .

فقال لاهثاً : «كلاّ ، كلاّ» .

وعلى حين غرّة قبض على رسغها وجذبها إليه وأدناها منه ، وضغط شديداً على خصرها ، وقال :

«كان الأمر لي سعادة ، كان هناءً ونعيماً . . وأنت ، هل شعرت بمثل شعوري؟» .

فأجابت كاذبة ، لأنها لم تبادله مشاعره نفسها :

«أجل لقد نعمت مثلك بساعة هناء ومسرّة» .

وقبّلها بنعومة ، بنعومة ، بقبلات من الدفء !

ولـمّا همّت بالذهاب إلى البيت قالت متسائلة :

«هل آتي مرة أخرى؟» .

فقال : «أجل ! أجل ! تعالي دائماً» .

ووقف يتأمل في شبحها المبتعد وهو يشعر بالامتعاض .

لقد ربطته بالحياة مرة أخرى بعد أن فصم كل علاقة له بالخلق والدنيا ـ رغب في أن ينفرد ، وينعزل ، ويبتعد . . ولكنها هدمت ما بناه ، ولاشت ما نواه ، وها هو الآن يصبح تواقاً إليها . . إليها . . إلى حواء . . إلى الأنثى . .

وانكفأ راجعاً ، وغاب في طيات الغابة . كان الهدوء ضارب الجران ، وكان القمر قد غاب ، ولكنه سمع أصوات الليل ، سمع ما لا يسمعه سواه ، سمع ووعى ، وغضب على المرأة ، وتاق إليها . . ونقم على ما سمع أيضاً ، نقم على صوت الآلة الخافت ، إنها الآلة الملعونة ، الآلة التي لا تلبث أن تلتهم هذه الغابة وتعصف بالبقية الباقية من حريته واستقلاله وعزلته .

وتمهّل وتفكّر ، فكّر بالمرأة ، بهذه المرأة العاثرة الحظ . إنها أجمل ممّا يتصوّر . إنها أنثى بكل ما في الكلمة من معنى ، وإنّ في جسدها حرارة ، ونداء ، ودماء ، وغريزة . . إنها تريد وتطلب ، وجسدها يريد ويطلب !

وسيحميها ! سيدفع عنها المكروه بقلبه ! سيدرأ عنها الخطر لوقت ما ـ للوقت الذي تلتهم فيه الآلة أشجار الغابة وتلتهمهما أيضاً .

*

وصلت كوني وقضت مع زوجها بعض الوقت . ولـمّا تناولا طعامهما تعلّلت بالصداع وصعدت إلى غرفتها .

واطمأنت إلى وحدتها فحاولت أن تفكّر ، ولكنها لم تجد إلى الفكر سبيلاً ، أو بكلام أدق ، كان فكرها متضارباً متعارضاً ، يميل ويترنّح ، ويرتفع ويهبط ، ثم يستقر على شخصه ، على الرجل الناحل . . حارس الصيد !

فمن هو من الرجال؟ وهل أحبها حقّاً؟ قد يكون ذلك ، وقد تكون مخطئة في حدسها . . ومع ذلك فقد كان لطيفاً مهذّباً . . وكان في صراحته وسرعة حركته غالباً لكل تردّد في نفسها ، وكأنه ببته السريع فجر مغاليق قلبها . كان ذا عاطفة مشبوبة ، ولكن من يعلم؟ قد يكون شأنه مع غيرها من النساء كما كان معها هي ، فهي أنثى وغيرها من بنات حواء ربما صادفن لديه ما صادفت هي .

ورغم ذلك أيقنت كوني أنه راعى أنوثتها كما لم يراعها رجل آخر . كان الرجال الآخرون يحترمونها ويرقون في معاملة الشخص الكامن فيها ، ولكن أكثرهم كان فظاً مع (الأنثى) ، يحتقرها أو يتجاهلها أو يغضي عنها ـ عن الأنثى الكامنة في شخصها . . الأنثى السجينة ، الحبيسة . .

وقصدت الغابة في اليوم التالي ، فلم تجده في الكوخ . وجلست قرب الباب تنظر إلى شمس الطَفل وتنتظر . كانت تنتظر بصبر وجلد وإيمان .

ومرّ الوقت ببطء الحلم ، ولـمّا يرجع . وشعرت بأنها يجب أن تعود أدراجها . ومشت مطرقة تكاد مشاعرها بالمسرة تنقلب إلى حسرة وألم .

وقرأت ساعة في كتاب علميّ ثم صعدت إلى غرفتها . ولم تلبث أن غادرت الدار خلسة من الباب الخلفي ، وهرولت في اتجاه الكوخ ، ولكنها لم تجده ، ودخلت وجلست على الأريكة . وجاء هو بغتة فهبت واقفة . وتبادل الاثنان نظرة قلقة . ثم خطا هو نحوها وقال :

«لقد أتيتِ إذاً !» .

«أجل ، لقد جئت ، أمّا أنت فقد تأخرت !» .

«ألا تخافين من أعين الرقباء؟» .

«لم يرني أو يشعر بقدومي إنسان» .

«ولكنهم لن يلبثوا أن يشعروا وأن يروا» .

«فما الحيلة؟ ما العمل؟» .

«لا تأتي ، هذا هو الحلّ الوحيد» .

«لا أستطيع ، لا بد لي من المجيء !» .

«ولو رآنا بعضهم . . ولو سمع بقصتنا السير كلفورد؟» .

«لا أبالي ، فلديّ المال ، أنا غنية ، لقد خلّفت لي أمي عشرين ألف جنيه ، وأستطيع متى شئت أن أذهب إلى حيث شئت» .

«لا يغرب عن بالك أنك تتصلين بحارس صيد ، وللناس ألسنة حداد ، فاحرصي واحترسي !» .

«هراء . . باطل . . إنني أكره هذه الكلمات الجوفاء ، كما أمقت الألقاب ، فهي من قبيل المداهنة والتملق . . وأخال كل ناطق بها يسخر ويتهكم ، حتى أنت !» .

«أنا !» .

ولأول مرة نظر إلى عينيها وحدق ثم أردف :

«إني لا أسخر منك ، ثقي من ذلك» .

وانحنى عليها فقبّل وجهها الحزين ومضى يقول :

«أنا لا أخاف على نفسي بل عليك ، وإذا أصابك مكروه فلن أتخلى عنك ، لن أتركك ، وسأبقى معك» .

وهل تساعدني دائماً؟ هل تشدّ أزري؟» .

وقبّلها ثانية . . وألقى بندقيته جانباً ونضا عنه سترته المبتلّة ، ثم أغلق الباب وأضاء مصباحاً صغيراً ، واحتواها بين ذراعيه ـ ومضت ساعة ، مضت ساعة . . .

*

لم تخرج كوني في اليوم التالي إلى الغابة ، بل صحبت كلفورد في سيارته إلى بلدة صغيرة مجاورة ، وزارت معه عرابه لسلي ونتر .

وكان هذا الرجل المسنّ يحب كلفورد ولكنّه لا يكنّ له احتراماً كثيراً لما لاحظه من تعلق المشلول بالشهرة الزائفة . أمّا نظرته إلى كوني فقد كانت مفعمة بالعطف والرقة . كان يرى فيها ضحية من ضحايا الزمان ، ويتساءل دون أن يجد الجواب عن النهاية لهذه العلاقة الزوجية الشاذة .

ولم تذهب إلى الغابة في اليومين التاليين أيضاً ، ولكنها في اليوم الرابع غادرت المنزل وسارت في الغابة في اتجاه مغاير لطريق الكوخ . وصادفها دغل مرتفع ممتد ، وفيما هي تجتازه إذ بيد تقبض على يدها بقوة وتجرّها بعنف ، فتصرخ خائفة ، ولكنها لا تعتم أن تضحك جذلة ساعة ترى وجه الحارس .

وعانقها الرجل ، فهتفت :

«أواه ! ليس الآن ، ليس الآن !» .

«ولِمَ لا؟ لِمَ لا؟ إنها السادسة مساءً فقط . . وأنا أريدك ، أريدك . .» .

وضغط عليها بشدة ، فشعرت بحرارته ، وشعرت بشهوته ورغبته . . وحثتها غريزتها على المقاومة ، ولكن عاطفته أغرقت غريزتها وخنقتها .

وقال : «هيّا . . هلمي . .» وأضجعها على الأرض ، فضحكت وضحك هو . . وانبطح على جنبه ، ثم وثب واقفاً ثم انطرح ثانية إلى جانبها ، وأدنى وجهه من وجهها حتى اختلط النفسان !

*

لم تتحرّك ، ونظرت إلى الأغصان . كل شيء كان كثيفاً ساكناً ، والكلب المقعي أيضاً كان مخلداً للصمت والسكون .

وانتقل الرجل من الاضطجاع إلى الجلوس ، وتناول يد كوني وقال :

«ما أجمل الحياة عندما تكون طبيعية لا تكلّف فيها !» .

«أسعيد أنت؟» .

«ماذا؟ سعيد !» .

وانحنى فوقها فطبع قبلة على ثغرها وكأنه لا يريدها أن تتكلّم .

ونهضت من مكانها ، وكانت الشمس ترسل آخر أشعتها إلى المسكونة .

وقال وهو يداعب خصلات شعرها المسترسل : «لن أصحبك في

طريق العودة ، فالحذر أولى بنا وأجدر» .

وغادرها ، وتبعه كلبه يطفر فرحاً . وعادت كوني إلى البيت وهي تشعر أن شيئاً غامضاً يتكوّن في أحشائها ـ شيئاً من ذاتها ـ أحبّت هذا الشيء قبل أن تقف على حقيقته ، وقبل أن تحدس كنهه .

وناجت نفسها وهي تجيل الطرف الساجي فيما حولها : «ما أسعدني بطفل ـ طفل يحيل نضوب حياتي إلى خصب ، وجفاف أيامي إلى طراوة !» .

واجتمعت إلى كلفورد ، فلاحظت فيه اضطراباً خفياً . . وأيقنت أنه مشغول الفكر بتغيبها المتوالي ، وأنه بدأ يرتاب بما طرأ عليها مؤخراً .

ونظرت إليها الممرضة بولتون ، وأدركت بفراستها الصادقة أن الليدي تشاترلي عاشقة لها عشيق تجتمع إليه ، وتتساقى معه كؤوساً مترعة من الهوى ، ولكنها لم تعلم هوية هذا الرجل ، وتلهّفت إلى معرفته ، وأناطت بالأيام إماطة اللثام عن الحقيقة .

وخاف كلفورد ساعة نظر إلى عينيّ زوجته ، خاف من البريق العجيب الذي ينم عن وجود الحياة القوية الفتيّة .

خاف كلفورد . ولـمّا طفق يقرأ لها في كتاب ، كان فكره موزّعاً بين زوجته والكتاب . .

طفق يقرأ بصوته اليائس ، واسترسلت هي تحلق في عالم فسيح من الأحلام ذات الألوان الزاهية ـ وقد رأت بعين مخيلتها حبيبها ، رأت حبيبها يتنقّل على قدمين خفيفتين . . وشعرت به في داخل نفسها ، شعرت به في شرايينها وعروقها . . شعرت به موجوداً في أحشائها . . شعرت بثمرته تتدفق في دمائها . . شعرت به كالشفق ،

يضرج الأفق في الصباح الباكر ، جميلاً ، رائعاً ، فاتناً ، ساحراً ، باسماً للساعات المقبلة . . .

ومضى كلفورد يقرأ بجرس ووتيرة واحدة ، وأوغلت هي في أحلامها ، حتى أنها لم تشعر به ينقطع عن القراءة ، ويرمي الكتاب . .

ولـمّا نبّهها كان كمن فاجأها . . فقالت متلعثمة :

«شكراً لك ! أنت تقرأ بطريقة مدهشة !» .

فأجاب بتهكم وقسوة وألم :

«وأنت تستمعين بطريقة تضاهي طريقتي بالقراءة !» .

ولم تجد كوني إلى النوم سبيلاً في تلك الليلة . . كانت سعيدة مغتبطة !

وكحل السهاد عينيّ زوجها السير كلفورد ، فأمضى ساعات الليل قلقاً ، يتقلب مترمّضاً ويفكر بزوجته ، ويراها تبتعد بإصرار واستمرار . . لقد كان شقياً مدنفاً !

وجفا الكرى عيني الممرضة بولتون ، وقضت الساعات الطوال وهي تقدح زناد الفكر ، وتحاول أن تكشف حقيقة عشيق الليدي تشاترلي . . وفي الساعة الرابعة رأته . . رأته عندما نهضت إلى نافذة حجرته . . وأيقنت أنه هو !

رأت حارس الصيد يحمل بندقيته ويتلصص في اتجاه المنزل ، فأيقنت أنه الرجل ، أيقنت أنه العاشق المتيّم الذي يتشوق إلى استجلاء طلعة حبيبته !

رأته ـ وكان هو أسوة.بالآخرين قد أصابه أرق شديد ، ففكر بنفسه ، وبالتطور الجديد وبحبيبته العريقة ، وبزوجها المقعد !

واخترقت المعرفة قلب الممرضة كطلقة من بندقية . وانثنى الرجل راجعاً بعد أن رنّقت الشمس وبان قرنها من المشرق .

وشاهدته الممرضة يختفي بين الأشجار . . وناجت نفسها :

«إنه رجل لا بأس به . . إني أذكره ، أجل أذكره بعد موت زوجي . . لقد عاملني برفق ، وكان نبيلاً في تصرفاته معي ! ولكن . . ماذا عسى يفعله السير كلفورد متى اطلع على الحقيقة؟» .

والتفتت إلى مرقد الزوج المشلول ، ورمته بنظرة مظفرة ، ودلفت خارجة من الغرفة بخطوة هادئة واثقة !

- ٧ -

شكّت الممرضة بولتون بما جرى في رغبي . شكت يوم رأت الحارس يحوّم في باكورة الصباح على مقربة من المنزل .

ولمّا أعربت لسيدتها الليدي تشاترلي عن ميلها إلى الأطفال ، أجابتها بسرعة وابتسامة :

«ومن يدريك؟ قد أُتحف رغبي بطفل يملأها حياة وإشراقاً» .

فندّت من صدر الممرضة آهة عجب ، وقالت :

«ويْ ! أصادقة أنت؟ عذراً ، أعني أمازحة أم جادة يا سيدتي؟» .

فأجابتها كوني ضاحكة : «قلت لك إني قد أظفرك بأمنيتك ، فالسير كلفورد ، وإن فقد بعض قوته ، لا يزال رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى !» .

وسرعان ما راجت الشائعة في رغبي والأراضي المجاورة ، حتى تناهت أخيراً إلى سمع كلفورد نفسه ، فاضطرب وانقلب تفكيره رأساً على عقب .

وفي اليوم التالي ابتدر زوجته قائلاً :

«هناك شائعة راجت في كل مكان عن قرب وضعك لمولود ووارث لي ، فماذا تقولين؟» .

فأظلمت عينا كوني ، أظلمتا من شدة ما خالجها من رعب ، ولكنها تجلّدت ، وابتسمت وأجابت :

«كلاّ ! هل هي أضحوكة؟ أم كذبة يراد منها الإيقاع؟» .

فتأمّل فيها هنيهة وأجاب :

«لا هذا ولا ذاك ، وأرجو أن تكون حَدْساً» .

قالت : «استلمت كتاباً من والدي في هذا الصباح ينبئني فيه أنه لبّى دعوة السير ألكسندر كوبر بالنيابة عني لأذهب إلى البندقية في الصيف» .

«وكم من الوقت تقضين هناك؟» .

«لن أتغيّب أكثر من شهر واحد» .

«لا بأس ، وأخالني قادراً على تحمل الفرقة لشهر واحد إن كنت واثقاً من عودتك» .

«أرغب في العودة فلا تخف» .

قالت ذلك بصوت صريح فيه قناعة وقبول . . ولكنها كانت تفكر بالرجل الآخر !

وشعر كلفورد بقناعتها وإيمانها ، واعتقد بصدقها ، واعتقد أيضاً أنها تعود من أجله هو . وشعر على التو بحمل ثقيل يرتفع عن كاهله . . شعر بالسرور والبشر والسعادة .

وقال : «في هذه الحالة ، أوافق عن طيبة خاطر ، وأظن أنك سوف تتمتّعين بما حرمت منه هنا» .

فنظرت إليه بعينين غريبتين زرقاوين وقالت :

«أرغب كثيراً في مشاهدة البندقية مرة أخرى ، وبودي لو ذهبت معي» .

قال : «لا ، لن أثقل عليك هناك أيضاً ، ولعلي أرافقك في العام المقبل» .

وغـادرته والأسى يلوح في مـحـيـاها ـ في العـام المقبـل ! ومـاذا يتمخض عنه العام المقبل؟ إنهـا لا تحب أن تذهب إلى البندقيـة . . لا تحب أن تذهب إليـها فتفارق رجلهـا . . ولكنها مضطرة إلى الذهاب ، مضطرة إلى الابتعـاد عن حبيبهـا حتى إذا ما حـملت وأنجبت ، ظن زوجها أن ابنها ثمرة علاقة برجل من البندقية !

وفي صباح اليـوم التالي هبطت كوني الدرج ، فشـاهدت كلب حبيبهـا يقعي على مدخل مكتبـة كلفـورد ، فداعبت رأسـه بيـدها ثم فتحت الباب المؤدي إلى المكتبة برفق .

ورأت كلفـورد يجلس في مكـانه المعتـاد وقـريبـاً منه يقـف حـارس الصيد وقفة الجندي .

وألقت كـوني تحية الصباح على زوجـهـا وعلى الحـارس ، ثم رنت إلى الأخير بنظرة خاطفة ، وخـالسها هو نظرتهـا فشعرت بموجة لذيدة من العاطفة تجتاح مشاعرها ، وكأنهـا تيار سرى من عينيه إلى عـينيها ، إلى قلبها . .

وقالت بلطف وهي تنثني نحو زوجها :

«هل أزعجتك بمجيئي يا كلفورد؟» .

فأجاب مسرعاً : «كلاّ لم تزعجيني البتة» .

وغـادرت الغـرفة واتجـهت إلى النافـذة الكبـيـرة المطلة على الفناء وفكّرت بالرجلين ـ بزوجـهـا وخـادمـه ـ بالثـريا والثـرى ـ وفكّرت بالنفسين ، فلمست في نفس عشيقـهـا نبلاً واعتـزازاً ، ولكنه حـارس صيد ! ـ ليس الخطأ يا عـزيزي بروتس في السمـاء ولا في نجمنا ، بل في نفوسنا ، في أعماقنا ، لهذا افترقت درجاتنا وتباينت مراتبنا !

ودلفت بعد قليل إلى الحديقة فالتقت الممرضة بولتون هناك، وتجاذبت الاثنتان أطراف الحديث، وانهمكتا في تشذيب بعض النباتات الخضراء!

وقالت كوني فجأة: «هل فقدت زوجك منذ سنين عديدة؟».

فأجابت المرأة: «أجل منذ ثلاث وعشرين سنة - منذ ثلاث وعشرين سنة، جاءوا به إلى البيت».

ووجف قلب كوني، وغامت عيناها - فيا للشبه العجيب! جاءوا به محملاً، كما جاءوا بزوجها هي - بالسير كلفورد.

*

توجّهت كوني إلى الغابة بعد الغداء. كان النهار صافياً رائعاً عليل النسيم، ولم تجد الحارس في الكوخ، بل وجدت المكان خالياً، ولكن نظيفاً تفوح منه رائحة الزهر.

وكانت أشعة الشمس تنعكس على الكوخ الصغير، فدخلت وجلست وقد عزمت على انتظاره.

وجاء بعد قليل فهرعت إليه، وقالت: «أترغب في فنجان من الشاي؟ هل أصنع لك فنجاناً من الشاي؟».

فهز رأسه مبتسماً. وقامت هي فأشعلت النار وأعدّت الشاي.

وجلست أمامه، وجعل الاثنان يرشفان شرابهما بدعة لذيذة مستسلمة، ويتحدثان بهدوء وتفاهم.

قالت: «هل تحب عملك؟ أتشعر بالميل إلى حراسة الصيد والغابة؟».

قال: «إني أرتاح إلى كل عمل متى تركني الناس وشأني!».

«ألا تستطيع أن تعتمد على نفسك؟» .

«أستطيع ذلك إن شئت أن أكتفي بمعاش التقاعد الذي أتقاضاه من الجيش ، ولكني أحب العمل وأحب الحركة . . وإلاّ نضبت حياتي وغاضت معانيها . . وبما أني حاد الطبع فخير عمل لي هو هذا الذي ظفرت به لدى زوجك ، وقد ارتحت إلى حريتي واستقلالي ، ولمّا شاركتني في حريتي زادت سعادتي !» .

وضحك ضحكة لطيفة .

وقالت وهي تطرق : «أزمع أن أرحل عن رغبي في الشهر المقبل» .

قال : «وإلى أين تذهبين؟» .

«إلى البندقية» .

«مع السير كلفورد؟» .

«كلاّ ، وآمل أن لا تنساني» .

فحدجها بنظرة متألقة وقال متعجباً :

«أنساك !» .

«لقد أطلعت كلفورد على بعض سري ، قلت له إني قد أحمل في القريب العاجل !» .

فذهل الرجل وقال بصوت الأبله : «وماذا كان ردّ الفعل؟ كيف تلقى الصدمة؟» .

«لم يعتبرها صدمة ، بل أعرب عن رضاه ، طالما داخل روع الجميع أن الطفل طفله الشرعي !» .

«ولم تذكري اسمي دون ريب؟» .

«كلاّ ، لم أذكر له اسمك» .

«فمن أين تأتين بالطفل إذاً؟ أين هو المكان المفروض؟» .

«البندقية ، فهو يعتقد أني سأحمل هناك من رجل تجري لي معه مغامرة وغرام !» .

«فأنت إذاً ذاهبة لتحقيق هذا الوطر؟ أنت تريدين أن تبحثي عن العاشق المحظوظ في البندقية؟ !» .

فهتفت في شبه ضراعة : «كلاّ . . كلاّ . . بل إني أعد الأمور والحوادث بطريقة تجعله يعتقد أني صادفت رجلاً ما في البندقية ، وأوقعته في حبائلي ، وجرى ما جرى ، وكانت الثمرة ـ ابن شرعي للسير كلفورد ، ووارث للقبه وقريته واسمه !» .

«وقد تحرّشت بي رغبة في نيل أربك !» .

«كلاّ ، لا تقل هذا !» .

«فلماذا إذاً؟ لماذا رضيت بي حبيباً؟» .

«لأني ملت إليك» .

«بل لأنك شئت أن تنجبي الوارث بأسرع ما يمكن» .

«أخطأت . . لقد أحببتك . .» .

فابتسم ساخراً ، وأشاح وجهه عنها .

وهمست : «ألا تلمسني بيدك؟ ألا تلمسني؟» .

ولم يجب ، ورفع رأسه إلى السقف . وطأطأت هي رأسها متألمة وغادرت الكوخ .

ولكنها رجعت بعد ساعة . . فلمّا رآها داخلة ابتدرها ضاحكاً : «كنت أنتظرك !» .

قالت : «ثقتك بنفسك لا حدود لها» .

قال : «دائماً . . .» .

قالت : «ألا تهدهد حبي بقلبك وحبك؟» .

قال : «وأنت ألا ترطبين شفتي برضابك؟» .

قالت : «إذا شئت . . إذا شئت . . .» .

وشاء . . . وشاءت . .

شاء حارس الصيد . . . وشاءت الليدي تشاترلي . . .

ذهب كلفورد إلى الغابة في يوم الأحد ، وكان صباحاً رائعاً ، وقد ظهرت فجأة إلى حيز الوجود زهرات الكمثرى والخوخ في أعجوبة من الإهاب الأبيض الناصع ، وانتشرت هنا وهناك مضفية على الغابة رونقاً وسحراً .

وكان من الظلم ، والدنيا تزهر وتزهو بشبابها وقوتها ، أن يكون كلفورد عاجزاً عن الحركة ، يحملونه حملاً من كرسي إلى كرسي ، ويرفعون ساقيه كلّما شاء أن ينتقل . ولكن مرور الوقت أنساه كل شيء ، بل إنّ الزمان أكسبه نوعاً من الغرور !

وانتظرت كوني عجلته في أعلى الهضبة المؤدية إلى الغابة . وجاءت كرسيه الآلية تنفخ وكأنّ الصعود أتعبها . فلمّا وصلت إلى المكان الذي وقفت فيه كوني ، قال كلفورد لها :

«ها هو السير كلفورد على جواده المطهم الذي لا يفتأ يرغي ويزبد !» .

وأجابته ضاحكة : «جواده الذي يزنخر وينفخ بمنخر !» .

وأجال المشلول طرفه فيما حوله ، وقال :

«إن رغبي لا تهزأ بي كما أرى . . ولا يحق لها أن تهزأ ، فأنا أقهرها بآلة من صنع الإنسان ، أنا أقهر الطبيعة بعقل الإنسان ، وقد غلب الجواد على أمره ، أليس كذلك؟» .

فقالت : «أظن ذلك ، كما أظن أن روح أفلاطون المحلقة في الجو إلى أعالي السماء في عجلة يجرها جوادان ، تحبذ امتطاء متن سيارة

فورد في هذا العصر!» .

«أو سيارة رولس رايس . . فأفلاطون كان أرستقراطياً محافظاً!» .
وصمت متأملاً ثم أردف :

«وأرجو في العام المقبل أن أدخل كثيراً من الإصلاحات على هذا المكان ، وأن أجدّد بصورة تتناسب وتتمشى مع التطور الصناعي والآلي» .

«إن سنحت لك الفرصة» .

«ماذا؟ !» .

«إن نسي العمال كلمة الإضراب والامتناع عن مزاولة العمل !» .

«وما نفع إضرابهم وتمنّعهم؟ إنهم يحطمون بذلك صناعة البلد ، ويجعلون البوم تنعق على أطلال ما شيد من صروحها المنيفة !» .

«ولعلهم لا يحفلون أتقدمت الصناعة أو تحطّمت؟» .

«أواه . . لا تتكلمي كامرأة! إن الصناعة تملأ بطونهم ، حتى ولو لم تفعم جيوبهم بالدرجة نفسها !» .

«ولكن ، ألم تقل منذ أيام إنك فوضوي متحفظ؟» .

«وهل فهمت معنى ما قلت في ذلك اليوم؟ إن ما عنيته هو أن في مكنة الناس أن يكونوا كما يشاءون وكما يشعرون ، وأن يفعلوا ما يشاءون أيضاً ، ما برحوا يحافظون على (شكل) الحياة صحيحاً غير ممسوس ، وما داموا يحافظون على (جهاز) الحياة» .

وفكّرت كوني في كلماته ثم قالت :

«وكأنك تقول إن للبيضة أن تمذر كما تشاء ما دامت تحتفظ بقشرتها ! بيد أن البيض المتمذر الفاسد لا تعتم قشرته أن تتصدع

وتتشقق من تلقاء نفسها!» .

«لا إخال الإنسان بيضة ، يا عزيزتي المبشرة!» .

ولم تكن كوني ترغب في الحجاج واللجاج ، ولكنها لم ترغب أيضاً في الذهاب مع زوجها إلى الغاب ، ولهذا مشت ناقمة متذمرة ، تكاد لولا قليل أن تصارحه برأيها ، وتجبهه بكرهها . ولكنها صبرت وتجلدت .

وقال هو بعد دقائق : «لن يحدث إضراب متى رتبت الأمور بمقدرة ومهارة» .

«ومن أدراك؟» .

«إذا أتقنت العمل ، فلن نفسح لهم في المجال» .

«وهل يدعك الرجال تفعل ما تشاء؟» .

«لن نأخذ رأيهم ، سنفعل اللازم في غفلة منهم ـ وسنفعل كل ذلك من أجلهم ، ولمصلحتهم ، ولمنفعتهم ، سنفعل كل شيء إنقاذاً للصناعة» .

«ولمنفعتك أنت أيضاً» .

«بطبيعة الحال! ستكون المنفعة مشتركة» .

«على أني أشك في قبول الرجال لشروطك» .

«لا تشكي يا عزيزتي ، فأنا اتخذت الخطوات الضرورية رفيقاً مستأنياً» .

«وهل تقتضي الضرورة تملكك للصناعة ، أنت وغيرك؟» .

«كلاّ ، ولكن إلى المدى الذي أتملكها يجب أن أحرص عليها

وأرعاها وأنهض بها . . وناموسي هو : ـ خذ جميع مالك ، واستغله ، وشجع الصناعة وأتح العمل للفقير والمعدم . . إنها الطريقة المثلى لملء البطون ، وكسو الجسوم . . ولا جرم أن التنازل عمّا نملك للفقير يزيده فقراً ، فهو جسم بلا دماغ أحياناً ، ويخلق بنا أن نسيّره نحو المصلحة العامة !» .

«وما قولك باليأس؟» .

«إنه إحساس من جملة الأحاسيس ، وليس في طوقنا تغيير ما جاءت به الطبيعة» .

«فلو استشرى أمر الحسد والغيرة والتلهف إلى الظفر بما في يد الغير ، فماذا يحدث؟» .

«نبذل وسعنا لكبح جماح هذا التيار . ولا بد لإنسان ما أن يدير الدفة ، فيفعل ما فيه الخير للجميع» .

«ومن هو هذا الإنسان؟» .

«رجل الصناعة !» .

وسادهما صمت طويل ، ولفهما هدوء وسكون .

وقالت بعد دقائق : «إنهم يعملون لك في أعماق الأرض» .

قال : «ويجنون من وراء ذلك ويكسبون» .

«إن حياتهم آلة لا أمل لها ، وكذلك حياتنا نحن !» .

«أنت مخطئة !» .

««وهم يمقتونك» .

«أنت مخطئة . . والشعب لن يتغيّر . . إننا حيوانات ، وهم أحقر هذا الحيوان قاطبة . . وعبيد «نيرون» لا يفترقون في عاداتهم وطباعهم عن عادات عمالنا وطبائعهم . . إنهم الدهماء . . إنهم الذين لا

يتغيرون ولو مضت آلاف من السنين . . وما تغيّر فيهم إلاّ ما سقيناه لهم من السموم . . وقد قدمنا لهم هذه السموم في أقداح نطلق عليها اسم العلم» .

واستمر كلفورد يصف الشعب ويصف العامل ، واستمرت سورته ترتفع وتحتد وتتأجج ، حتى فزعت كوني لما سمعت ، فقد لمست كثيراً من الحقائق فيما سمعت ، ولكنها حقائق قاتلة مردية !

وأتمّ كلفورد : «إنني أزمع أن أسوسهم بعقلي ؛ ومتى أنجبت لي ولداً دربته على طريقتي الخاصة بحيث يصبح قادراً على معالجة أدقّ المواقف ، والخروج من أحرج المآزق !» .

«ولكنه لن يكون ابنك ، ولعله لا يكون من طينتك وطبقتك نفسها ـ الطبقة السائدة الحاكمة المسيطرة !» .

«لا أكترث بوالده وهوية هذا الوالد ، ما دام الولد صحيحاً قوياً ذكيّاً ! أعطني هذا الطفل لأجعل منه خليفة لي لا يختلف عن أي تشاترلي سلف ! فليس الأمــر من يجيء بنا ، ولكن أين يرمي بنا القدر . . ضعي طفلاً ـ أي طفل ـ بين الطبقة الحاكمة ، وسينمو كحاكم يحب السيطرة ، ويعرف كيف يهيمن . . وضعي أولاد الملوك والسلاطين والأمراء بين الرعاع ، وسيصبحون من العامة ، من الطغام ، من الدهماء !» .

«فالعامة إذاً ليسوا سلالة ولا فصيلة ، كما أن الخاصة ليسوا دماً متحدراً من الأب إلى ابنه !» .

«كلاّ ، إن هذا كلام متمق يمليه الخيال . . فالأرستقراطية عمل ، قسم من القدر ، كما أن العامة عمل ، وقسم آخر من الجانب الآخر من القدر . . والفرد لا يؤخر أو يقدم ، والمسألة هي : أي العملين ننشأ

ونُراض عليه . . إن الفرد لا يصنع الأرستقراطية ، بل ممارسة الأرستقراطية تنشئ الأرستقراطي ، وبالتالي تؤلف الطبقة الخاصة .

*

وتابع الاثنان سيرهما . . وهبطا في منعرج ضيق لا يتسع إلاّ للكرسي ، وتأخرت كوني قليلاً ، وتناهى إليها صوت صفير ، فاستدارت على عقبيها ، فإذا بعشيقها ينقض عليها ، فيقبّلها . . وتخاف هي وتنذعر ، ولكنه يسرّي عنها بقبلة ثانية ، ويهمس :

«الليلة . . الليلة . . في العاشرة . . هل تأتين؟» .

قالت : «أجل !» .

وهرولت مسرعة وراء زوجها .

وشاء كلفورد بعد أن بلغ المنخفض أن يعود أدراجه ، فلم تستجب له الآلة ، وهدرت وزمجرت ثم صمتت . . وبذل وسعه ليجعلها تصعد المرتفع فأخفق في محاولته .

واضطر أخيراً إلى النفخ في صفارته . وما هي إلاّ دقائق حتى برز لهما الحارس ، فطلب إليه كلفورد أن يدفع الكرسي . ومضت ساعة والحارس النحيل يتصبب عرقاً . . كان يدفع الكرسي الثقيل ويرقى به في المرتفع ، ويصيبه جراء ذلك سعال شديد يرغمه على التوقف والتريث .

ووصلوا بعد لأي إلى البيت ، ودخل الحارس معهم ، فوقف قليلاً ، وقال له كلفورد باقتضاب :

«شكراً لك يا ملورد، وعليّ أن أجلب آلة جديدة من نوع آخر لكرسيي . . ألا تذهب إلى المطبخ لتنعم ببعض الطعام؟» .

فأجاب الرجل بأدب : «شكراً لك أنت يا سير كلفورد ، فإنني مدعو إلى القرية» .

قال : «كما تشاء ، افعل ما تراه» .

وذهب الرجل في سبيله ، وتميّزت كوني من الغيظ ، ولم تستطع كبت مشاعرها ، وما كادت تجلس إلى مائدة الطعام حتى ابتدرت زوجها تقول :

«ماذا دهاك؟ لماذا لا ترى الناس بعين الإنسانية؟» .

«ومن هو الذي تعنين؟» .

«حارس الصيد . . ملورد . . فإن كنت أنت عيّنة عن الطبقة الحاكمة ، فلا كانت هذه الطبقة ولا كان أمثالك من الرجال ! وإنني آسفة ، آسفة لك» .

«ولم ذلك؟ بيّني . .»

«رجل قضى أياماً في مرض شديد ، رجل مستضعف ، يا إلــهي ، لو كنت من هذه الطبقة الكادحة لتركتك تنفخ في صفارتك حتى تجحظ عيناك !» .

«لا أشك قط في ما تقولين» .

«ولو كان هو أنت ، لو كان مشلولاً معطل الساقين ، وتصرّف كما تصرّفت ، هل كنت تغضي؟ هل كنت تكتم اشمئزازك؟ قل لو فعل ذلك ، ماذا يكون ردّ هذا الفعل؟» .

«تمهّلي يا عزيزتي ، ولا تخلطي بين الأقدار والأشخاص» .

«ماذا تريدني أن أفعل؟ هل أرى الإهانة توجه إلى إنسان وأغمض عينيّ عن القذى؟ ألستما من جبلة واحدة؟ ألسنا جميعاً من البشر؟» .

«لقد ابتعته . . وأجيز لنفسي استعمال هذا الاصطلاح!» .

«ابتعته! وماذا نقدته؟ جنيهين؟ تبّاً لجنيهيك! أتشتري رجلاً بجنيهين في الأسبوع؟!» .

وغادرته غضبى ، وصعدت مندفعة إلى غرفتها وهي تتمتم متسخطة :

«اشتراه! ويحه! أيشتري الناس؟ إنه لم يشترني ، ولا حاجة لي إذاً إلى المكث معه ـ مع سمكة ميتة!» .

وآلت على نفسها أن تعزل كلفورد من تفكيرها . . هي لا تود أن تبغضه ، ولكنها عزمت أن تنسى ما قاله وما نبس به ، وأن تنسى كذلك شخصه كله .

وفي الساعة العاشرة خرجت من الباب الخلفي ، وانطلقت في سرعة بين المشي والعدو إلى الكوخ .

وكان القمر في نصفه الأول . . وكان الرجل في انتظارها وقد ترك الباب موارباً ووضع المصباح على المنضدة .

وما كاد يراها داخلة بخطواتها الهادئة حتى ابتدرها يقول : «أنت طيبة ، وأنت حبيبة . ماذا جرى بعد ذهابي؟ هل حدث ما عكّر جو علاقتكما؟» .

«كلاّ ، إن كل شيء على ما يرام» .

وأغلق الباب وراءها . وجلست وجلس هو . وقالت :

«أواثق أنت من أنك لم تؤذِ نفسك في صباح هذا اليوم؟» .

«كلاّ ، كلاّ» .

«عندما انتابتك النزلة الصدرية ماذا كان مفعولها وتأثيرها؟» .

«لم تكن ذات بال! ولكنها تركت القلب أضعف ممّا كان وتركت الرئتين ضيقتين بالنفس!» .

«ولكن ، ينبغي عليك أن تحرص كل الحرص ، فلا تكدّ نفسك ولا تشقّ عليها» .

«إنني حريص في الغالب» .

وصمتت صمت الغضوب الناقم . ولـمّا تكلمت ثانية كان في صوتها رنة غيظ وكراهية ، قالت :

«وهل حقدت على كلفورد؟» .

«حقدت عليه! كلاّ . . لقد صادفت كثيرين من أمثاله ، حتى اعتادت نفسي على تقبّل نزواتهم بصدر متسع ونفس حليمة» .

ودنت منه فمسحت على جبهته ، ولكنها تساءلت فيما بينها وبين نفسها عن علة وجودها في هذا المكان وعن سبب تعلّقها بهذا الإنسان .

وشرع يخلع حذاءه ، ونضا عن جسده قميصه . وأشاحت كوني وحدقت في الموقد ، وانثنت إليه برأسها فجأة وسألته :

«هل أُغرمت بزوجتك؟» .

«أُغرمت بها! وهل همت أنت غراماً بزوجك؟» .

ولم تشأ كوني أن تنثني عمّا أرادت معرفته ، بل قالت بإصرار :

«ولكنك كنت تفكّر فيها كثيراً» .

«أفكّر فيها؟» وافتر ثغره عن ابتسامة ساخرة .

واستتلت تقول : «ولكنك تفكر فيها الآن» .

«أنا !» .

واتسعت حدقتاه ، وأتم : «لا أستطيع أن أفكر فيها» .

«وما السبب؟» .

فهز رأسه ولم يجب .

وقالت : «إذاً لم لا تحصل على طلاق؟» .

فحدجها بنظرة حادة وأجاب : «إنها لا تقربني ، وتمقتني أشد المقت . . إن ضغينتها نيران تتأجج في صدرها» .

«بيد أنها سترجع إليك ، سترجع ما دمتما لم تنفصلا قانوناً» .

وفكّر الرجل ثم أجاب : «أصبت ولا ندحة لي من السعي إلى طلاق تُسوّى معه الأمور» .

«وكيف نمت الكراهية المتبادلة في قلبيكما؟» .

«لقد تزوجتها مرغماً . أحببتها وأحبتني ونحن شابين في ريعان الصبا ، وغرّرت بي فاستدرجتني وسقتني حتى سكرت ، وكان الوقت ليلاً . ولـمّا صحوت في صباح اليوم الثاني ألفيت نفسي نائماً في أحضانها . وسرعان ما خيّرتني هي ، ومن بعدها والدها ، بين أمرين ، إمّا أن أتزوجها وإمّا أن أقضي العمر في غيابة السجن . ومضت علينا السنون ، وحملت زوجتي وأنجبت طفلتها ، ولكنها عشقت عليّ ، وكان عشيقها سكّيراً مدمناً ، فعلّمها ما تعلّمه هو ، حتى جارته وسبقته في عربدته !» .

«ولو اتفق أن رجعت إليك في يوم من الأيام فماذا تفعل؟» .

«أذهب ، أهرب بنفسي ، أتلاشى من هذه البقعة» .

ومالت كوني عليه ، فلثمت وجهه ثم ارتمت بين ذراعيه ، وهمست بصوت عذب :

«فانس ، انس إذاً !» .

وضغط عليها وألصق جسده بجسدها ، وكانت الغرفة دافئة ، والنيران تتلظى في الموقد . . . وسرى الدفء في جسديهما ، واستحال في سرعة إلى عزم وقوة . . وإلى نشاط عجيب . . وتعلّقت به في تشبّث ، وبيدين مرتعشتين متشنجتين .

وتحرّكت يده فعبثت بجسدها ، ورفعت إليه عينين ساجيتين تنبعث منهما نظرات الانفعال والشهوة . وضغط عليها ، ضغط حتى اهتز بدنها . وابتسم فأجابته بابتسامة غائمة ، وذبلت عيناها فأسبلت أجفانها ، وهمس وفمه يكاد يلامس أذنها :

«لِمَ تغمضين عينيك؟» .

«لأني أرغب في رؤيتك وأنا مغمضة» .

«لا بل افتحيهما . . دعيني أرى الحياة في عينيك ، ذريني أقرأ اللذة في نظرتك . .» .

«أحقاً تقول؟ أوتقرأ معاني اللذة في بصري؟» .

«أجل ، أجل . .» .

وابتسم ابتسامة فاترة ، وكأنه يسخر ، وكأنه يتهكم ، وكأن ما يفعل واجب تفرضه الطبيعة عليه ـ واجب الجسد عندما ينادي ويلح .

*

استيقظ ملورد وخيوط الفجر تتسرب من النافذة . وأصغى كما يصغي كل صباح إلى سقسقة العصافير وهي تطير متنقلة من غصن إلى غصن في مرح وحبور .

كانت الساعة تشير إلى منتصف الخامسة ، وكانت المرأة لا تزال

غارقة في نومها . ومرّر ملورد يده على محياها برقة ولطف ، فاختلجت أهدابها ، ثم فتحت عينيها الزرقاوين المتسائلتين المبتسمتين في وجهه ابتسامة الدعة والحب .

وقالت : «هل استيقظت؟» .

فضحك ملء فيه وأجاب : «أجل ، أما ترينني جالساً أرنو إلى محاسنك؟» .

وقفزت من مضجعها على حين غرة وقالت :

«عليّ أن أفارقك قبل أن يتنبّه أهل الدار إلى غيبتي . . وثق يا حبيبي ، ثق أني أرغب كل الرغبة في زوال الدنيا كافة والعيش معك هنا في بقعة ضيقة ، هنا في هذه البقعة الخضراء المعشوشبة» .

ومشى الاثنان بعد أن تأبط الرجل ذراعها ، وتقدما في خلال الغابة الرائعة الندية ، وكأنهما يعيشان في تلك الساعة في دنيا خاصة بهما .

وكانت كل خطوة تخطوها كوني إلى الأمام تحملها كارهة إلى الحقيقة المرة ـ إلى رغبي ـ إلى زوجها المشلول .

ولمّا تريّث الرجل قريباً من المنزل واستدار على عقبيه ليرجع قالت :

«بودي أن أنضم إليك لأحيا معك حياة طويلة لا فراق بعدها ، ولا بعاد ، ولو تخرمتنا الحتوف ـ أريد أن أحيا معك في الحياة وبعد الحياة !» .

وجدت كوني على طبق إفطارها كتاباً من شقيقتها هيلدا ، ففضّته وقرأته . قالت هيلدا في كتابها :

«أبي ذاهب إلى لندن في هذا الأسبوع ، وسأمر بك يوم الخميس الموافق ١٧ حزيران ، فكوني مستعدة حتى نذهب على الفور ، فليست بي رغبة إلى قضاء الليل في رغبي ، فالمكان كريه ولا أطيق رؤيته فضلاً عن المكث فيه» .

إنها تنساق انسياقاً إلى مغادرة رغبي ، والابتعاد عن عشيقها . .

وكلفورد يشفق من غيابها ، ولعله يخاف ذلك لأنه يفقد شعور الأمان والثقة متى ابتعدت . ولا شك أن وجودها يدخل الثقة إلى قلبه ، وخصوصاً في هذه الأيام العصيبة التي اشتد فيها كفاحه ونضاله ، وما انفك يبذل جهده ليوفر في نفقات التنجيم ، ويقصد في كلفة اليد العاملة ، ثم ليجد السوق الذي يستهلك منتوجاته من الفحم .

وقد أطبق عليه الهمّ حتى برى جسده ـ فلكي تحتفظ بالصناعة يجب أن تزيد من الإنتاج . . ولكي تنتج يجب أن تعثر على السوق والمشتري .

والصناعة جنون ، ولا ينجح فيها إلاّ كل مجنون . وكلفورد لم يسلم لبّه من الخبل ـ هكذا تراءى لكوني ـ فآراؤه وأفكاره ضرب من الجنون ، ومغامراته في مناجم الفحم لا تسمه إلاّ بالخبل .

كان يحدثها بحماسة عن مشاريعه ، ثم ينتبه إلى الممرضة فيطلب

إليها أن تلعب معه لعبة الورق . وكان في أثناء اللعب يغرق في ذهول عجيب . وكانت كوني لا تطيق رؤيته في مثل هذه الحالة ، فتتوسل ببعض الأعذار وتصعد مسرعة إلى حجرتها . ويقضي هو قطعاً كبيراً من الليل مع الممرضة ، وهما يلعبان ويتحمسان في اللعب ـ وكانا يقامران ، وكان كل منهما يرغب في الكسب !

وقالت الممرضة ذات يوم في سياق حديثها مع كوني :

«أتعلمين؟ لقد خسرت ليلة البارحة مالاً كثيراً مع السير كلفورد» .

وسألتها كوني مشدوهة : «وهل أخذ المال؟» .

فأجابت المرأة : «دون ريب فمال القمار حلال !» .

وقطّبت كوني . . فقد غضبت من كليهما . . ولكن كلفورد كان قد ضاعف مرتب ممرضته ، ما شجعها على لعب الميسر مع سيدها ، وجعلها مولعة بالقمار ، تقضي ساعات الليل ساهرة معه ، لا تحفل النوم ، ولا تكترث بتعب الجسم .

وقالت له كوني بعد ورود كتاب شقيقتها : «إنني ذاهبة في السابع عشر من هذا الشهر» .

فأجاب : «ومتى تعودين؟» .

قالت : «قبل العشرين من تموز المقبل» .

ورمقها بنظرة غريبة جامدة لا معنى لها . . بنظرة طفل فيها غموض وفيها سذاجة ، ولا تختلف أيضاً عن نظرة شيخ ماكر !

وقال : «لن تخيّبي رجائي . . لن تطعني قلبي . .» .

«وكيف؟» .

«بعدم العودة . . بالابتعاد إلى الأبد . .» .

«اطمئن . . كن واثقاً من عودتي» .

خاف السير كلفورد من ذهاب زوجته ، وفي الوقت نفسه رغب في ذهابها . . وكان تناقضه عجيباً ، حتى إنه هو نفسه دهش واختلط عليه الأمر . . ولعله رغب في ذهابها ليحظى بالطفل المبتغى ، لعله شاء أن تذهب فتتصل برجل ، وتنجب له الوارث وحامل الاسم ، حتى يبقى لرغبي رجل من آل تشاترلي !

*

والتقت العشيق الحارس ، فأطلعته على ما أزمعت عليه ، وأردفت معقبة :

«وعند أوبتي ، أستطيع أن أخبر كلفورد بضرورة افتراقي عنه ، ويتسنى لنا نحن الاثنين بعد ذلك أن نغادر هذه البقعة ، ولن يعرف أحد الحقيقة ، لن يعرفوا أني ذهبت معك . . قد نقصد بلداً آخر . . قد نمخر البحر . . من يعلم؟ من؟ قد نذهب إلى إفريقية أو أستراليا !» .

وأصابها الانفعال ، وسرّتها خطتها . وقال هو يستوضحها :

«هل اتفق لك أن ذهبت إلى المستعمرات؟» .

«كلاّ ، وأنت؟» .

«لقد سافرت إلى الهند ، وجنوبي إفريقية ، ومصر» .

«ولم لا نقصد جنوبي إفريقية؟» .

«ربما فعلنا ذلك !» .

«أم هل تنفر من الفكرة ، فكرة اندماجنا؟» .

«كلاّ ، فأنا أفعل كل شيء ولا أبالي !» .

«ألا تغتبط؟ ألا تسر؟ لن نكون فقراء ، فدخلي يربو على ستمائة جنيه في العام الواحد . وهذا يكفينا ، ألا تظن ذلك؟» .

«إنه الثراء بالنسبة إليّ» .

«أواه ! ويا لسعادتنا الدانية القطاف . .» .

«إني أتعجل الزمان ، فلتمر الأيام ، لتمر ، حتى يتحقق الوطر !» .

«على أن الطلاق لا بد منه لكلينا ، وإلاّ لحقت بنا المتاعب» .

وأطرقت خائفة ـ لقد نسيت هذه المعضلة ، نسيت هذه العقدة العسيرة الانحلال .

وقصدت الكوخ بعد يومين ، وجلست تجاذبه أطراف الحديث ، قالت :

«ألم تكن سعيداً وأنت ضابط في الجيش؟» .

«كنت سعيداً ، وكنت أميل إلى الكولونيل رئيسي» .

«هل كنت تحبه؟» .

«أجل !» .

«وهل أحبك هو؟» .

«نعم ، بطريقته» .

«زدني معرفة به» .

«كان جندياً بسيطاً ، ورقي مختلف المراتب ، حتى بلغ رتبة الكولونيل . وصرفه تعلقه بالجيش عن اتخاذ الزوجة . وكان يكبرني بعشرين عاماً ، ويمتاز بالحصافة والذكاء . وقد عشت في سحره ، ولم أخلص من تأثيره وقوة جاذبيته حتى بعد مفارقتي له . وإني لشاكر للقدر أتاحة هذا المربي والأب لي ، ولا أتأسف على شيء» .

«وهل حزنت كثيراً لموته؟» .

«كدت أصعق وألحق به . . ولكني صبّرت نفسي حتى سلوت» .

وفكّرت في هذا الرجل ، وفكّرت بزوجها وبنفسها ، وأرهفت السمع ، وأصاخت إلى صوت العاصفة التي أخذت تشتد حتى علا هديرها وأصبح زئيراً .

وتساقط الرذاذ ، ثم انهمر المطر بعنف .

وشخص الرجل إلى السقف ، وبانت في عينيه نظرة ساخرة ، متهكّمة ، مستهينة بالدنيا والخلق ، مستسلمة إلى ما تسفر عنه الأيام . . ومع ذلك فقد أصغى هو الآخر إلى زئير الريح في الخارج . . ونسي وجودها ، وشعر بأنه يجلس وحده ، تؤنسه العاصفة ، ويرفه عنه المطر المنسكب .

وابتعد صوت الرعد ، وكأنه سلسلة تداعبها يد من أولها حتى تنتهي إلى آخرها . .

وهدأت الضجة وركد الريح ، وكأن تلك اليد الساحرة قد انتقلت بالعاصفة الهوجاء إلى صعيد آخر .

وقال ملورد بغتة : «ألا تفكرين بالمستقبل؟» .

«ليل نهار . . أفكر فيه كثيراً . .» .

وألقى في الموقد قطعة من الحطب وأخلد إلى الصمت . . وذبلت عيناه قليلاً ، فخيل إليها أنه انتقل بخياله إلى البندقية . وما عتم صوته أن ارتفع ثانية يقول :

«ولكن السير كلفورد يتوقع رجوعك؟» .

قالت : «لا مندوحة لي من الرجوع» .

وسادهما الصمت مرة أخرى .

ومزق صوته السكون حين أردف :

«وأين تضعين مولودك؟ في رغبي؟» .

فأحاطت عنقه بذراعها وأجابت :

«إن لم تأخذني سأضع وليدي في رغبي» .

«وإلى أين آخذك؟» .

«إلى أي مكان شئت ! على أن تبعدني من هنا» .

«متى؟» .

«عند رجوعي» .

«ولكن ما معنى رجوعك ما دمت ذاهبة؟» .

«يجب أن أرجع ، فقد قطعت على نفسي عهداً ! بجانب ذلك فأنا راجعة إليك» .

«أي أنك راجعة إلى خادم زوجك أو حارس صيده على الأصح !» .

«لا أرى في ذلك ما يضيرني» .

«أشكر لك رقتك . ومتى تذهبين نهائياً؟ أعني متى تهجرين زوجك؟» .

«أواه ! لا أعلم متى . ولكننا سنعيّن الوقت ونتخذ الأهبة لدى عودتي من البندقية» .

«وما هي الخطوات التي ستقومين بها؟» .

«أكشف النقاب لكلفورد عن الحقيقة» .

«هل تفعلين؟» .

فطوقت عنقه بذراعيها ولثمت فاه وأجابت بصوت الحالم : «لا تحاول أن تضع العراقيل في طريقي بكلماتك» .

فابتسم الرجل وربت على وجنتها وقال :

«إنني لا أصعّب الأمور لك ، وأحاول فقط أن أعرف هدفك ومرماك . وقد اكتشفت أنك لا تعرفين نفسك . ولهذا تودين أن تفكري وأنت في البندقية . ففكري ولن ألومك على حكمتك . قد ينتهي بك الرأي إلى العدول عن فكرة مغادرة رغبي ، ولا ألومك أيضاً ، فليس لدي شيء أقدمه ، وعلاوة على ذلك لا أود أن أعيش عالة عليك» .

«ولكنك تريدني ، أليس كذلك؟» .

«وأنت ، هل تريدينني؟» .

«أنت تعلم شعوري نحوك» .

«أصبت ! ومتى تريدينني؟» .

«يوم أرجع نتفق على رأي . أمّا الآن فأنا متعبة مضطربة . ويخلق بي أن أهدأ وأصفو» .

«أصبت ! اهدأي وأفسحي للصفاء في المجال إلى نفسك !» .

فشعرت بأنه يتعمّد الإساءة إليها ، ولكنها تغاضت وقالت : «على أنك تثق بي ، ألا تثق؟» .

«أجل ، كل الثقة !» .

فلمست في لهجته نغمة الهزء ، فقالت بصوت جهير :

«قل إذاً ، ما دمت تخاطبني بمثل هذه اللهجة التي يشوبها الشك ، هل تظن من الأفضل لي أن أعدل عن فكرة السفر إلى البندقية؟» .

فأجابها بصوته العميق وبلهجته الساخرة :

«إنني متأكد من حكمة ذهابك» .

«أتعلم أني ذاهبة يوم الخميس القادم؟» .

«أجل !» .

وران عليهما صمت لم يلبث أن بدّده بقوله :

«لقد زرت المحامي وباحثته في مسألة طلاقي» .

فارتعشت كوني قليلاً وسألته :

«وماذا قال لك؟» .

«قال إنه كان يجدر بي أن أتخذ الخطوات منذ زمن بعيد ، ولكنه يظن أن في مكنته تحقيق الهدف» .

«وهل يتحتم عليك إحاطتها علماً؟» .

«نعم ! وقد بُلّغت دعوى الطلاق ، كما بُلغ ذلك عشيقها الذي تشاركه الحياة» .

«أمر كريه ، وتمثيلية ممجوجة ! وأخالني مضطرة إلى اتخاذ الإجراءات نفسها» .

«ويتحتم عليّ الآن أن أحتاط للأمر فأنعزل عن الناس ولا أختلط بامرأة ، حتى لا تتخذ الحجة ضدي أمام العدالة . وما دمت ذاهبة إلى البندقية فمعنى ذلك أن التجربة نأت عني» .

فضربت وجهه بيدها ضربة ناعمة وقالت :

«فأنا إذاً تجربتك ، وتراني جذلة محبورة لكوني تجربة أراودك وأفلّ إرادتك ! والآن لنترك هذا الحديث لقد كدرني وملأ قلبي غمّاً .

سأذهب ولكن لا بد لي من رؤيتك مرة ثانية قبل سفري ، وليكن ذلك يوم الخميس مساء» .

«على أن شقيقتك قادمة يوم الخميس !» .

«أجل ولكني سأتدبر المسألة» .

«بيد أنها ستعلم الحقيقة إن جئت إليّ» .

«سأخبرها وأطلعها على جلية الأمر ، فلا بدّ لي من إماطة اللثام لها عن علاقتنا ، وستمد لنا يد المساعدة» .

وفكر الرجل قليلاً ثم قال :

«فأنت تزمعين أن تغادري منزلك في الأصيل مع شقيقتك ثم تتركين شقيقتك في مكان ما وتأتين إليّ وحدك ! ألا ترين المجازفة في عملك هذا؟ ألا تلمسين الخطر؟» .

«كلاّ . . كلاّ . . سأكون حريصة حذرة فلا تجزع !» .

وخرج الاثنان من الكوخ واتجها في طريق المنزل . وبرزت لهما فجأة المرضة بولتون وهي تحث الخطو نحوهما لاهثة .

وما كادت تدنو منهما حتى هتفت قائلة :

«أواه يا سيدتي ، خشينا عليك السوء ، فقد تأخرت كثيراً !» .

فقالت كوني بصوت هادئ لا ينمّ عما اعتمل في صدرها : «لا ، لم يحدث شيء مكدّر» .

ورفعت المرضة نظرها إلى وجه الرجل وتفرّست في أمائره متأملة مستجلية . والتقى النظران : نظرها المتلهف إلى المعرفة ، ونظره المتهكم ـ كان الرجل ثابت الجنان لا تخيفه المصادفات ، بل على العكس تضحكه وتشوّقه .

على أنه سرعان ما قال بدعة وإيناس :

«أسعدت مساء أيتها الممرضة العزيزة ! سأترك لك أمر حماية سيدتك ومرافقتها إلى البيت . . إني ذاهب الآن» .

وحياهما بانحناءة يسيرة ورجع من حيث أتى .

*

وصلت كوني إلى البيت لتواجه بسيل من الأسئلة والاستجوابات . وقد جن جنون زوجها لغيبتها الطويلة ، وقلق قلقاً شديداً ساعة هبت العاصفة وهطلت الأمطار . وقد حاولت الممرضة أن تفرخ روعه ، ولكنه لم يزدد إلاّ هياجاً واضطراباً . وما عتم أن نادى على الخادم وأمره أن يذهب إلى الغابة ولا يرجع قبل أن يعثر على سيدته .

ولكن الممرضة استوقفت الرجل ، وما زالت بكلفورد حتى سمح لها بالذهاب عوضاً عن الخادم ، متعلّلة بأن الرجال سيشكون في الأمر ، ويظنون مختلف الظنون .

ولـمّا التقت المُحبّيْن ورجعت أدراجها مع كوني ، قالت لها : «أرجو أن لا تلوميني على مجيئي ، فقد فزع السير كلفورد ، واستعر نار خوفه ، وأوشك أن يرسل الخادم للبحث عنك» .

وهزّت كوني رأسها ، وشخصت إلى الأمام بطرف ساجٍ ونظرة حالمة غير مبالية ، وقالت أخيراً بصوت متهدج غاضب :

«ما أحمقه ! ولم لا يصبر؟ أخاف عليّ؟ وماذا ظن؟ هل أصابتني صاعقة؟» .

فقالت الممرضة : «أواه يا سيدتي ! أنت أدرى مني بطبيعة الرجال !» .

وتوغّر صدر كوني غضباً ، وفكّرت بالممرضة ، وأيقنت أنها اكتشفت سرها ، فتوقفت على حين غرة وقالت مهتاجة مستعبرة :

«أكره ما أكرهه هو أن يقتفي أثري إنسان !» .

فقالت الممرضة في حلم وصبر : «لا تتهميني بما أنا بريئة منه . . فقد درأت عنك خطراً ، ومنعته من بعث الخدم وراءك !» .

واحمر وجه كوني . . فهي حتى في عارها لا تستسيغ الكذب . . وقد وشت غضبتها بها ، وتحدثت أمائرها عن سرها . .

وقالت أخيراً : «ما دمت فعلت هذا ، فشكراً لك . . إني لا أملك من أمري شيئاً ، ولا بدّ مما ليس منه بدّ !» .

«وماذا فعلت؟ لقد اتخذت من الكوخ كنفاً لك من المطر !» .

ودلفا إلى المنزل ، واندفعت كوني إلى غرفة كلفورد وهي تكاد تتلهب من الغيظ . وما كادت تتوسط المكان حتى صاحت : «ينبغي أن تعلم شيئاً . . ينبغي أن تعلم أني حرة في تصرفاتي ، ولا يليق بك أن تقيم الدنيا وتقعدها متى قضيت ساعة خارج المنزل !» .

فقال : «يا إلــهي ! أين كنت أيتها المرأة؟ لقد قضيت ساعات خارج المنزل ، وفي عاصفة هوجاء خطرة . . فماذا يجذبك إلى الغابة؟ وماذا كنت تفعلين؟» .

قالت : «وهل أنا مضطرة إلى إطلاعك على ما فعلت؟ هل تقسرني على ذلك؟» .

فنظر إليها بعينين جاحظتين . وأردفت هي تقول : «ماذا يظن الناس بي متى سمعوا بقصتك؟ لقد قصدت الكوخ ساعة اكفهر الجو وأنذر بهطول المطر . . ووقدت النار وجلست ، وتمتعت !» .

فحدجها مرتاباً وقال : «إن نجوت من وعكة برد، يكون الحظ حليفك، فالبرد يضر بك كما تعلمين ويؤذيك» .

*

لم يجد كلفورد إلى النوم سبيلاً في تلك الليلة، فأمضى الساعات وهو يلعب القمار مع ممرضته .

وحان اليوم الموعود الذي تأتي فيه هيلدا . وقد اتفقت كوني مع ملورد أن تعلّق على نافذتها قطعة من قماش أخضر إن سارت الأمور في مجراها الطبيعي، حتى ينتظرها في تلك الليلة . أمّا إذا وقع ما ليس في الحسبان وعجزت هي عن القدوم فستضع قطعة حمراء .

وساعدتها الممرضة على التأهب وترتيب الأمتعة والملابس . وقد تحدثتا ملياً فرجت المرأة أن تعنى كوني بنفسها، كما طلبت إليها كوني أن ترعى زوجها وتخدمه بمحبة وإخلاص .

ووصلت هيلدا يوم الخميس صباحاً في سيارتها الصغيرة، وقد تجلت بأبهى صورة، وتبدت في وجهها علائم قوة الإرادة والعناد والاعتداد .

وقد جرّ عليها صلفها الوبال وأزمع زوجها، بعد أن عانى ما عاناه من عنادها وتشبثها برأيها، أن يطلقها . ولم تبال هي بذلك مع أنها لم تعشق عليه، وارتاحت نفسها لخلو حياتها من الرجال، وشعرت بالاعتزاز لأنها توشك أن تصبح سيدة نفسها وولية أمر ولديها .

ولـمّا خلت الشقيقتان الواحدة بالأخرى قالت كوني بصوت الخائف : «ولكني أود البقاء في مكان مجاور للمنزل يا هيلدا، وقضاء الليل فيه» .

فحدجتها هيلدا بعينيها الثاقبتين وقالت بأناة :

«وأين تنوين قضاء الليل؟» .

«ألا تعلمين أني أحب رجلاً آخر؟» .

«أظـن أنك لمحت لي بهذه العلاقة» .

«إنه يعـيـش في مكان قـريـب ، وأرغب أن أقـضي الليـلة مـعـه ، لا ندحة لي ولا مناص من ذلك ، لقط قطعت على نفسي وعداً !» .

أطرقت هيلدا مفكرة ثم قالت مستفسرة :

«ومن هو؟» .

«إنه حارس الصيد» .

وتضرج وجهها بحمرة الخجل ؛ أصبح محياها محيا طفل أصابه حياء شديد .

فنظرت إليها هيلدا شزراً وقالت باشمئزاز :

«كوني !» .

وأردفت كوني متداركة : «إنه لطيف كريم ، يفهم ويقدر ويحنو» .

وأحنت هيلدا رأسها لتخفي سورة غضبها . إنها لا تحب كلفورد وتعتقد أنه استغل شقيقتها وطيبة شقيقتها أسوأ استغلال ، وتمنت على الله أن يفترق الزوجان إلى الأبد . غير أنها لم تتصوّر أن تبلغ الضعة بأختها حد الإسفاف بعاطفتها وكرامتها .

وقالت أخيراً : «سوف تندمين ، سوف تعضين أصابعك ندماً على طيشك ونزقك» .

فقالت كوني وصوتها يتهدج : «لن أندم ، إنه نسيج وحده ،

وأحبه . . هو حبيب لي وسيبقى كذلك إلى الأبد» .

فأجابتها هيلدا وهي تشيح بوجهها :

«ستزول عاطفتك بعد حين لتعيشي في عارك ، أو على الأصح لتعيشي معه في خجل مستمر ، لأنك تعيشين مع رجل غير أهل لك» .

«لا لن يقع هذا ! واعلمي أني أحمل في أحشائي ثمرة حبي» .

فهتفت هيلدا ووجهها يستحيل لونه إلى امتقاع مخيف : «كوني !» وكان صوتها كمطرقة .

فقالت كوني بهدوء : «أعني أني أتوق إلى الحصول على طفل ، وسأعتزّ به ، سأعتز كثيراً لأنه ابن حبيبي» .

ولم تر هيلدا فائدة من متابعة القول في غضب وانفعال ، فسألتها بهدوء : «ألا يشك كلفورد في أمركما؟» .

«كلاّ ! فنحن لم نتح له أسباب الشك» .

«وأين يقطن الرجل؟» .

«في كوخ صغير يقع في نهاية الغابة» .

«أعزب هو؟» .

«كلاّ ، ولكن زوجته هجرته» .

«وكم يبلغ من العمر؟» .

«لا أدري ، غير أنه يكبرني» .

وكان كل رد تنطق به كوني يضيف ناراً جديدة إلى نيران الغيظ التي اشتعلت في قرارةِ هيلدا . ولكنها كتمت ما في صدرها وقالت :

«لو كنت مكانك لتخلّيت عن مغامرة الليلة» .

«لا أستطيع ! يجب أن أقضي الليلة معه ، وإلاّ فلن أذهب إلى البندقية» .

ووافقت هيلدا مكرهة . واتفقت الشقيقتان أن تذهبا إلى مانسفيلد ، حتى إذا جن الليل ، رجعتا خلسة في جنحه فأوصلتها هيلدا إلى كوخ الحبيب وعادت هي إلى مانسفيلد .

ووضعت كوني قطعة من قماش أخضر اللون على نافذة غرفتها . وشعرت هيلدا بالعطف على كلفورد ، وانقلب نفورها منه إلى شفقة عليه ورثاء له . وآمنت بعد الذي رأته من أختها برجاحة عقله وأصالة رأيه ، وأنحت على الغريزة الجنسية باللائمة ، ونسبت إليها كل شرّ ، وحمدت الله على ما صممت عليه من كبت هذه الغريزة ، وقهرها ، وإخضاعها لإرادتها .

*

انتهى الجميع من شرب الشاي ، فنهضت الأختان وودعتا كلفورد وقبّلتاه . . وقبل أن تغادراه قال كلفورد لزوجته : «أرجو لك رحلة موفقة يا عزيزتي ، وإلى اللقاء ، تعالي سريعاً» .

فأجابته كوني بلهجة ليّنة متوددة : «إلى اللقاء يا عزيزي ، لن أتأخر عن العودة ، فانتظر أوبتي» .

وانطلقت السيارة الصغيرة بالشقيقتين ، وما هي إلاّ ساعة حتى دخلت بهما مانسفيلد ، فعرجتا على الفندق وأخذت هيلدا لها غرفة ، وكانت حانقة ساخطة منطوية على نفسها ، لا تتكلم خيفة أن ينمّ حديثها عن الثورة المعتملة في صدرها .

على أن كوني أحسّت بأن الواجب يفرض عليها التحدث إلى

أختها عن حبيبها ، وقد طرقت الموضوع وأفاضت فيه . وأصغت هيلدا صابرة ، فلمّا ضاق صدرها بكلمات أختها ، قالت متبرّمة متأفّفة :

«هو . . هو . . فما اسمه؟ أنت لا تشيرين إليه إلاّ بكلمة هو . . !» .

فأجابتها كوني ضاحكة : «لم يتفق أن دعوته باسمه ، كما أنه لم يناديني باسمي . . وهذه ظاهرة عجيبة ، بيد أنه يدعى أوليڤر ملورد» .

«وكيف لو أصبحت السيدة أوليڤر ملورد ، عوضاً عن الليدي تشاترلي؟» .

«هذه أمنيتي الكبرى !» .

وأخذت هيلدا تلين شيئاً فشيئاً . فمن يعلم؟ قد يكون الرجل مهذّباً مثقفاً ، أكسبته خدمته في الجيش لباقة وأدباً ، وعلمته الحياة درساً نافعاً مفيداً؟ ولكنها قالت ، وكأنها تطلق آخر سهم في جعبتها :

«على أنك لن تلبثي بعد سنة أن تسأميه ، وحينئذ تشعرين بالخجل من ارتمائك في أحضان رجل من الطبقة العاملة» .

فقالت كوني : «عجباً لك ! عهدتك اشتراكية متحمسة للطبقة الكادة الكادحة !» .

«قد أظاهرهم في أزمة سياسية ، وتأييدي لهم كشف لي الكثير من الحقائق ، فرأيت نواحي حياتهم كلها ، وأدركت صعوبة الاختلاط بهم ، وليس ذلك لأنهم أجلاف غلاظ ، بل لأن النغم كله يختلف عن نغم الحياة الذي توقعه أرواحنا على أوتار الزمان !» .

«ومهما يكن الأمر ، فالحب مدهش يفعل العجائب . . إنني أحيا الآن ـ لقد بعثت الحياة من جديد في قلبي وروحي ـ وأشعر أني أتحرك وسط الخليقة !» .

«أخال كل بعوضة يخالجها الشعور نفسه!» .

«حقاً! هذا وأيم الله رائع!» .

وتناولت الاثنتان طعام العشاء ، واستقلتا السيارة الصغيرة وانطلقتا بها في طريق يختلف عن الطريق الذي نهجتاه منذ قليل إلى المدينة .

ووصلتا الجسر ، وظهر لهما شبح رجل يقف منتظراً ، فهتفت كوني : «قفي ، ها هو ينتظر . . .» .

وأوقفت هيلدا سيارتها ، وأطفأت الأنوار ، وقفزت كوني وهرولت نحوه وهي تقول : «عسى أن لا تكون انتظرت طويلاً؟» .

قال : «كلاّ ، بل جئت منذ لحظات قصار» .

وانتظر الاثنان قدوم هيلدا ، ولكنها أغلقت باب السيارة ولزمتها ، وقالت كوني لعشيقها : «إن شقيقتي في السيارة ، فهل ترغب في محادثتها» .

ثم هتفت تخاطبها : «هلمي يا هيلدا ، لنذهب سوياً إلى الكوخ» .

فأجابتها : «وماذا أفعل بالسيارة؟» .

فقال الحارس : «اتركيها حيث هي ، فالمكان غير مطروق في الليل . .» .

وترجّلت هيلدا ، وتقدم الثلاثة نحو الكوخ . فمشى الرجل في المقدمة ، تتبعه كوني ، ثم شقيقتها .

وظهرت لهم من بعد قريب أضواء المنزل ، منزل السير تشاترلي ـ فخفق قلب كوني ، وشعرت بالرهبة . .

ووصلوا أخيراً إلى الكوخ ، فدلفوا داخلين ، وقدم الرجل كرسياً إلى هيلدا ، ودعا كوني إلى الجلوس على الأريكة في مكانها المعتاد!

وتأمّلت هيلدا في الرجل ، وصعّدت فيه طرفها .

وقال هو بعد أن استتب بهم المقام ، موجهاً حديثه إلى هيلدا : «ماذا أصنع لك؟ هل أعد فنجاناً من الشاي؟ أم آتي بزجاجة من الجعة؟» .

فهزت رأسها ، وأجابت في خجل تشوبه سخرية : «بل أرغب في كأس من الجعة» .

وجاء بالزجاجة ، فسكب لها كأساً ، ثم قال وهو يومض بعينه : «لن أقدم لك السجاير ، فأنا لا أتعاطى التدخين» .

وكأنه فطن للأمر فأسرع يجلب كأساً أخرى ، أترعها بالجعة وقدمها لكوني .

وقالت هيلدا بغتة : «أتظن يا هذا أن مغامرتك مأمونة العواقب؟» .

فقال متهكّماً : «مغامرتي أنا وشقيقتك؟ إنها هينة ولا خوف من عواقبها !» .

«ولكنك لم تفكّر في الاحتمالات . . لم تفكّر بالنتائج . . ثم لم تزن الأمور والأشخاص . .» .

«وما شأنك بالأمور والأشخاص؟ لماذا تتدخلين بما لا يعنيك؟ ولكن . . آه . . لك ملء الحق في ذلك ، فستصبحين عمّا قليل شقيقة زوجتي . .» .

«كلاّ . . لن يتحقق هذا . . لن أقبل به . .» .

«وهل تظنين أن الأمر يتوقف على رأيك وقبولك؟» .

فنهضت هيلدا واقفة ، وقد بان الغضب في عينيها . ووقف هو الآخر ، وقال : «أنا طوع أمرك يا سيدتي . . واعلمي ، قبل أن نفترق ،

أن أخلاقك القريبة من العجرفة والصلف ستبعد عنك الناس جميعاً . .» .

فصاحت : «لا تسترسل في الكلام ، إني ذاهبة . . ذاهبة . .» .

«سأرافقك إلى مكان السيارة» .

«كلاّ ، لا أرغب في رفقتك» .

«بل سأرافقك ، فالوقت ليل ، ولا يليق بسيدة أن تخرج بمفردها في غابة خطرة غير مأهولة !» .

ولما قفل راجعاً ، ارتمت كوني على صدره ، فقبّلها ، ثم جلس قليلاً يفكر . وما عتم أن خلع نعله ، ووقف يتأمل في حبيبته وفي المصباح الخافق الخافت النور .

وأطفأ المصباح ، فسبح المكان في ظلام لذيذ . .

ونضت كوني ملابسها عن جسدها . . وتخلص هو من ملابسه . .

وساد المكان صمت وظلمة . .

وساده دفء وحرارة . .

وساده مناجاة ، ثم قبلات . .

وتبلج الفجر ، وبزغت الشمس . .

وفتح الاثنان أعينهما على نور نهار جديد ساطع !

*

ونظر إليها ، وناجى نفسه : «ما أروع المرأة الجميلة وما أشهاها متى كانت نصف نائمة !» .

وسألته في غنج : «ما الساعة؟ هل حان وقت النهوض؟» .

قال : «نعم لقد حان ، وسأعد لك بعض الطعام» .

ونهض فتثاءب ، وبان لها جسده وعضلاته ، وفكرت ـ كم يكون الإنسان جميلاً متى امتلأ بالحياة والشجاعة !

وكانت الشمس تلقي أشعتها الدافئة على المسكونة ، وينعكس نورها على الأشجار الندية فيكسبها رواءً سحرياً .

وتطلعت من النافذة وهي شبه حالمة ، وهبّ عليها نسيم الصباح ، فهدهد مشاعرها ودغدغ روحها ، فسبحت في عالم لذيذ من الخيال ـ وحلمت بالحياة معه ـ حلمت بالحياة فقط ـ حلمت بها تدين لها بعد الحرمان والنضوب !

ولما جاءها بالطعام وجلس قريباً منها قالت : «جميل أن نأكل طعام الصباح سويّاً . . جميل أن نحيا سويّاً . .» .

والتهم طعامه بصمت ، وفكر بالدقائق المارّة ، وبدا الجزع في وجهه .

وكأنها حدست اتجاه أفكاره فقالت : «لكم أتمنى أن أمكث معك هنا ، وتكون رغبي بعيدة بُعد السماء عن الأرض ! إنني هاربة من رغبي وليس منك . . أنت تعلم هذا . . إنني أريدك ، أريد أن أبقى معك» .

«أجل !» .

«وتعدني ، هل تعدني أن تحيا معي؟» .

«أعدك ، على أن يكون هذا متى ذلّلت الصعاب» .

«سنذلّلها ، سنذلّلها ، أليس كذلك؟» .

«نعم ، سنفعل ما في الطوق» .

«لا يتسنى لنا العيش دون الاندماج واحدنا بالآخر» .

«كلاّ ، ولكن عليك أن تذهبي ، فقد حان الوقت» .

«ماذا ! أواه ، يجب أن أفارقك !» .

ومشى الاثنان في حذر ، واختار هو ممراً خفيّاً غير مطروق . ولـمّا وصلا إلى الجسر ، تركها وراء دغل مرتفع عن الأرض ، وابتعد قليلاً ، ثم رجع مسرعاً ليخبرها أن شقيقتها تنتظرها في السيارة .

وتنهّدت كوني ورمت بنفسها عليه وهي تقول :

«لقد أحببتك الليلة وأحببتني ، فلا تدع عاطفتك تزول . . لقد أحببتك وأحببتني ، فلا تنس كوني . . ابق لي . . سأرجع . . سآتي . . ابق لي لا تنسني . .» .

قال : «كلاّ ، لن أنساك !» .

وقبّلها ، وضمها إليه طويلاً .

ومضت في سبيلها ومدامعها تسيل على وجهها .

ولـمّا استقلت السيارة إلى جانب شقيقتها هيلدا ، وانحدرت بهما مسرعة في السفح . . التفتت كوني إلى الخلف ، فلم يقع بصرها عليه . . فأشرقت بعبراتها . . ونظرت ثانية . . وكانت السيارة تبتعد باستمرار وإصرار . .

وبدا لها أخيراً شبحه الصغير يتضائل باستمرار أيضاً . . وغاض ما شعرت به من سعادة ، وتراءى لها أن حياتها عادت إلى نضوبها ومرارتها !

وأرجعها صوت هيلدا إلى الحقيقة حين قالت :

«شكراً لله ، ستبتعدين عنه بعض الوقت . . ومن يعلم؟ قد تشفين ، قد تبلين من هذا المرض الوبيل» .

ولم تحر كوني جواباً
لم تدر ما تقول
لم تعلم شيئاً مما يجري حولها
لقد ذهلت عن نفسها وعن الدنيا
ولكنها ستنتبه ، ولكنها ستفيء
ولكن عينيها ستفتحان وستريان
وهكذا الحياة . . وهكذا الإنسان
وهكذا الشقاء . . وهكذا السعادة
مزيج عجيب . . انصهار فريد
وسرّ دفين لا يُسبر ولا يُخبر !

تناولت الشقيقتان طعام الغداء في فندق صغير يقع في مكان وسط من طريق لندن .

ولـمّا استقلتا السيارة وتابعتا السير ، قالت كوني تحدث شقيقتها : «لم تختبري طيلة حياتك معاني الحياة الحقة ، لم تجرّبي طعم العاطفة الفياضة والشهوة التي تنزو بالمرأة . . فمتى اقتصر اختيار المرأة على رجل واحد قلّت معرفتها !» .

فقالت هيلدا بغضب : «لا تتبجّحي بالمعرفة والخبرة ، فأنا حتى الآن لم ألق الرجل القادر على إشباع غريزتي بكماله ومهارته . . لم ألق الرجل الذي يملأُ قلبي ثقة ومحبة في خلوتي به . . هذا ما أردته وهذا ما بحثت عنه» .

وفكرت كوني في كلمات شقيقتها . . وتساءلت عن ماهية هذه الثقة ، أهي إماطة اللثام عن الخبايا والأسرار للجانب الثاني؟ إن كانت كذلك فبئس العلاقة التي لا تخلف إلاّ السأم والملل . . ولا شك أن معرفة كل شيء من قبل الطرفين المتحابين هو المرض الوبيل الذي يقضي على العلاقة الوطيدة بالانحلال !

وقالت لأختها : «إخالك يا هيلدا تفكرين كثيراً بنفسك وأنت في خلوة مع رجل !» .

قالت : «إنني على الأقل لا أملك طبيعة العبد ، ولا استخذاءه» .

«بل لعلك عبدة ، لعلك عبدة آرائك» .

وصمتت هيلدا ، ولم ترد على شقيقتها ، وقد اعتبرت كلامها وقاحة وتهجّماً .

على أنها لم تستطع كتم مشاعرها فنبرت تقول محتدة :

«إنني على الأقل لست عبدة آراء شخص آخر فيّ ، شخص آخر هو خادم زوجي !» .

وقالت كوني بهدوء : «أنت مخطئة ، فالأمر يختلف» .

كانت كوني دائماً تفسح في المجال لشقيقتها لتنفيذ مشيئتها . على أنها الآن استقلت في ناحية من نواحي قلبها ، وأضحت متحررة من سلطة النساء ! آه ! إن هذا في حدّ ذاته خلاص لها . . بل حياة جديدة : ـ أن تتحرّر من سلطة المرأة . . المرأة الجبارة الطاغية .

وشعرت بالارتياح الشديد لذهاب والدها معها إلى أوروبا ، إنه رجل لا امرأة ، وسينشرح صدرها بمصاحبته .

ووصلت الشقيقتان إلى لندن فقصدتا فندقاً صغيراً في ضاحية منعزلة . وفي المساء جاء والدهما واصطحبهما إلى دار الأوبرا .

وكان الأب يحتفظ مع تقدمه في السن بمسحة من بهاء الشباب ، بالرغم من وجله وانكماشه من الدنيا الجديدة الحديثة التي تمخضت عنها السنون .

وكان قد تزوّج امرأة أخرى تصغره وتفوقه ثراءً . وجلست كوني إلى جانبه في المقصورة ، وجعلت تلتفت فتتأمل في صدره العريض وذراعيه المفتولين ، وتفكر في المتعة المتصلة الحلقات التي جناها والدها . ولم تستطع أن تصرف نفسها عن الرثاء له لبلوغه هذه السن الكبيرة التي بدأت تحني قامته وتغضن وجهه . ولم تر في ساقيه الطويلين الضخمين تلك الحيوية المرهفة المستعدة الموجودة دائماً في ساقيّ الشاب ، والتي تضعف مع الأيام ولا تني تضعف حتى تتلاشى وتزول .

لم تحب كوني هذه المدينة الكبيرة ، فهي ترى في الوجوه فراغاً يقبض النفس . وهي تشاهد في الناس آلات لا حياة فيها ـ حياة وحيوية وعاطفة ـ كل شيء جاف ، كل شيء جامد مثلوج ، وكوني كانت امرأة تتلهّف لهفة الأعمى للضياء ، وتتلمّس السعادة كما يتلمّس الكفيف طريقه في زحمة مخيفة .

وفي پاريس رأت كوني ما خيّب أملها وجعلها تنظر إلى عروسة الدنيا نظرها إلى هيكل إنسان حطّمه الزمان وسلبه قوته . فپاريس حزينة ، پاريس رغم عبثها أكثر المدن حزناً . . پاريس ملّت العبث ، ملّت الحياة ، ملّت التكالب على المال ، ملّت الذهب ، ملّت الغرور ، ملّت كل شيء .

پاريس سئمت الحياة وتاقت إلى هدوء الموت ، ومع ذلك فإنها لم تتطبع بالطابع الأميركي أو اللندني لتستطيع أن تخفي مللها وسأمها تحت ستار من الضجة الميكانيكية الرتيبة التي لا تفتأ تملأ الدنيا حركة .

وألفت كوني نفسها تنكمش رعباً من الدنيا . كانت تنسى همّها أحياناً فتسعد قليلاً في رياض لكسنبرغ وغياض پاريس ، إلاّ أن الأجانب الوافدين إلى پاريس من أميركا وإنكلترا صبغوا الحياة فيها بلون الدولار والجنيه ، فغدت حياة تركد في النهار حتى لتكاد تموت ، وتتوهّج في الليل فتتّقد على لهيب الذهب .

كانت رحلة الشقيقتين وأبيهما ممتعة مثيرة ، إلاّ أن كوني لم تبرح تخاطب نفسها قائلة : «لماذا لا أبالي؟ لماذا لا يثيرني أمر؟ إنه لشيء مريع أن أفقد حاسة اللذة ، أن أفقد لذة المتعة ، أن أفقد متعة الحياة . . إنني الآن لا أرى الجبال الشمّ ، ولا البحيرات العذبة المياه ، ولا الجداول والغدران . . إنني مكفوفة ، عميت عيناي وماتت بصيرتي .

كلاّ ، لم تجد الحيوية المنشودة في فرنسا أو سويسرا أو التيرول أو إيطاليا . إنها سيقت إليها ، إلى هذه البلاد ، وجميعها كانت تملؤها اللاشيئية ، التي تملأ رغبي ، إن كانت اللاشيئية تملأ شيئاً !

إن رغبي الآن غيرها بالأمس ، إن فيها حقيقة ملموسة ، إن فيها حبيباً !

أمّا الناس ، فهم سواء في كل شيء تقريباً . فكلهم يسعى وراء المال ، وكلهم يحاول أن يكسب منك ما يستطيع ، وكلهم متى سافروا سائحين ، يبحثون عن المتعة وكأنهم يستنزفون الدم من حجر .

فيا للجبل الذي توجته الطبيعة بسحرها ، ويا للمناظر الرائعة التي أضفت عليها الطبيعة رواءها ، إنها جميعاً قد عصرت واعتصرت لكي تتيح اللذة والمتعة .

«كلاّ . .» قالت كوني لنفسها . . «أفضل أن أكون في رغبي حتى لا أعاني ما أعانيه الآن من مشقة البحث عن المتعة واللذة !» .

وودّت لو رجعت أدراجها ، حتى ولو كان ذلك إلى رغبي نفسها ، إلى منزلها ، إلى كلفورد ، إلى المشلول الذي لا ينفع !

إن كلفورد ليس بالأبله المخبول ، بل هو أعقل بكثير من هؤلاء الرجال المتجوّلين المتسكعين بحثاً عن اللذة . . عن المتعة . .

ولكنها في قرارتها ، في أعماقها ، في ضميرها الباطن ، كانت تحتفظ بصلتها الوثيقة بالرجل الآخر . فلا ينبغي عليها ، إذاً أن تفلت الخيط من يدها ، لا ينبغي عليها أن تفصم الرابطة ، لأنها إن فعلت خسرت نفسها ، وخسرت كل شيء لها في الحياة .

وقصدوا البندقية في ساعات بعد الظهر . وكان النهار مشرقاً والهواء بليلاً .

واستقلوا الجندول وأمروا صاحبه أن يأخذهم إلى (دارة إزمرالدا) .

وجذّف الرجل فانساب مركبه بين البيوت القديمة ، حيث كانت قطع الغسيل تتهادى فوق رؤوسهم ، وحيث فاحت من هذه الدور المتداعية روائح النفايات والأقذار .

على أنه خلص بهم إلى قناة عريضة تحف بها من الجانبين بساتين يَنعَت فيها الأشجار والأزهار . ووصل المركب بهم إلى ڤيلا إزمرالدا أخَيراً ، فسألهم الرجل عن عدد الأيام التي ينوون أن يقضوها في هذا المكان ، ولـمّا أخبروه بأنهم يزمعون أن يمكثوا فيه عشرين يوماً أعرب عن استعداده لملازمتهم وخدمتهم بمركبه طيلة المدة .

فوافقوا بعد لأي ومساومة على أن يقدم الرجل إلى الڤيلا في صباح اليوم التالي .

وصعدوا إلى المنزل وكان يقطنه رجل اسكتلندي جمع ثروة طائلة في إيطاليا قبل الحرب ومنح وسام الاستحقاق ، فقرّر البقاء والعيش في هذه البلاد ، أمّا زوجته فكانت امرأة صفراء الوجه ، نحيلة العود ، فقيرة لا تملك إلاّ هموم زوجها وما تعقبه مغامراته الغرامية من حسرات تنغص حياتها .

وكان البيت آهلاً بالضيوف ، فبجانب الشقيقتين وأبيهما نزل فيه سبعة أشخاص ، أربعة منهم من اسكتلندا ، وكونتس إيطالية ترمّلت منذ حين ، وأمير من جورجيا ، وقس إنكليزي صغير السن .

أمّا الأمير فكان صفر اليدين ، إلاّ أن نظراته شفعت له في كثير من الأحيان . وكانت الكونتس تحاول دائماً أن تضفي على شخصها هالة النبل والأرستقراطية ، بيد أنها كانت لعوباً يفتنها العبث والمتعة . وعلى عكسها كان القس الشاب ، فهو طيب القلب سليم النية لا يعرف من

حياته إلاّ ما يعرفه حدث بريء . وكان متزوجاً وقد بنى على امرأته رضوخاً لأمر رئيسه . وأثمر زواجه طفلين جميلين . ولم يكن قد صحب عائلته الصغيرة إلى هذا المكان . وأخيراً ، كانت العائلة الاسكتلندية المؤلفة من أربعة أشخاص ، من العائلات المتوسطة في كل شيء ، يقبل أفرادها على اللهو بقلوب عامرة بالسعادة ، ولا يتورعون عن لذة يقطفونها ما دام ذلك لا يكبدهم خسارة تذكر .

وأمّا صاحب الدار وزوجته فقد ظهرا بمظهر الزوجين المتفقين ، مع أنهما في الحقيقة كانا يتربّصان الواحد للآخر الدوائر ، فهي تتعقب حركاته وترقب أعماله ، وتصغي إلى كلماته ، ولا تغمض عينها عن هيلدا وكوني ، وهو كان لا يعدم الفرص التي يزوغ فيها من الرقابة الدقيقة .

كان رب البيت يعتقد أنه رب البيت حقاً ، ولكنها كانت كل شيء في البيت ، كانت تفرض إرادتها بنعومة ودهاء متظاهرة بأن الإرادة هي إرادة زوجها .

وشغل والد كوني نفسه بعد مجيئهم إلى الڤيلا بالرسم ، بينما تظاهرت ربة البيت بتعلقها بالفن وبميلها إلى الموسيقى والغناء والرسم .

وأيقنت الشقيقتان أن الضيوف وصاحبي البيت جماعة لا يلذ لهما الاختلاط بهم ومعاشرتهم ، بيد أنهما لم يعبأا بهذه الحقيقة وطفقا يغادران المكان فيقضيان سحابة نهارهما في الخارج . كما أنهما كانا يذهبان مع والدهما في ليال كثيرة إلى مسارح اللهو والرقص والتمثيل . فالمكان وما يجاوره وكل شيء حوله ، كان معداً للوافدين من وراء البحار ، ليزجوا فيه وقتاً طيباً . ففي الليل كانت الملاعب

المختلفة تعرض ألعابها ، وأحواض السباحة التي تنعكس عليها الأضواء تقيم المباريات ، والأندية المتوهجة بالأنوار الملونة الساطعة تحيي حفلاتها الصاخبة .

وكان الغرباء يعدون بالألوف ، وكانت الطرق المائية تعج بمن يمر فيها وتضيق بالمراكب التي تمخر أمواهها .

كانت لغة الكلام عشرات اللغات ، وكان الخدم يعدون بالمئات ، وكانت شمس ساطعة ، ودفء ، وروائح عبقة ، منها الزكي ومنها الفاسد .

وجالت الشقيقتان في كل مكان ، وتمتعتا بكل شيء . وصادفتا ميخائيل ، فهرع ساعة رآهما إليهما وقال ووجهه يطفح بشراً :

«هذه سعادة ! أين كنتما؟ ومتى جئتما؟ وفي أي مكان تنزلان؟» .

ودعاهما إلى مقهى مائي في مركب ، فلبتا الدعوة وقضتا معه ساعة .

كل شيء جميل ، كل شيء كان يوحي بالسعادة والهناء وراحة البال .

إلاّ أن كل شيء رغم وفرته كان ، كما شعرت الشقيقتان ، أشبه بمخدر يشل الإحساس ويميت الألم ، وهذا ما أرادته كوني ، وهذا ما نشدته هيلدا لها ولشقيقتها ، وما جاءت من أجله ، هي وشقيقتها .

*

طلبت هيلدا وكوني هذه المتعة فنالتا ما طلبتا ، وها هما الآن تحظيان بذلك المخدر المرغوب ـ الشمس المحرقة ، والموسيقى الصاخبة ، والمياه المنسابة ببطء ، والسجائر ، والويسكي ، والكوكتيل ـ كلها يخدر

الجسم والإحساس والعاطفة . . كلها مخدر ، وكل متعة هي بمثابة المخدر !

والنساء يتعشقن التأمل في النساء ، وهيلدا كان يطيب لها الشخوص من مائدة في مقهى إلى غيرها من النساء لترى ملابسهن ولتقارن بين جمال واحدة وأخرى ؛ ولتحكم على ذوقهنّ من الرجال الذين يكونون في رفقتهن ، ولتكتشف الشيء الذي يحوز أكثر من غيره اهتمامهنّ ـ أمّا الرجال فكانت تنظر إليهم نظرها إلى كلاب كبيرة تتلفّع بسراويل بيضاء ، وتنتظر أن تقبل عليهم النساء ، وأن تلصق بهم النساء في رقصة في حلقة على نغمة من موسيقى .

وأحبت هيلدا الموسيقى الراقصة لأنها بها تستطيع أن تلصق جسدها بجسد مخلوق يسمى رجلاً ، فتفوّض إليه أمرها ، وتجعله يتحكم بحركتها في حلبة الرقص . . ثم لأنها تستطيع أن تنشق عنه وتبتعد ، وأن تتجاهل (المخلوق) !

كانت ترى أنها لم ترتكب خطأ ، فقد استغلته ـ المخلوق ـ لمنفعتها ومتعتها ، ثم لفظته كما نلفظ عادة نواة مشمشة .

بيد أن كوني كانت مسكينة . . فهي لا تستطيع أن ترقص لأنها لا تستطيع أن تلصق جسدها بجسد مخلوق من الرجال . واشمأزت من الفتيات العاريات اللواتي يرقصن في الكباريهات ، واشمأزت كذلك من المضيف وزوجته ، ولم تشأ أن ترى ميخائيل ، ولم تشأ أن ترى غير ميخائيل من الرجال .

وأكبر متعها كان رحلة بعيدة في القارب مع شقيقتها ، ووحدة كلية في نقطة نائية تخلع فيها الشقيقتان ملابسهما ، وتنزلان إلى الماء دون خوف أو وجل .

وكان صاحب الجندول رجلاً محبّاً مخلصاً ، لا يدخر وسعاً في خدمة الشقيقتين . . وكان كسائر الإيطاليين يحترم الغريب ويحرص على راحته . . وهم فوق ذلك ، أي الإيطاليين ، أناس لهم إحساس مرهف وعاطفة مشبوبة ، إلاّ أن مشاعرهم هذه لا تدوم إلاّ ساعة واحدة !

وهكذا أخلص الرجل لسيدتيه كما أخلص لكل سيدة خدم من قبل ـ إنها عاطفة ساعة . . ألم نقل ذلك؟

وكان أيضاً على قدم الاستعداد ، في كل حين ، ليهيئ لهما فرص المتعة الجنسية مع أي رجل يصادف استحسانهما . وقد تمنى على الله أن ينشدا مساعدته هذه ، وأن يستعينا به في إشباع شهوتهما .

ولـمّا أمرتاه أن يأخذهما إلى تلك الأمكنة المنعزلة ، أيقن أنهما يبغيان مغامرة غرامية . .

وقد صحب معه مساعداً له ، فالمسافة طويلة متعبة ، والتيار في بعض المواقع قوي جارف .

وكان قويّاً ، وكان صديقه شابّاً وسيماً . وسوّلت له نفسه أمراً ، وتراءى له أن الفتاتين الجميلتين سترضخان له ولصديقه أخيراً . . فمن يعلم؟ قد لا تكونان على ميعاد ، وقد تهيج عاطفتهما ، فتعملان على إطفاء نارها وهم في الجندول المتهادي على صفحة الماء !

كان دانيال ـ اسم الفتى ـ وسيماً كما قلنا ، وكان مديد القامة مفتول العضل ، له بالأسد بعض الشبه ، وكان صموتاً على عكس صديقه ، يجذف بصمت ، ولا يتكلم إلاّ متى سئل . ولم يلتفت إلى السيدتين ، بل إنه لم يشعر بوجودهما . وكان ينظر إلى بعيد ، ويحدق في الماء ، ثم في السماء بطرفه الثاقب الجميل .

كان رجلاً لم تهدمه الموبقة كما هدمت زميله ، كان رجلاً بعيداً عن الخمر بخلاف صديقه . . كان أشبه بـ«ملورد» في سكوته وعبوسه .

ورثت كوني في نفسها لزوجة صاحب الجندول ، فهو سكير عربيد ثرثار ، إلاّ أن زوجة دانيال ، إن كان ذا زوجة ، لا بد أن تكون سعيدة به ، فخورة برجولته وصفاء نفسه وابتعاده عن الراح والفجور ، وهي ولا غرو ـ إن كان متزوجاً ـ فتاة شهية من فتيات البندقية المهفهفات ذوات الحسن والرواء . . غضة بضة كزهرة في صباح يوم رائق .

آه . . ما أشقى الإنسان وأتعسه ! كيف يتبع الرجل المرأة فيعبث بها ، ثم كيف تلاحق المرأة الرجل فتعصف بأخلاق الرجولة في نفسه !

وصاحب الجندول كان من أولئك الرجال الذين بكروا في ملاحقة المرأة ، فلمّا دان له التوفيق ونال ما اشتهى ، واكتفى وقنع ، أصبح كالكلب مستعداً أن يهب نفسه لأي امرأة ، ولقاء أي مبلغ !

وأرسلت كوني بصرها على سجيته يرود أبنية المدينة التي ابتعدت عنها قليلاً ، وفكّرت فيها وفي الذي فيها ـ كل شيء فيها أسس على الذهب ـ الدور والقصور ، الازدهار والأفول ، الحياة والموت ـ كلها ، تتعلق بالذهب ـ جنون الذهب ! المال ، المال ، المال ، والتهتك والاستهتار ـ كله من أجل الذهب .

وحولت رأسها إلى دانيال وناجت نفسها وهي ترنو إليه بإعجاب :

«وهذا رجل ! رجل قادر على إشباع الرغبة بحرية وكرامة ، ودون أن يفكر بالمال وبابتزاز المال ! إنه لم يرتد ما تلفّع به صديقه ، إنه يضع على صدره قميصاً شفافاً محسوراً تحت العنق وفوق الذراعين» .

ورجعت كوني وهيلدا إلى البيت . . وأعادتنا الكرة فذهبتا إلى تلك الجهة في اليوم التالي .

وعاشت كوني في أضغاث من الحياة ، عاشت في حلم من اليقظة ، عاشت في ضياء منبثق من الجندول ، والملوحة المتلاطمة على حفافي الجندول ، وفي فراغ لا نهاية له ـ في فراغ من اللاشيئية . . لقد رجعت إليها تلك اللاشيئية !

وكتب إليها كلفورد كل يوم ، كتب رسائل رائعة جديرة بالنشر ، ولهذا السبب وجدت كوني أن رسائله لا تستحق عناية كبيرة !

فما السبب يا ترى في انقلاب الأمور ظهراً لبطن في تفكيرها وآرائها؟

ولكنها رغم لاشيئيتها ، كانت تلمس الحقيقة لمسة المشاعر ، أي لمسة الخيال . . كما أنها كانت تلمس هذه الحقيقة لمسة المادة ، أي لمسة الحركة التي كانت تشعر بها في أحشائها . . لقد حملت ، وها هو الجنين يتململ كل يوم فيذكرها بوجوده ، ويذكرها بوجودها ، ويذكرها أيضاً بأن لاشيئيتها وهم لا أساس له !

وقرّت عينها ، وتحسنت صحتها ، فتألق النور في محياها ، وشعّت الحياة من ناظريها ـ إنها قوية ، وقوتها استمدتها من ذلك الشيء النامي باستمرار في أحشائها .

ومضى عليهم أسبوعان وهم في البندقية ، وعزموا أن يمكثوا فيها عشرة أيام أخرى .

وجاءها كتاب ثان من زوجها صدمها صدمة قاسية . . فقد كتب كلفورد يقول :

« . . . ونحن هنا جرى بيننا ما أثار انفعالنا واهتمامنا . . ويبدو أن زوجة ملورد ، التي هجرته غير آسفة ، قد فاءت إلى نفسها ورجعت إليه فلم يستقبلها بالترحاب بل طردها وأغلق باب كوخه . بيد أنه لدى أوبته من الغابة بعد ساعة وجد امرأته تحتل فراشه ، ولـمّا لم تنفع معها حيلة ، حمل أمتعته وقصد بيت والدته في القرية . أمّا المرأة فلا تزال مقيمة في الكوخ ولا تزمع الرحيل ، لأنه حسب رأيها بيتها الشرعي ، وقد أكّدت لي الممرضة بولتون أنك لن تطأي بقدميك أرض الغابة ثانية إن مكثت هذه المرأة الوقاح في كوخ زوجها !

«أعجبني يا عزيزتي وصفك للسير مالكولم مضيفك ، وهو يتهادى بلباس البحر إلى البحر ، والريح يعبث بشعره الأبيض ، وجلده يتألق تحت أشعة الشمس المحرقة . إنني أغبطك على هذه الشمس التي لا تغيب ، فهنا السماء ممطرة والهواء بارد والرطوبة كثيفة» .

وأثرت هذه الأخبار في كوني تأثيراً سيئاً ، فهي الآن ستواجه أفدح خطر بوجود هذه المرأة . إنها لم تحظ بأي كتاب من عشيقها ، لقد اتفقا على عدم المكاتبة خيفة تسرب سرهما إلى أحد . ولكنها تلهّفت الآن إلى معرفة أخباره منه . ومهما يكن الأمر فهو أبو الطفل الذي لا يزال جنيناً ؛ وله عليها حق الزوج ، ولها عليه حق الزوجة ، فليكتب إذاً وليطلعها على الأخبار الصحيحة !

ما أكره ما سمعت ! كيف اختلط كل شيء هناك وتعقّد؟ كيف سفّت نفوس هؤلاء فما ظل لديهم ما يشغلهم إلاّ صغيرات الأمور؟ كل شيء هناك أمسى في رأيها ونظرها مقيتاً ـ السير كلفورد ، وزوجة ملورد ، والممرضة والكوخ ـ حتى الكوخ ، وكر حبّها ، أمسى مقيتاً كريهاً لحلول هذه المرأة فيه !

لم تذكر شيئاً لشقيقتها عن الجنين المتكوّن في أحشائها . . وكتبت إلى الممرضة كتاباً رقيقاً تطلب إليها فيه أن تزوّدها بالأخبار الأخيرة .

وجاءها الرد ، فإذا فيه :

«ستسرين يا سيدتي متى علمت أن السير كلفورد يتمتع بأحسن صحة ويعمل بنشاط ومثابرة . . وهو يحصي الأيام والساعات التي تفصل بينكما . . ولا شك أنه محق في شوقه ، فالبيت دونك قفر لا حياة فيه ، ونحن جميعاً نتشوف الأبصار إلى اليوم الذي ترجعين فيه سليمة جميلة طيبة .

«لا أعلم مقدار ما قصه عليك السير كلفورد من أنباء حارس الصيد ، إلاّ أن زوجة الرجل دهمت كوخه على حين غرة وأصرّت على البقاء مع زوجها الشرعي ، كما أنها حذرته من مغبة السعي إلى طلاقها . وقد عرض عليها مالاً كثيراً ، ولكنها رفضت المال وأصرّت على البقاء ، ولم يجد الرجل مندوحة في نهاية الأمر من الرحيل واللجوء إلى القرية . وهو الآن ينام في منزل أمه ، ويبكّر في الصباح إلى مكان عمله . وقد جاهرت المرأة برأيها في زوجها ، وأعلنت على رؤوس الأشهاد أنه يستقبل النساء في كوخه ، ودليلها على زعمها قارورة عطر نادر لامرأة عاشقة !

«كما أن ساعي البريد أفضى إليها وإلى سواها من النساء الثرثارات بأنه سمع صوت امرأة في صباح أحد الأيام في كوخه ، وأنه رأى سيارة صغيرة على مقربة من الجسر . . فيا للغز ! وهل أصدق؟ هل حقاً يجنح ملورد إلى العبث؟

«ولـمّا غافلها ملورد وأخذ أمتعته من الكوخ ، انتقلت زوجته إلى بيت قريب ، ثم لجأت إلى محام وفوضته بأن يقاضي زوجها ويرغمه

على إعالتها . إنها مخيفة ، هذه المرأة ! إنها لا تفتأ تصم زوجها بالنقائص وتعيره بالهمجية ، وتروي حكايات غريبة عن قسوته وحيوانيته . ويا ويل الرجل متى انطلق لسان امرأة بالقدح والتشهير ! ومهما كانت تلك المرأة وضيعة في خلقها ، فلن تعدم الأشخاص الذين يصدقون ويشفقون .

«إنها مجنونة ، وجنونها خطر شديد ، ومثلها لا يتورّع عن ارتكاب الجرائم متى صمم على بلوغ وطر» .

وكان في الكتاب تلميح إلى اقتناع الممرضة بشذوذ الرجل . وتذكّرت كوني ، وهي تقرأ الكتاب ، ما كان يبديه أحياناً ، وما كانت تمض به عيناه ، فارتجفت وتولتها قشعريرة باردة .

ونقمت على نفسها . . فما لها ولركوب متن الشطط؟ ما لها وللشهوة الرعناء التي جرتها إلى هذا الدرك؟ وها هي الآن تجني ثمرات نزقها وطيشها . ها هي ترتجف هلعاً كلّما تخيلت الفضيحة الكبرى ، ساعة يلمّ بسرها إنسان آخر غير شقيقتها .

وخافت أن يعرف كلفورد ، خافت من المجتمع ، خافت من كل إنسان ـ فالرجل خادم وهي نبيلة . . والرجل من الطبقة الدنيا وهو أبو ابنها . . فيا للعار ! ألا يجدر بها أن تتخلص من الجنين؟ من ابن خادم زوجها؟

ووقعت في حيص بيص وأخذت تضرب أخماساً لأسداس ،شأن من غدر ثم عاد عليه الغدر بأوخم العواقب . ورأت نفسها تفضي ببعض سرها إلى دنكان فوربز الفنان الذي تعرفه وتثق به . لم تقل له إنها عشيقة حارس الصيد ، لم تقل إن في أحشائها ثمرة لن تعتم أن تتفتح أكمامها ، ولكنها قالت إنها مالت إلى الرجل وارتاحت إليه .

وأجابها المؤتمن على سرها بقوله :

«سوف ترين ؛ لن يرتاح لهم بال ويهدأ قرار قبل أن يطرحوا به إلى الحضيض . فهم لن يتيحوا لك أن تنزلي عن مرتبتك ، وهم لن يجيزوا له أن يرقى إليك فيعبر تلك الأرض الحرام التي تفصل بين طبقته وطبقتك .

*

وأقدمت كوني على أعظم حماقة فكتبت إلى الممرضة بولتون كتاباً ، ضمنته رقعة مختومة إلى حارس الصيد ، قالت له فيها :

«لقد آذاني الخبر ، فقلقت وحزنت . ، بيد أني أهيب بك أن لا تضعف أو تستسلم ، إن امرأتك كما أظن مخبولة تصيبها نوبات من الجنون ، وأخال أن المياه ستعود إلى مجاريها بالسرعة نفسها التي انحرفت فيها إلى اتجاه معاكس . اصمد في وجه كل خطب وسأكون في رغبي بعد عشرة أيام ، وأتمنى أن أجد المكان كما خلفته ورائي يوم رحيلي» .

وجاءها كتاب من زوجها بعض بضعة أيام يقول لها فيه :

«سرني نبأ إزماعك على مغادرة البندقية في السادس عشر . ولكن ، إن كنت ترفلين بالصحة الجيدة ، وتتمتعين بالسعادة ، فلك أن تبقي أياماً أخرى . إننا نفتقدك كثيراً ، ورغبي نفسها تشتاق إليك ، إلاّ أنه من الضروري لك أن تظفري بأكبر قدر مستطاع من أشعة الشمس ـ أشعة الشمس والبيجاما الحرير ـ بحسب دعاية ملهى الليدو في البندقية ! فامكثي إذاً أياماً أخرى وسلحي جسدك للشتاء المقبل !

«إن الممرضة بولتون امرأة مثالية ، وهي تشرف على خدمتي بدقة

وتفان . وقد زال عجبي مما كنت أسمعه من نشاط الإنسان ، فهي والحقّ يقال ذات عشرين ذراعاً وساقاً !

«وفضيحة حارس الصيد تتطور بسرعة مثيرة . . إنها تتضخم مع مرور الوقت ، كما تتضخم كرة ثلجية تتدحرج باستمرار . . وتحرص الممرضة على إطلاعي على ملابسات ودقائق المسألة . . وهي تومئ من طرف خفي إلى شائعات لغط بها الناس وتهامسوا . . . وهي كما اكتشفت ، امرأة تعتبر أخبار الناس وحوادثهم كالهواء لها وكالماء ! إنها متحمسة لمعرفة كل شيء ، ولو سمحت لها وشجعتها لغاصت في قعر هذه الحوادث ، وجاءتني بكل خفاياها وحقائقها . . واحتقارها منصب على شخصية الزوجة التي رجعت عنوة ، وعادت وأنف زوجها راغم . . ويخيل إلي أحياناً أن ما تظهره ما هو إلاّ دور تمثله ببراعة وإتقان على مسرح الحياة .

«ويتراءى لي أن الدنيا التي تبدو كأنها سطح كل شيء ، هي في الحقيقة قاع محيط عميق ، وجميع أشجارنا غواصات نامية ، ونحن كائنات طفيلية نعيش على السقط والزوائد والبراغيث ، مع هذه الغواصات الغاطسة في قاع المحيط . . . ولكن الروح أحياناً تطفو محاولة الخلاص ، وعندما تطفو وتبقى على صفحة اليمّ يضاء ما حولها ، فترى النور الحقيقي . . وعند ذلك يلمس المرء طبيعته الأزلية . .

«وكلّما تكلمت الممرضة بولتون خُيّل إليَّ كأني أغطس إلى غور سحيق متناهي العمق ، حيث تعبث وتسبح سمكات الأسرار البشرية . . . إنني أغطس إلى هذا العمق كلما اجتمعت إليها

واستمعت إلى كلماتها ، أمّا معك أنت ، فأنا أطفو سريعاً لأني أجد فيك سرّ السماء . . .

«وأخشى ما أخشاه يا عزيزتي أن نفقد حارس صيدنا كنتيجة طبيعية لفضيحته ، فقصته آخذة بالانتشار والاستفحال ، وهو متهم الآن بكل نقيصة يمكن أن يتهم بها رجل . والعجيب في الأمر أن امرأته ظفرت بتأييد نساء القرية كافة ، حتى انقلبت القرية إلى خلية نحل تطن ليل نهار !

«إنها تنفث سمومها في كل مكان ، وقد أماطت اللثام للجميع عن أسرار زوجها إبان عيشهما معاً ، حتى تندّر القوم بقصصها وقصص زوجها ، وحتى طفقوا يعيرون الزوج بما يستحق وبما لا يستحق !

«والجميع يسمعون بإقبال . . منذ عشر سنوات كان الخلق القويم يخنق الشائعات الشائنة في مهدها . . أما وقد تلاشت الآداب في هذا العصر ، فأصبح للشائعة أخصب مرتع . . ولا يسع المرء الغريب متى استوعب ما يقال عن القرية وحارس الصيد ، إلاّ أن يرى في أهل القرية ـ أناساً طيبين ، وفي كل فرد منهم شخصاً جليلاً ، وأن يرى فيه ـ في حارس الصيد المسكين ـ مجرماً رهيباً يتحفز لنشب مخالبه في كل إنسان يعترض سبيله !

«وثالثة الأثافي ما اكتشفته المرأة من علاقة زوجها بالنساء . . وقد جاهرت بما رأت ، وأعلنته على رؤوس الأشهاد . . ولم يقتصر الأمر على هذا المقدار ، بل إنها ذكرت بعض الأسماء البعيدة عن الشبهة والمظنة ، ما اضطرني إلى اتخاذ الإجراءات التي تمسّ إليها الحاجة . . كما أني أرسلت في طلب ملورد واستجوبته وسألته .

«وقد أظهر الرجل الرابط الجأش قلة المبالاة ، ولا أدري هل هو لا

يعبأ حقّاً بالأراجيف والتخرصات ، أم إنه داهية أريب يتحلى بالشجاعة ، ويتذرّع بالأناة والصبر؟

«ولكن النساء في القرية يستدعين أطفالهن حذراً منه كلما مرّ ، كما لو كان شيطاناً رجيماً ، ومع ذلك فهو لا يحفلهنّ جميعاً ، ويكاد لا يشعر بوجودهنّ!

«وسألته إن كان يزمع الاستمرار في عمله في الغابة ، فأجاب أنه لم يهمل في واجبه . فقلت ، إن من السخف ترك المرأة وشأنها دون زجرها وقمع قحتها ، فردّ بأنه لا يملك صلاحية تنفيذ القانون! ثم أشرت من طرف خفي إلى الفضيحة ومجراها البشع ، فقال : ـ تبّاً لهم! إن مثالبهم أكثر من أن تُحصى ، ولهذا نجدهم يخفون عيوبهم تحت أنقاض سمعة سواهم من الناس!

«ونطق كلامه هذا بمرارة وألم . ولا جرم أن كلامه انطوى على الحقيقة . ثم سألته عن مدى صحة ما يشاع عن استقباله للنساء في كوخه :

«وقد أجاب هادئاً : ـ وماذا يعنيك من هذا الأمر؟» .

«فقلت : ـ إنني أرغب في أن تُراعى أصول الشرف في بيتي وغابتي .

«فأجاب : ـ إذاً يخلق بك يا سير كلفورد أن تحكم إقفال هذه الأفواه المثرثرة .

«وسألته إن كان من السهل عليه أن يجد عملاً آخر في غير هذا المكان .

«فأجاب : ـ إن كنت تود أن تعرف رد الفعل الذي يسفر عنه إقصائي وطردي ، فثق أنه سيان عندي بقائي وذهابي! .

«وهكذا اكتشفت أن الرجل غير متعب كما خيل إلي في بادئ الأمر ، وهو يزمع أن يغادرنا في نهاية الأسبوع المقبل ، بعد أن يدرّب حارس الصيد الجديد (جو) على أعماله .

«ولـمّا أخبرته أني سأنقده مرتب شهر إضافيّاً ، أجاب بأنه يفضل لو استبقيت المال واستعملته في شأن آخر من شؤوني ، لأنه أخذ استحقاقه وافياً غير منقوص ولا يطمع في الحسنة .

«سيذهب إذاً حارس الصيد ، ولن يبطئ المكان أن يرجع إلى سابق هدوئه واستتبابه . . وإن شئت أن تطيلي مكثك في البندقية ، أو أن تغادريها إلى سويسرا ، فافعلي ذلك ولا ترجعي قبل شهر آب ـ فسعادتك سعادة لي» .

*

كان لكتاب كلفورد وقع سيئ على إحساس كوني ، فهو خالٍ من العاطفة ، حافل بالتهكم والسخرية والانفعال . ولكنها استطاعتْ أن تفهم المعاني التي رمى إليها زوجها ـ أي أن تفهم ما بين السطور ـ عندما وصلتها رسالة حبيبها حارس الصيد ، ملورد ، فقد قال الرجل في كتابه :

«تناهى إليك ولا غرو أخبار زوجتي ورجوعها إلى ذراعيّ غير المرحبتين ! وذريني أجنح إلى قلة الذوق بتعبيري ووصفي ـ لقد اشتمت المرأة رائحة جرذ في قارورة عطر ! ولم تعثر على إثبات آخر اللهم إلاّ رسماً محروقاً وقدحاً في طرفه آثار امرأة ـ أحمر الشفة ـ بيد أنها لم تحدس شيئاً يضيء لها طريقها . ولكني طردتها لترجع في غيبتي ، فتواصل ما قطعته من البحث والتفتيش ، ولتعثر على كتاب خط عليه اسمك . وما أسرع ما طفقت تجول في القرية ، وتجوس

خلال دورها وهي تقول غير متورعة ولا متخوفة ، إن مزاحمتي في قلب زوجي امرأة لا تقل مكانة ومركزاً عن الليدي تشاترلي نفسها ! ووصلت الكلمات السامة إلى مسمعيّ السير كلفورد ، فاتخذ بعض الإجراءات القانونية الرادعة لتخويفها وإفزاعها .

«وطلب السير كلفورد أن يراني ، فلمّا مثلت بين يديه حدثني حديثاً عادياً بلهجة جافة . ثم تساءل فجأة إن كنت أعلم أن اسم زوجته قد زج به في موضوعي ومسألتي . فأجبت أني أصم أذني عن الهذر والترهات ، وأن ما أسمعه الآن منه يثير دهشتي وتعجبي . فأخبرني أن ما سمعه يعتبره إهانة عظيمة توجه إليه وإليك أنت . فقلت إني أحتفظ في كوخي بصورة الملكة ماري ولا شك أن الملكة ماري هي محظية من جملة النساء اللواتي أحتفظ بهنّ في حريمي ! ولكنه نظر إليّ شزراً ولم يرتح إلى فكاهتي .

«وكأنه طيلة مقابلتي له كان يقول لي صراحة بأني خُلقٌ معيب أتجول في كل مكان بأزرار مفتّحة ! وكنت أنا أيضاً طيلة تلك المقابلة أقول له بنظرتي وإيماءتي إني أعتبره أحط مني وأدنى !

«سأمكث هنا إلى يوم السبت ولن أقفل راجعاً إلى الغابة ، ثم أقصد لندن فأذهب إلى غرفتي القديمة في حي كوبي رقم ١٧» .

*

واحتقرت كوني الكتاب وكاتبه لأنه لم يذكرها في كتابه ، ولأنه لم يشجّعها ويحثّها على الصمود في وجه العاصفة التي تنتظرها . ولكنها علمت أنه يتعمّد إطلاق الحرية لها للرجوع إلى زوجها في رغبي . وقد اشمأزت من إغضائه المتعمد أيضاً ، فليس من الضروري أن يتكلف الشهامة تكلُّفاً . وودّت لو صاح في وجه زوجها :

«أجل إنها عشيقتي وخليلتي ومحظيتي . . وإني لفخور بهذا !» .

ولكن شجاعته على ما يظهر خانته فلم ترتفع به إلى هذا العلو .

وهاج غضبها ، واحتارت في أمرها ، ولم تدر ما تقول وما تفعل ، ولهذا لم تقل شيئاً أو تفعل شيئاً .

واستمرت في حياتها تعيش عيشتها ، فتركب الجندول ، وتسبح ، ولا ترى في الدنيا ما يستحق الاهتمام . واستمرت تعيش على وتيرة واحدة ، وتبتعد عن الرجال ، وتنفر مما يأخذ الناس به أنفسهم ، وكأنها من طينة مغايرة ، وكأن ما أصابها بدّلها وقلب حياتها رأساً على عقب !

كان عليها أن تقرر الخطة التي تنهجها . . ولا مناص لها إذاً من مغادرة البندقية يوم السبت ما دام حبيبها قد أزمع على الانطلاق من رغبي في غضون ستة أيام .

ويتسنى لها في ستة أيام أن تصل لندن ، حيث تقابله وتتفق معه على كل شيء .

وكتبت له خطاباً تطلب إليه فيه أن يوجه إليها بالبريد كلمة إلى فندق (هارتلاند) في لندن ، وأن يعرج عليها هناك في مساء الاثنين بعد سبعة أيام .

وكانت الثورة مندلعة اللهيب في أعماقها ، فكتمت كل شيء عن هيلدا . وأغاظ هذا السكوت هيلدا فانقطعت عن أختها وجعلت تجتمع بصورة دائمة إلى امرأة أخرى .

ولما أفضتا إلى أبيهما برغبتهما في العودة ، اتفقوا على أن يسافر مع كوني ، وأن تتبعهما هيلدا بعد أيام .

وتمّ ذلك ، وأحاط الرجل ابنته بكل آيات الحنان والمحبة ، وبذل وسعه للترفيه عنها وتخفيف كربها وكآبتها .

وقال لها يوماً في معرض الحديث : «لا ألومك على استسلامك للحزن يا كوني ، فأنت في طريق العودة إلى رغبي !» .

فقالت دون أن تنظر إليه ، ودون أن تتحرك : «من يعلم؟ قد لا أرجع إلى رغبي !» .

وكانا في طريقهما في تلك الساعة إلى باريس . . فنظر إليها بعينيه

الزرقاوين الكبيرتين في وجل وتحسّب ، وبادلته هي نظرته بعينيها الزرقاوين اللتين اشتقتا من عينيه ، وتحدته بنظرتها فأغمض قليلاً ، وفكّر يسيراً ، ثم قال :

«وهل تزمعين البقاء في باريس؟» .

قالت : «أزمع أن لا أعود إلى رغبي !» .

وكان الرجل ينوء تحت ثقل مشاكله ، ويرغب من كل قلبه أن لا تضيف ابنته أعباء أخرى إلى أعبائه ، ولهذا فإنه تساءل بصوت ينضح بالخوف والجزع :

«وكيف قررت بمثل هذه السرعة؟ كيف؟» .

«لأني سأضع طفلاً !» .

وكانت هذه أول مرة اعترفت فيها كوني لأي مخلوق غير شقيقتها بسرّها .

وحدجها والدها بنظرة ثاقبة صارمة وقال متسائلاً :

«وكيف عرفت ذلك؟» .

وافتر ثغرها عن ابتسامة وضيئة .

وتمالك الرجل رباطة جأشه وقال :

«على أنه لن يكون ابن كلفورد !» .

«كلاّ ، بل ابن رجل آخر !» .

وبدا كأنها تمتّعت بتعذيب والدها .

وقال : «وهل أعرف الرجل؟» .

«كلاّ لم يقع عليه بصرك قط» .

وصمتت ، ولم يتكلم ، ومضت بضع دقائق قال هو على أثرها :

«وما هي خطتك للمستقبل؟» .

«لا أدري ، وهذا ما يزعجني ويكدرني» .

«وكيف تُرى يتقبل كلفورد النبأ؟» .

«لا أدري ، ولكني أظن أنه قادر على تقبّل الأمر الواقع ، واعلم أنه أفضى إليّ عقب مقابلتك الأخيرة له بأنه لا يكترث كثيراً إن أنجبت طفلاً من غيره ما دمت حريصة على كتمان السر» .

«وهذا هو المعقول في مثل ظروفه ، فلا تثريب إذاً على ما ارتكبت أو ما سترتكبين» .

«أراك قد بدّلت رأيك ونظرتك !» .

«إنه ولا شك فكر بوارث ، وهو وأيم الله لا يلام على مثل هذا الفكر ، فرغبي في مسيس الحَاجة إلى وارث يصونها لعائلة تشاترلي» .

وابتسم الرجل ابتسامة ذات معان ، وقد تكون ابتسامته جوفاء خلواً من كل معنى !

وقالت وهي تطرق قليلاً : «بيد أني قد أنفر من الفكرة ، فلا أهبه وليدي !» .

«ولم لا؟ أتشعرين بأنك تؤذين الرجل الآخر بتصرفك هذا؟ فاسمعي إذاً ، ذريني أميط لك اللثام عن الحقيقة الناصعة يا بنيتي . . إن الدنيا باقية ، والوجود دائم ، ورغبي لن تمحي أو تزول . إن الدنيا وجود ثابت ، وعلينا أن نكيّف أنفسنا في الظاهر وفقاً لمطاليبها . وفي حياتنا الخاصة ، كما أرى وأعتقد ، يمكننا أن نمتع أنفسنا . إن العاطفة تتبدل وتتغير . قد تعشقين في هذه السنة رجلاً ، وقد تغرمين في العام المقبل برجل آخر . ومع ذلك فرغبي باقية ، فالزميها ، ابقي فيها ،

صونيها كما تصونك هي . ثم ، لا تستنكفي من النهل من ينبوع اللذة ، وثقي أنك بتخليك عن رغبي لن تجني إلاّ الخسران . أنت حرة ومالك وفير ، وفي وسعك أن تستقلي بحياتك ، ولكنك كما قلت لن تستفيدي بل إنك ستندمين وتتمنين لو لم تغادري تلك البقعة» .

ومال السير مالكولم إلى الوراء ، وابتسم ثانية ، وأردف :

«وأرجو أن تكوني قد وفقت إلى رجل جدير بالرجولة» .

فقالت وهي تبادله الابتسام :

«أجل ، وهذا هو السبب المفضي إلى قلقي وحيرتي . . فهو رجل بكل ما في الكلمة من معنى ، وأمثاله قلة» .

«أصبت ، فليس كل رجل جديراً أن يدعى كذلك . أمّا من جهتك أنت فلا مشاحة أنه أصاب حظاً كبيراً لوقوعه هذا الموقع الحسن في قلبك ، وأنا أثق كل الثقة أنه لن يسبب لك المتاعب والأحزان» .

«بلى ، إنه ليس من أولئك الرجال الذين يجورون على امرأة تحبهم ، بل إنه يحرص على إطلاق حريتي الكاملة لي» .

«فهو إذاً نعم الرجال . . رجل حقيقي !» .

لقد شعر السير مالكولم بالغبطة والسرور ، فكوني كانت ابنته الأثيرة المفضّلة ، وكوني كانت تذكره دوماً بوجود الأنثى الحقيقية في بيته . وهو بجانب ذلك لم يمل أبداً إلى كلفورد ، وهذا ما ضاعف سروره وجعله يرق في معاملتها ويحنو عليها ، كما لو كان الجنين ابنه هو !

*

ونزلا إلى البر في لندن ، وصحبها والدها إلى الفندق ، ولمّا

اطمأن إلى راحتها غادرها قاصداً النادي .

ووجدت في انتظارها كتاباً من ملورد يقول لها فيه :

«لن آتي إلى الفندق ، ولكني سأنتظرك خارج حانة «الديك الذهبي» في الساعة السابعة من هذا المساء» .

وذهبت في الوقت المعين ، وشاهدته من بعيد منتصب القامة مرفوع الرأس أنيقاً بعض الشيء ، ويختلف في كل شيء عن سائر الرجال ـ لم يكن في شكله وهندامه مماثلاً لرجل من الطبقة الرفيعة ، إلاّ أنه لم يكن كذلك يشبه أي رجل من الطبقة الوسطى أو الدنيا ، ولعله نسيج وحده بين الرجال .

وهتف ساعة أقبلت عليه مسرعة : «هذه أنت ، فما أروع محياك وسمتك !» .

فقالت بصوت مشرب بالانفعال : «ولكنّك تغيّرت ، فماذا أصابك؟» .

وصعّدت طرفها في وجهه وجسده ، فرأت في الوجه شحوباً وفي الجسد ضموراً . . ولكن عينيه ابتسمتا لها ، وشعرت على التوّ أنها اجتمعت بأليفها . . وتدفق منه بغتة شيء عجيب أشعرها بالهدوء والاطمئنان والسرور .

وسجّلت على نفسها سعادتها فقالت والحبور ينضح من ثناياها :

«إنني مسرورة !» .

وأتمت في سرها : «إنني مغتبطة ولا تساوي شمس البندقية شيئاً ، بل إنها القرّ المثلوج ، وما الدفء الحقيقي إلاّ هنا ، في هذا المكان معه . .» .

وسألته مستفسرة : «هل تألّمت كثيراً جراء حادثة زوجتك؟» .

كان معروق العظم ، وقد لاحظت ذلك الآن ، وودّت لو التقطت يده فقبلتها ، ولكنها لم تجرؤ .

ودلفا إلى الحانة وانتبذا ناحية منفردة فجلسا إلى منضدة ، واستأنفا الحديث .

قال : «إن الناس كلهم لا يهدأ لهم بال إلاّ متى أوقعوا وأضرّوا !» .

قالت : «وهل أثرت فيك أقوال الناس؟» .

«أجل ، فالألسنة الحداد طعنات رمح في الصميم ، ولا أخفي عنك أنني أبله لأني أحفل القول الموجّه إليّ» .

«وهل شعرت كأنك كلب ربطت إلى ذيله علبة صفيح ، كما زعم زوجي؟» .

فنظر إليها بعينين تبعثان بالشرر . . لقد قست فيما قالت ، واعتدت بفظاظة على كرامته ، ولكن بتسرع لا يبطن المكر .

وما عتّم هو أن استعاد هدوء أعصابه فأجاب هازئاً :

«أصاب زوجك يا عزيزتي» .

وأطبق عليهما لدقيقة صمت مزعج بددته هي بقولها :

«وهل شعرت بالشوق إليّ؟» .

«سررت لأنك كنت بعيدة حينما وقع غير المنتظر» .

«ولكن ، هل صدق الناس ما تناهى إليهم من أخباري وأخبارك؟» .

«كلاّ ، لا أظن أنهم آمنوا بما قيل» .

«وكلفورد؟» .

«لا أعتقد أنه هو الآخر قد صدق ما أرجف . سمع الشائعة ولكنه سخر من مروّجيها . ومهما يكن فإن هذه الأقاويل التي مسّتنا نحن الاثنين جعلته يصمم على التخلّص مني» .

«سأرزق عن قريب بطفل» .

فماتت الحركة في وجه الرجل ، أي مات ما ينمّ عن خلجاته وإحساساته ، ورمقها بعينين مظلمتين ، لم تتمكن من فهم ما نطقتا به في تلك الفينة . . وخُيل إليها أن روحاً يندلع فيها لهيب معتم رهيب قد نظرت إليها وكأنها تبغي التهامها .

وفهمت أن أمائره الجامدة تظهر أموراً متناقضة متنازعة . . وقالت وهي تقبض على يده :

«هل سرك الخبر؟» .

ورأت قبساً من نور ساطع ينبعث من حدقتيه ، ولكنه سرعان ما اختفى وكأنه ومضة برق . وقال وهو ينزع يده بلطف من قبضتها :

«إنني أفكر بالمستقبل» .

وقالت مكررة ما نطقت به :

«ألست سعيداً؟ ألا تحمد الله على ما أسبغه عليك؟» .

«غير أني أتشاءم وأشتبه وأرى ظلاماً دامساً يحيق بي ويكتنف مستقبلي» .

«وممَّ تخشى؟ إن كلفورد يتوق إلى تبني الطفل ومنحه أملاكه وأمواله ولقبه» .

ورأت وجهه يفر منه الدم ، فارتعشت وارتعدت ، وأوجست خيفة .

ولكنها استطردت تقول : «هل أذهب إلى كلفورد؟ هل أرجع إلى رغبي بالوارث المشتهى؟» .

ونظر إليها نظرة بعيدة كل البعد عن شعورها وعاطفتها ، وتراقصت على محياه تلك البسمة الفاترة البشعة التي كانت تخاف منها وترتجف .

وقال : «ألا يطالبك باسم الأب؟» .

قالت : «لن يحجم عن تبنّي الطفل حتى ولو عرف أباه» .

وفكر ملياً .

وقال أخيراً يحدث نفسه : «لا شك أنه يقبل بالطفل ولو كنت أنا والده» .

وكان سكوت ، وكان صمت ، وفرق بينهما هذا الحديث ، وشعر كل منهما أن ثمة هوة تفصل الواحد منهما عن الآخر .

وسألته : «ولكنك لا تودني أن أعود ثانية إلى كلفورد؟» .

فأجاب : «أفصحي عن رغائبك قبل أن تسألي» .

فقالت ببساطة : «إنني أتوق إلى العيش معك» .

وبالرغم منه سرت في جسده ألسنة من النيران عندما قالت كلماتها الأخيرة ، وما لبث أن نكّس رأسه ، ثم رفعه ثانية وصوب إليها نظرة نارية وقال :

«وهذا ربح لي وغنم ؛ أنا مملق صفر اليدين ، أنا لا أملك شيئاً» .

فقاطعته قائلة : «أنت تملك في نفسك أكثر مما يملكه غيرك من الرجال» .

«إنني أعلم ذلك ! كانوا في الماضي يقولون إنَّ فيَّ من المرأة الشيء الكثير ، ولكنهم أخطأوا فيما ذهبوا إليه ، فأنا لست امرأة لأني لا أحب المال ولأني لا أتصوّر وأتخيّل ما يبعد عني الحقائق . وقد أحببت الجيش وتعلّقت بالجندية ، وأعجب بي الكثيرون . إلاّ أني لا أطيق ذلك الصلف الذي يكون سجية في طبع كل من يشرف ويهيمن ، ولهذا السبب فشلت فيما نجح فيه الرجال ، ولم أتقدّم . . فأنا أكره عجرفة المال وصلف الرجال ، ولست أملك إذاً ما أستطيع أن أهبه للمرأة» .

«على مهلك يا حبيبي ! أنا لا أنتظر منك شيئاً ، فما بيننا صفقة تجارية ، بل بيننا حب متبادل» .

«أجل ، أجل ! إنه كذلك . إن العيش حركة ، حركة مستمرة ، ولكنني لا أتحرّك مع التيار . إن حياتي تأبى أن تتحرك ، وعليه فأنا كائن مهمل لا أنفع . إن الرجل مطالب بتقديم شيء للمرأة . . إن الرجل مطالب أن يقدم لها معنى من معاني الحياة . . وأنا أعجز من أن ألبي هذه المطاليب» .

«وماذا تخالني أريد؟ لا أريد إلاّك ـ حبك وعاطفتك» .

وابتسم الرجل وأجاب وهو يميل برأسه إلى جنبه :

«إن المال مالك ، والمركز لك ، وستكون القرارات بطبيعة الحال وقفاً على رأيك وإرادتك . أمّا أنا فستقتصر حياتي على تمثيل دور عشيق سيدتي !» .

«لا أفهم من كلامك إلاّ أن في نفسك عقدة خطرة» .

«أصبت ، ومع ذلك أشعر في قرارتي بأني شيء معدود له وزنه .

إنني أرى فائدة وجودي وأحس بأنّ لي وجوداً، مع أن سواي من الناس لا يقرون هذا الرأي» .

«وهل يتلاشى هذا الوجود أو يتضاءل متى عشت معي؟» .

وفكّر ملياً قبل أن يجيب :

«قد يكون ذلك» .

وفكّرت هي الأخرى ملياً ثم أردفت :

«وما هو دليل وجودك؟ ما هو الدليل الذي يوطد دعائم هذا الوجود؟» .

«لا دليل لي على ذلك، ولا أحفل وجود الدليل، لأني لا أؤمن بالدنيا، ولا بالمال، ولا بالنجاح، ولا بالتقدم، ولا بمستقبل الحضارة . ولو شاء بنو الإنسان أن يكون للإنسانية مستقبل، فلا مناص من إحداث التغيير العظيم في أساليب العيش وفي العادة والعرف والطبيعة» .

«وماذا تظن أن مستقبلك يجب أن يكون، أو بالأحرى ماذا تنشد من مستقبلك؟» .

«الله يعلم! إنني أشعر بشيء غامض في داخلي، شيء مختلط مع الغيظ، ولكني لا أقدر على التكهّن بالنتائج» .

فنظرت إليه متفرسة وأجابت :

«هل أخبرك؟ هل أخبرك ما تنضم عليه جوانحك ممّا لا يملكه رجل غيرك، وممّا يصنع ويكفل لك المستقبل؟ هل أخبرك؟» .

«أخبريني، قولي» .

«إنه الشجاعة التي تبدّت فيما أعربت عنه بكلامك وحركتك من

عاطفة مشبوبة ، هذا هو الشيء» .

وتراقصت البسمة ثانية على محياه ، وقال وهو يضحك قليلاً :

«أجل ! أنت مصيبة ، إن ما نطقت به لا يتعارض مع الحقيقة» .

«فلم تخافني إذاً؟» .

«أخاف المال ، والمركز ، أخاف الدنيا الكامنة فيك» .

«ولكن ، ألا يوجد أي عاطفة فيّ؟ أي رقة؟» .

فصعّدها بنظرته الثاقبة وقال : «إنها موجودة ! ولكنها تأتي وتذهب» .

وأخلد الاثنان إلى الصمت واستغرقا في الفكر ، ولم تلبث كوني أن قالت :

«أريدك أن تأخذني بين يديك . . أريدك أن تقول لي إنك مسرور لأني سأنجب لك طفلاً» .

وبدت في تلك الساعة فاتنة جميلة دافئة . . وخفق قلبه خفقة الحب . . وابتدرها قائلاً : «نستطيع إن شئت أن ننفرد بغرفتي مع أن ذلك ممنوع رسمياً» .

ومشيا في الشارع الطويل الممتد ، وصعدا إلى سطح منزل مرتفع ، حيث كان يقطن في غرفة صغيرة وولجا الغرفة .

ومسح ملورد على خدها بأنامله وقال :

«سأتركك وحدك الآن» .

فقالت : «كلاّ ، بل أحببني ! أحببني وقل إنك ستبقى معي ، قل إنك لن تدعني أذهب !» .

ودنت منه ، والتصقت به وقبّلته .

وقال : «سأبقيك معي ، سأبقيك إن شئت» .

وأحاطها بذراع قوية .

وقالت : «ثم ، ألا تجهر بسرورك بالطفل الموعود؟ قبّلني وقل إنك مسرور» .

ولكن كلامها لم يقع الموقع الحسن في قلبه ، وتراءى له أن مجيء الطفل إيذان بحلول المصائب فقال :

«إنني أوجس أشد الخيفة من إنجاب الأولاد ، أو على الأصح ، من إخضاع نفسي لسنة التناسل والبقاء ، فالمستقبل لهم كما أوقن قاتم مكفهر» .

«ولكنك ستصبح عن قريب أباً . . فكن أباً طيّباً رقيقاً ، وهذا يكفل للابن مستقبلاً وأمناً» .

فاختلجت أهدابه وارتعش جسده ، فقد علم تلك الدقيقة أن ما قالته هو الحقيقة ، وشعر أنه يحب هذه المرأة . . يحبها أعظم حب . . وانحنى قليلاً وقبّلها .

وهتفت كما تهتف المرأة ساعة تنتشي روحها :

«أواه ، أنت تحبني ! أنت تحبني !» .

وأدرك هو أن ما فعله هو ما يخلق به أن يفعله ـ أن يدنو من قلبها ومن خلجتها دون أن تُمس كرامته أو كبرياؤه ، أو مكانته كرجل . . وعلى كل حال ، إذا كانت تحوز المال والوسائل على نقيضه ، فعليه أن يستبقي شرفه وعزة نفسه فيكتم حبه .

وناجى نفسه قائلاً : «إنها امرأة لي أنا ؛ وإن المعركة الآن تنشب ضد

المال وضد الآلة ، وكذلك ضد عادة القردة التي يأخذ بها الناس في علاقاتهم الجنسية في مشارق الأرض ومغاربها . . إنها لي كما أرى . . وستقف ورائي تؤيدني وتعضدني . . فشكراً لله لأني ملكت امرأة! شكراً لله لأني حزت امرأة تلازمني وتعطف علي وتشعر بوجودي . . شكراً لله لأنها رضية عاقلة ، تلين وتحب وتقدر وترى!» .

أمّا كوني فكانت أفكارها هي الأخرى تدور على المحور نفسه ، أو في الدائرة المفرغة نفسها . وكانت عازمة عزماً أكيداً أن لا يكون فراق بعد اليوم بينه وبينها . وأيقنت أنه لا بد لهما من اختيار السبيل الملائم والطريقة المثلى ، حتى تستقيم لهما أمور العيش فيبلغا من حياتهما السعادة والهناء .

وقالت بغتة وكأن ما قالته يدخل في صميم علاقتهما :

«وهل أبغضت زوجتك؟» .

فأجاب باقتضاب : «لا تتكلّمي عن هذه المرأة» .

«بل أود أن أفهم كل شيء ، لأنك أحببتها مرة من قبل ، لأنك علقت بها كما كلفت بي أنا . ولهذا ينبغي عليك أن تقول لي أو بالأحرى أن تطلعني عن السبب الذي بدل الحب كراهية ، والود نفوراً . . ما السبب؟ قل» .

«لا أدري . . إلاّ أني لا أنسى قط أنها كانت في كل حين تشحذ إرادتها ضد إرادتي . دائماً ، دائماً . . إرادة الأنثى المتنمرة . . حريتها! حرية امرأة متنمرة! حرية نهايتها دائماً وحشية وانهيار وعطب! أواه ، لقد احتفظت دائماً بسلاحها مشهراً في وجهي ، سلاح حريتها المسرفة ، المتجاوزة كل حد» .

«بيد أنها غير مستقلة عنك ، إنها لم تتحرر منك حتى الآن . . فهل هي مقيمة على حبها لك؟» .

«كلاّ ، كلاّ ! إنها لم تشأ أن تتحرر مني وتستقل عني لأنها ذات نفس أمارة تضطغن الحقد وتسعى إلى النيل مني ، بل تصبو وتتوق إلى تحطيمي وتدمير حياتي» .

«ولكنها أحبتك دون ريب» .

«كلاّ وأجل ! أي أنها أحبتني على دفعات ، وكانت تمقتني أكثر بكثير مما تحبني . كانت قريبة مني ولكن بعيدة ، وأكاد أوقن ، وأنا أفكر الآن فيما تصرّم من أيام ، أنها أبغضتني ومقتتني . كانت كما قلت تحبني في لمحات وجيزة ، ولكنها سرعان ما كانت تسترجع محبتها لتبدأ حملتها . . حملة التعذيب والاضطهاد ! فرغبتها وأمنيتها وكل ما كان يجيش في صدرها كان الكيد لي . . وحاولت وبذلت ما في الطاقة لأغيّرها وأبدل طبعها ، ولكن الفشل كان في كل حين حليفي وزميلي . . إن إرادتها انحرفت بها منذ البدء ، منذ أن تفتحت عيناها على الحياة !» .

«لعلها أحسّت بأنك لم تبادلها حبها فشاءت أن تضرم نار غيرتك وعاطفتك؟» .

«رباه ! أبهذه الطريقة تؤرث نيران الحب في قلب الرجل؟» .

«غير أنك في الحقيقة لم تمحضها حبك فآذيتها في عاطفتها وشعورها» .

«كنت في أول الأمر متحفظاً في حبي ، ولكن الأيام قربت قلبي إلى قلبها فشرعت أتلهّف دائماً إليها . . ولـمّا شرعت أتلهّف ، ولما

شرع قلبي ينبض نبضة الحب ، طفقت هي تعاكس تلك الطفرة . وعبثاً نتكلم الآن ، لقد خلقت هذه المرأة لتجني عليها غباوتها ، وعندما جاءت منذ أيام إلى الكوخ ، جاءت بهيئة مخيفة وكأنها مخبولة فاقدة العقل . وسوّلت لي نفسي وأنا أنظر إلى وجهها المفزع أن أقتلها برصاصة حتى أنقذها من سعارها ! ولكن القانون لا يعترف بحقي في تخرم نفسها . . وفي رأيي أن القانون مخطئ ، لأن المرأة متى ركبت رأسها ، ومتى استعبدتها إرادة رعناء هوجاء حمقاء ، أصبحت كأنها مخلوق دخل قلبه شيطان ، وشيطان ، وشيطان !» .

«وما قولك بالرجال؟ ألا يجدر بالقانون أن يبيح قتلهم متى استعبدتهم إرادتهم؟» .

«أجل ، يجب ! ولكن لا مندوحة لي الآن من التخلص منها حتى لا تعيد الكرة فتسوء العاقبة . إن الطلاق هو الحل الوحيد ، وسأسعى إلى نيله ، ولهذا يستحسن الحرص ، حتى لا نؤخذ على غرّة فنرى معاً ، لأنها إن قدّمنا لها هذا السلاح قضت عليك وقضت عليّ أنا» .

وأطرقت كوني مفكرة ثم قالت :

«فنحن إذاً لن نجتمع نهائيّاً؟» .

«لن نجتمع قبل مضي ستة شهور على الأقل ، وأظن أن طلاقي سيقع في أيلول ، وبعد ذلك يمكننا أن ننتظر إلى آذار» .

«ولكن الطفل لن ينتظر حتى آذار ، فأنا أتوقع أن أضعه في شهر شباط» .

ولزم الرجل الصمت ، ثم قال فجأة بصوت مشرب غيظاً :

«أتمنى ، أجل أتمنى لو مات كلفورد وزوجتي برثا . . أو بتعبير أصح

أتمنى أن يموت كل من اسمه كلفورد وبرثا !» .

«هذه قسوة وغلظة . . فأين رحمتك وإنسانيتك؟» .

«رحمتي وإنسانيتي ! ألا تظنين أن الموت لهما على وجه التحديد هو الرحمة بعينها والإنسانية بكل معانيها؟ إنهما لا يستطيعان أن يعيشا ، إنهما يدمّران الحياة . . وإن روحيهما هما في الحقيقة روحا شر ، ولا شك أن الموت يليق بهما ، وبودي لو قتلتهما بيدي !» .

«وهل ترتكب جريمة القتل؟» .

«أقتلهما وأنا أبتسم ، لأن في قتلهما خيراً لكثيرين . . إنهما خرافة ، ومن يقتل الخرافة لا يُقتل !» .

وأيقنت كوني أنه يود أن يتحرّر تماماً من زوجته ، وشعرت أن حبيبها على حق في ذلك . ولكن لهذا الأمر نتيجة سيئة ، فهي ستضطر إلى الابتعاد عنه لعدد من الشهور ، ولعلها تستطيع في أثناء هذه الشهور أن تظفر بالطلاق من زوجها . . على أنها فكرت في الوسائل ، ورأت أن الصعوبات جمة والعراقيل لا حصر لها ، وودت لو تسنى لهما ـ لها ولعشيقها ـ أن يذهبا إلى أقصى المعمورة ، لكي يعيشا في بُلهنية وسلام . .

ورأت أخيراً أن تتذرّع بالصبر . . والصبر كلمة واسعة عميقة المعنى .

*

ولاذت كوني بوالدها وناجته قائلة :

«أترى يا أبي ، إنه حارس الصيد في غابة كلفورد ، ولكنه كان ضابطاً في الجيش» .

ولم يكن والدها يوافقها في قرارته على ما عزمت عليه ، فقال مجيباً ومتسائلاً :

«ومن أين جاء حارس الصيد هذا؟ من هو ، وما منشؤه؟» .

قالت : «هو رجل مثقف ، وله شخصيته وكرامته» .

فأجاب محتدماً : «يتراءى لي أنه من الباحثين عن المال ، وقد وجد فيك ضالته !» .

قالت : «كلاّ يا أبي ، إنه لا يكترث بالمال ، وستتأكد من صدق فراستي متى رأيته واجتمعت إليه . إنه رجل ، وقد مجّه كلفورد دائماً لأنه لم يحنِ هامته ، بل احتفظ بهيبته وشرفه» .

وكان السير مالكولم لا يطيق الفضيحة والتشهير المتربصين بابنته وبه . . كان لا يطيق رؤية ابنته الأثيرة تزج بنفسها في علاقة شائنة مع حارس صيد . . وقد قال بعد أن فكّر وتأمّل :

«لا أحفل الشخص قلامة ظفر . . إنه ولا شك نجح في استهوائك . . ولكن الشيء الذي يكظني هو إسفافك . . فكري ، فكري في وقع الأمر على جميع معارفك وأهليك . . فكري بي وبأختك ، وبزوجتي . .» .

فقالت : «لقد فكّرت في كل أمر ؛ ولا شك أن حديث الناس سلاح حاد ، وخصوصاً متى كان المرء عضواً في المجتمع الراقي . .» .

«فإذاً؟ إذاً؟ والطفل المرتقب؟» .

«فلنكتم الحقيقة ولا نجهر باسم أبيه . . لنزعم أنه ثمرة رجل آخر ـ رجل أعلى قدراً ومكانة !» .

«وماذا يكون موقف هذا الرجل المختار؟ ومن هو؟» .

«لم لا نقول إنه (دنكان فوريز) الفنان؟ ألم يقض معنا ردحاً في البندقية؟ ألم يصحبني إلى كثير من أماكن اللهو؟» .

«يا للمسكين! وهل يذعن؟ وهل يرضخ؟» .

«قد يفعل ذلك» .

«فهو إذاً مجنون أو رجل شاذ غريب الأطوار . . وهل جرى بينكما ما يستوجب تضحيته؟» .

«كلاّ ، فهو ينفر من العلاقات الجنسية الوثيقة ، وكان يرغب إليّ أن أبقى قريبة من دون أن يمسني بيده» .

«ربّاه! إنه جيل مدهش ـ أي سخيف!» .

«وهو يريدني أن أقف بين يديه حتى يملي النظر فيَّ ويرسم جسدي وتقاطيعي» .

*

وصلت هيلدا إلى لندن غاضبة مهتاجة ، فقد تناهت إليها الأخبار ، وأشفقت على العائلة من الفضيحة الكبرى التي توشك أن تلمَّ بأفرادها .

وكان من رأيها أن تتفادى كوني الفضيحة ، وإلاّ فلا بد لها من اتخاذ الإجراءات اللازمة للزواج من عشيقها .

ومع أن السير مالكولم والدها لم يرغب في الاجتماع إلى عشيق كوني ، ومع أن العشيق بادله النفور وشعور المخاصمة ، إلاّ أن الرجلين اجتمعا أخيراً في غرفة خاصة دون أن يشركهما في اجتماعهما إنسان آخر .

وشرب الاثنان عدداً من كؤوس الويسكي ، وخاضا في حديث

طويل عن الهند . ولـمّا رشفا القهوة ، أشعل السير مالكولم سيجاره وخاطبه قائلاً :

«والآن أيها الشاب ، ماذا تقول عن ابنتي؟» .

فتلألأت بسمة خفيفة على محيا ملورد وأجاب : «ماذا تعني يا سيدي؟ ماذا تريدني أن أقول؟» .

«إنها حامل كما أفهم ، والجنين طفلك !» .

«وهذا من أسباب شعوري بالفخر !» .

«الفخر !» وضحك الشيخ ضحكة استهزاء .

واستمر الاثنان في حديث لا طائل تحته . ولـمّا علم السير مالكولم أن الرجل يناهز الأربعين هتف متعجباً : «أحقاً تقول ! أنت تبدو أصغر بكثير ! ومهما يكن الأمر ، وسواء أكنت حارس صيد أو غيره ، فأنت رجل طيب . . أنت طيب تختلف كل الاختلاف عن ذلك الممجوج كلفورد ! لقد ملت إليك لأنك مقاتل ، مكافح ، تسعى إلى رغائبك بشجاعة ومثابرة ، وإني لأأتمنك على صيدي ! ولنتلكم الآن عما تزمع أن تفعل ، فالدنيا غاصة بالناس ، وللناس ألسنة حداد تلسع وتلذع وتميت !» .

«إلاّ أن الناس لن تعتم أن تملّ الحديث ، ولهذا السبب لا أحفلهم ولا أقيم وزناً لكلامهم» .

«وكن على يقين يا ابني أنني على قدم الاستعداد في كل حين لبذل العون لك . إن ابنتي ثرية ، وسأخلف لها ما أملك بعد وفاتي ، أجل سأعطيها كل شيء لأنها تستحق كل شيء . واعلم أني عندما أقول لك إني أحببتك لا أخدعك ولا أتملقك» .

«إنني جد مسرور لما أعربت عنه ، لأن الكثيرين يشبهونني بالقرد !» .

«تبّاً لهم ، أو بالأحرى تبّاً لهنّ ـ للعجائز المثرثرات ! ومن ترى يقول ذلك غير العجائز؟» .

وافترق الرجلان صديقين ودودين . وفي اليوم التالي تناول ملورد طعام الغداء مع كوني وهيلدا ، وقد قالت هيلدا في سياق الحديث وهي ترمقه متحدية : «إنه لأمر محزن أن تثيرا الدنيا حولنا بما تنويان» .

فأجابها الرجل وهو يغمز بعينه :

«أتعلمين أن مثل هذه الحوادث تملؤني حيوية ونشاطاً؟» .

«على أنه كان يخلق بك أن تتجنّب إنجاب الأطفال قبل عقد قرانكما» .

«أخال الله قد أشعل الشرارة قبل ميعادها !» .

«وأنا أخال أن الله لم يحرّكك ويحرّكها في هذا الطريق الوعر الذي شققتماه كلاكما ! إن كوني تملك من المال ما يغنيكما عن السعي ، ولكن الحالة لا تطاق متى تداولت الألسن قصتكما» .

«وافرضي أن الناس لهجت بقصتنا ، فلن يكون نصيبك من حديثهم إلاّ رذاذ مطر !» .

وران عليهم صمت قصير مزقته هيلدا بقولها : «أظن من الأفضل لنا جميعاً أن يكون اسم والد الجنين غير اسمك ، أن يكون رجلاً آخر أمام الناس حتى لا يزج باسمك في قصة الخيانة» .

«ولكني ظننت أني سأكون أول من يبرز اسمه؟» .

«أعني بكلامي السابق أن اسم الوالد، أو العاشق بكلام آخر، يجب أن يرد في إجراءات الطلاق، ومن الأفضل أن يكون غيرك، هذا الرجل».

«لا أكاد أفهم ما ترمين إليه!».

«لدينا صديق كريم لن يحجم عن التصديق على دعوانا متى اقتضى الأمر، وبهذا نبعد اسمك عن الفضيحة المرتقبة».

«أتعنين رجلاً آخر؟».

«أجل!».

«ولكنها لا تملك غيري عشيقاً وخليلاً!».

والتفت إلى كوني بدهش واستغراب.

وسارعت هي تقول متداركة:

«كلاّ، كلاّ! مجرد صداقة بريئة لم تشبها عاطفة حب».

قال: «فلماذا تطلبان إذاً من الرجل أن يكون هدفاً لكل ملامة؟».

فأجابت هيلدا: «بعض الرجال تدفعهم المروءة إلى التضحية، وتضحيتهم لا تكون بنسبة ما يأخذون من المرأة!».

«ومن هو فارسك؟ من هو ذلك المقدام؟».

قالت كوني: «صديق عرفناه منذ نعومة الأظفار والتقيناه في البندقية أخيراً».

فقال دون تردد: «دنكان فوربز.. أليس هو الرجل؟». وكانت كوني قد حدّثته عنه.

واستتلى: «وكيف تضعون اسمه في محل الشبهة؟».

فقالت هيلدا : «في وسع كوني وفوربز أن ينزلا في فندق مشهور ، فيعلم بهما الناس ، وفي وسعهما أن يعيشا أياماً في منزله» .

«ولكن هذا عمل مستهجن يزيد الاضطراب ويضاعف العناء!» .

«وماذا لديك من الاقتراحات؟ واعلم أنه متى اقترن اسمك باسمها فلن تظفر بالطلاق من زوجتك . . ولا شك أن الحياة مع كوني مستحيلة عليك ما لم تتحرّر أنت وتتحرّر هي» .

وأطرق الرجل مستغرقاً في الفكر ثم رفع عينيه إلى هيلدا وقال : «وكيف تزمعين أن تتصرفي؟ ماذا تعنين؟» .

قالت : «متى وافق فوربز ترتب علينا إقناع كلفورد بضرورة إطلاق سراح كوني ، وفي غضون ذلك تقوم أنت بإتمام إجراءات الطلاق من زوجتك» .

فصاح : «وهل نعيش في مأوى للمجانين؟» .

قالت : «ربّما . . قد نكون من المجانين . . وستنظر الدنيا إليكما كما تنظر إلى معتوهين مخبولين ، بل إلى مجرمين» .

ونكس ملورد عينيه وزوى ما بين حاجبيه ، وعضّ على شفتيه من القهر .

وقال دون أن يلتفت إلى هيلدا :

«إنني أوافق على كل شيء ، فالدنيا مخبول يتخبط بجنون ويتعذر على الإنسان أن يقتله . . وأجاريك فيما تذهبين إليه ، فللإنسان أن يسعى إلى مصلحته» .

وانثنى إلى كوني فنظر إليها في مذلة ، وغيظ ، وشقاء .

*

وحُدِّث فوربز في هذا الشأن ، فأصر على الاجتماع إلى حارس الصيد . وهكذا اتخذت الترتيبات ليلتقي به في منزله . وجاء حارس الصيد برفقة كوني وهيلدا في مساء اليوم الموعود .

وتناول الأربعة طعام العشاء ، ومضت ساعة وهم مخلدون إلى الصمت ، والرجلان يقيس كل منهما قوة نده ، ويزن مقدرته وشجاعته .

وقد تبادل الاثنان شعور الاشمئزاز والكراهية حتى فرّ اللون من وجهيهما ، وحتى أصبح الوجهان ممتقعين متقلّصين .

إلاّ أنهما كبتا ما خالج مشاعرهما . ولما شربا قهوتهما قال رب المنزل موجّهاً حديثه إلى ملورد : «أنا لا أرى ما يمنعني من الجهر أمام الملإ بأني أبو الطفل ، ولكني أشترط مقابل ذلك أن تقف لي كوني نموذجاً أصوّره وأنقله إلى لوحاتي !» .

فقال ملورد : «أي أنت تطلب الثمن مقدماً !» .

«أجل» . وحاول بكلمته تلك أن يظهر شدة احتقاره لملورد . ولكن إسرافه في الإعراب عن استهجانه كان له رد فعل معاكس . إذ قال ملورد وهو يبتسم ساخراً : «فلم لا تقبل بي نموذجاً لصورك أيها السيد؟ أو ، لم لا ترسم صورة لنا جميعاً ، أو لي ولها؟ !» .

فقال الفنان : «أشكر لك استعدادك لمساعدتي ، غير أنّي راغب عن رسم صورة رجل !» .

ومضت ساعة أخرى والفنان المضيف يتجاهل وجود ملورد ويتكلم باقتضاب ، وكأن كلماته تخرج رغم أنفه من صدره ، وكأن هذه الكلمات كان ينطق بها ويتعمّد أن تكون أحجاراً يرجم بها حارس الصيد !

وصبر حارس الصيد . .
صبر كما يصبر نبيل عريق . .
ودحض بذلك كل زعم عن الأصل والمحتد . .
وأثبت أن الإنسان بخلقه وطبعه . .
وأن المولد والدم والنشأة حديث خرافة
متى شب المرء بغريزة منحطة . . .
متى شب وضيعاً ، دنيئاً ، حقيراً !

- ١٢ -

«عزيزي كلفورد ، إنّ ما حدست به قد وقع ، وإنني في الحقيقة عاشقة تيّمني حب رجل آخر ، وأرجو من صميم قلبي أن تطلّقني ، أنا أقيم الآن مع دنكان فوريز في منزله . وكنت قد أخبرتك من قبل أني اجتمعت إليه في البندقية . ما أشد حزني من أجلك ، ولكن أرجو أن تعالج الأمر بحكمة وروية . لن أرجع إلى رغبي ، فاصفح عني وطلّقني ، قد تحظى بامرأة أفضل مني !» .

لم يذهل كلفورد مما قرأه في كتاب زوجته ، فقد شعر منذ زمن طويل أنها لن تلبث حتى تفارقه . ومع ذلك أبى أن يعترف بالأمر الواقع . وكانت الصدمة مريعة له في الظاهر ، كانت بمثابة الطعنة النجلاء تخترق سويداءه ـ لقد احتفظ بسطح ثقته بها سليماً لا تخدشه الريب ، وإن كان في باطنه قد ارتاب وظن وشك !

وهكذا نحن . . نفصل بإرادتنا بين معلوماتنا الباطنة ومظاهرنا الخارجية ، وهذا من شأنه أن يعقب حالة فزع وهلع تضاعف من وقع المصيبة ، وقد تميت .

هزت المفاجأة كلفورد وأصابته بمسّ من الجنون . وحدثته الممرضة واستعطفته ، فلم يجبها بحرف .

وهرعت إلى الباب تبغي استدعاء الطبيب ، فصرخ : «كلاّ !» .

ووقفت في مكانها وكأنها شدت إلى الأرض ؛ وحددت طرفها في وجهه الممتقع الناضب فخيل إليها أنها تنظر إلى وجه مخبول .

وقال كلفورد : «أنا لست مريضاً . . إن زوجتي لن ترجع ثانية» .

قالت الممرضة وهي تتناول خطاب كوني من يد زوجها وتقرأه : «لا أصدق ، بلى ، لا أصدق سمعي وبصري ، فقد قطعت على نفسها عهداً بالرجوع» .

وكانت ممرضة بارعة ، فرأت في حالته الخطر الماثل ، وأيقنت أنه سيموت من القهر إن لم ينفس كربه بالدمع . . وهكذا استخرطت في بكاء سفحت فيه دمعاً غزيراً . . وجاراها هو فسكب الدمع المدرار ، وتنهد وتأوّه .

وألقى رأسه على صدرها ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، وجعلت تهدهد شعره بيدها ، وتقول : «اهدأ ، اهدأ ! اهدأ ، اهدأ !» .

وقبّلته ، وقبّلها ، وقالت تحدث نفسها : «أي تشاترلي العظيم ! أيها البيت العريق ! ألهذا الدرك انحطت؟ أسفّت بك امرأة إلى الحضيض؟» .

ونام المُقعد المفؤود ، نام بين ذراعي ممرضته . .

وأصبح السير كلفورد أداة طيعة في يد هذه المرأة . . وكانت تقبّله ، وكان يقول : «سقياً لك ! سقياً لك ! قبّليني ، الثمي وجهي !» .

والعجيب في أمر هذا الرجل ، الطفل ، أنه أضحى أقوى من كل رجل آخر في تفكيره وعمله ، فهو نيّر الذكاء ثاقب الفكر ، وهو جادّ كادّ ، يصرّف أعماله كما يصرّفها أعظم رجال الصناعة والاقتصاد .

كان رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى ، ولعل عاهته التي أصابته في الحرب قد أذكت نار عزيمته ، فاستعاض عن الشلل قوة الإرادة والعزيمة ، وأضحى خير مثل يضرب للنشاط والمقدرة ، وانطبق عليه القول المأثور : «كل ذي عاهة جبّار !» .

وقد فاخرت الممرضة الناس كلهم بهذه الظاهرة ، وكانت تعزو انبعاثه إلى إخلاصها وصبرها . . وكانت تناجي نفسها وتقول : «لو لم أجىء ، لو لم ترمني الأيام إلى هذه البقعة ، لما استفاد المسكين شيئاً من زوجته ، فهي منهومة مطماحة ، تريد كل شيء لها ، ولا تكترث به !» .

وفي الوقت نفسه ، كانت الممرضة تكنّ له في ناحية أخرى من روحها وقلبها كراهية واحتقاراً ـ فهو في نظرها الوحش الجريح ، والجبار الذي تحطمت أطرافه ، والرجل الذي لا ينفع ـ وكانت تؤثر عليه صعلوكاً ، لأن الصعلوك رجل ، وهي ترغب في الرجل السليم الصحيح !

وعجبت له عندما أصرّ على ضرورة مجيء امرأته . فسألته : «وما جدوى عودتها؟ ألا يخلق بك أن تتركها وشأنها؟ دعها تذهب ، دعها تمضي في سبيلها» .

فأجاب وهو يصرف بأسنانه : «كلاّ . . لقد وعدتني أن ترجع ، ويجب أن تفي بوعدها» .

وصمتت الممرضة ، ولم تحر جواباً .

وكتب هو إلى كوني خطاباً قال فيه :

«لا حاجة بي إلى شرح تأثير كتابك فيّ . . ولا أملك إلاّ أن أعلمك أن حضورك إلى رغبي لا بدّ منه . . لقد وعدت فلا تحنثي . لن أصدق شيئاً ما لم أجتمع بك وأستمع إليك . . وثقي أن سرك لا يزال مكتوماً لم يسمع به إنسان ، وأن الشبهة لم تحم حولك مما جرى هنا» .

وقرأت كوني الكتاب على مسمع عشيقها ، وأدركت أن زوجها يهدّدها ، وأنها ما لم ترضخ له وترجع ، فهو لن يحقق لها ما تصبو إليه من حرية .

وكتبت له رداً تخبره أنها قادمة برفقة شقيقتها هيلدا .

فأجاب : «لا أرحب بمقدم شقيقتك ، ولكني لن أوصد الباب في وجهها !» .

وجاءتا إلى رغبي . ودلفت كوني إلى البيت الذي أصبحت الآن تمقته بكل جارحة من جوارحها . وقد خُيل إليها أن المكان مسكون بالأرواح الشريرة ، وأنه ملاذ الرذيلة والجريرة !

ولما نزلت الشقيقتان إلى غرفة الطعام في الليل ، شاهدتا كلفورد يجلس في كرسيه وقد ارتدى ياقته المرتفعة وربطته السوداء الرسمية ، وبدا في هندامه ذلك السيد الذي كانه طيلة أيامه .

ومضت الدقائق بطيئة مرهقة . . وقال كلفورد أخيراً وهو ينقل طرفه بين كوني وهيلدا :

«وهكذا عمدت إلى نكث وعدك دون تحرّج !» .

قالت : «لم يكن لي بدّ من ذلك» .

وحدجها بنظرة صارمة تقدح شرراً . . كيف؟ كيف تجرؤ؟ كيف تسوّل لها نفسها هدم حياته؟ كيف يزيّن لها الإثم تحطيم عادته التي درج عليها؟ وما لبث أن قال : «وما السبب فيما عزمت عليه؟» .

«الحب !» .

«حبك لدنكان فوربز؟ وهل تحبينه أكثر من كل شيء؟» .

«المرء عرضة للتغيّر والتبدّل ، بل للتلوّن !» .

«ولكني لا أؤمن أو أثق بما تزعمين؟» .

«وما حاجتك إلى الإيمان والثقة؟ أنلني أربي من الطلاق ، هذا ما أبتغيه !» .

«وماذا يجعلك تعتقدين أني ألبي طلبك؟» .

«أنا لا أرغب في الحياة هنا ، وأنت لا تحتاج إليّ» .

«اعلمي أني لا أتبدّل بسرعة ، وطبعي لا يتقلّب في كل يوم !» .

«يجب أن أذهب فأنا في انتظار طفل» .

وأجاب بعد صمت : «وهل تذهبين من أجل الطفل؟» .

فهزت رأسها موافقة .

وأردف : «وهل دنكان فوريز يتوق إلى الاحتفاظ بطفله؟» .

«أكثر مما تتصوّر» .

«بيد أني أريد الاحتفاظ بزوجتي ، ولا أرى ما يضطرني إلى التخلّي عنها ، ولو شاءت وضع الطفل هنا ، فلن أمانع ، شرط أن تحتفظ هذه الزوجة في منزلها بكرامتها وشرفها» .

«اعلم وافهم أني أبغي العيش مع الرجل الذي يهواه قلبي» .

«لا أعلم ولا أفهم ، وكلامك لغو وهراء . . إن حبك باطل لا معتمد عليه ، بل هو كزوبعة في فنجان ! وحبك المزعوم لدنكان خيال امرأة مرتجل ، أو حلم ليلة قمراء ، ولا أشك قط في أنك ترتاحين إليّ أكثر من اطمئنانك إلى العيش معه» .

وشعرت كوني أنه بمحق ، وأيقنت أن الكتمان لن يجديها نفعاً ، فانبرت تقول بصوت عميق :

«إنني أحب غير دنكان ، وما أوردت اسمه إلاّ من قبيل التضليل والتمويه ، أو بالأحرى لكي لا أخدش مشاعرك وأجرح إحساساتك !» .

«لا أفهم . . لا أفهم . .» .

«لأني . . لأني أحب ملورد ، حارس صيدك !» .

ولو كانت له القدرة لوثب من مكانه كالمجنون المضيع اللّب . . ولكنه ارتعش وارتجف ، وانثنى إليها بعينين جاحظتين مفترستين وقال : «أصادقة أنت فيما تقولين؟» .

«أجل . . .» .

«ومتى توطّدت العلاقة بينكما؟» .

«بدأت مع الربيع» .

«وصمت كما يصمت وحش وقع في الشبكة . ولكنه عاد فقال بصوت بعيد الغور يختلف كل الاختلاف عن صوته :

«وستتزوجين هذا المتشرد؟» .

«سأتزوجه دون ريب» .

«أواه ! لقد أثبتّ لي خرق تفكيرك . . أنت شاذة بعيدة عن الرزانة ، أنت بلهاء ناقصة العقل . .» .

«فطلّقني إذاً ! تخلّص مني ومن عاري !» .

«كلاّ . . لك أن تذهبي إلى حيث شئت ، ولكني لن أنيلك وطرك من الطلاق» .

«أتتشبث بالعناد؟ أتسعى إلى إذلالي؟» .

«صفيني بما تمليه عليك نفسك» .

«والطفل؟ ألا تظن أن تشبثك من شأنه أن يكسبه اسمك ولقبك» .

«لا أبالي !» .

«ألن تطلقني؟ ألن تعمد إلى منحي حريتي؟» .

«كلاّ ، لن أطلق سراحك» .

«ولم ذلك؟ ألأني أطلب وأتضرّع؟» .

«بل لأني أتبع ما يمليه عليّ شعوري» .

وتركته كوني هائجة مستعبرة .

وفي اليوم التالي غادرت الشقيقتان تلك الناحية إلى سكوتلاندا . ومضى ملورد إلى الريف فعمل في مزرعة أخرى ، بينما فوّض أمره إلى محام قدير ليسعى إلى الظفر بحكم الطلاق . وانكب يعمل بجد ونشاط ، ويتعلم دقائق الزراعة حتى لا يصبح عالة على كوني متى اقترنا ، وحتى يكون ملمّاً بعمله متى ابتاعا لهما مزرعة ، كما عقدا العزم ووطّنا النفس .

وهكذا كتب عليهما أن ينتظرا حلول الربيع ، ومجيء الطفل . .

كتب عليهما أن يفترقا حتى مطلع الصيف ، ليجتمعا بعد ذلك ويتّحدا ، ويعيشا زوجين متحابين !

كتب عليهما أن يكونا مضغة في الأفواه . .

ومتى أحب رجل وامرأة ، نسيا الناس . .

ومتى عشق رجل وإمرأة ، تجاهلا اللغط . .

ومتى التقى قلبان خلقا ليلتقيا ، فأنهما لن يفترقا !

«حبيبتي . . .

«أحبك وأحصي الأيام بل الساعات التي تدنيني منك . .

«إنني أعمل في هذه المزرعة كما لو كانت ملكاً لي . . وأتعلّم كل صغيرة وكبيرة من فنون تربية الدواجن والمواشي ، وأخال أني سأتحرر تماماً قبل حلول شهر آذار . أمّا أنت فلا تبتئسي لعراقيل كلفورد ، فسيمل الوضعية الشاذة بعد قليل ، وسيعمل على التخلص منك بالطلاق . . ثقي من ذلك .

«أحب الزراعة . . إنها لا توحي أو تلهم ، ولكني لا أود أن أستلهم أو أستوحي ! إنني الآن معتاد على خدمة الخيل ، وأغبط كثيراً كلما استحلبت بقرة . انتهينا مؤخراً من الحصاد ، وقد تمتّعت بالعمل في الحقول ، مع أن يديّ امتلأتا بالجروح والندوب . لا أكترث أبداً بالناس بل أتجاهلهم طاقتي .

«ترينني في هذه الأيام أتتبع بفكري ما يجري في المناجم ، وأستمع إلى لغط العمال الذين اصطبغت وجوههم بالفحم ، وأرى أحياناً نذر الثورة والتمرد تلوح في عيونهم التي تبرق فيها نار الحقد والموجدة .

«لعل اعتنائي بما يجري حولي مبعثه رغبتي في صرف ذهني عن التفكير بك إلى حين . فأنا كلما فكرت فيك زدت شوقاً إليك ، وتضاعف ألمي للمصاعب التي يتحتم علينا تذليلها .

«إنني أحيا لك ومن أجلك ، لأني أحبك . وأخاف ـ أوجس خيفة من كل شيء . فأنا أشعر بالشيطان يسبح في الهواء ويسعى إلى النيل

منا . ولكني أتحداه ، وأتحدى كل من يجرؤ على مناصبتنا العداء ، وها أنذا أندفع إلى الأمام ، وأمد يدي علّي أقبض على مخنق الشيطان !

«ما أشهى قربك ! ما أحلا تلك الساعات التي قضيناها سوياً !

«ناهزت اليوم الأربعين من عمري ، ولكني أشعر بالنشاط . ولعلّ محبتي تشحذ همتي ، وتقوي عزيمتي ، وتنفخ في صدري نار الحماسة والاندفاع .

«سأبقي الشعلة خفاقة الذؤابة ، ولن أتيح لأحد من الناس أن يطفئها . . سأبقي شعلة أملنا مضاءة رغم النفَس الفاسد الذي يهب من أفواه اللاغطين !

«ولو كنت في اسكوتلاندا ، لو كنت في أقصى المعمورة ، ولو كنتُ عاجزاً عن معانقتك وتقبيلك ، إلاّ أني أحتفظ بشيء منك ، أحتفظ بمحبتك ، وبعاطفتك ، وبقلبك . . وأحتفظ بهذه الشعلة !

«إنني نقيّ ـ أصبحت طاهراً ـ حبك غسل أدراني ـ نقّاني ـ طهّرني ـ فسقياً ، سقياً ، سقياً لك !

«إن السلام يحوطني . . في كل مكان أجد الآن السلام ، والمحبة ، والأمل !

«وعندما يأتي الربيع ، وعندما نلتقي ، ونجتمع ، ونندمج ، ستقوى نار الشعلة ستضيء دنيانا ، ستسعدنا ، ولن تحرقنا !

«سأنتظر بصبر ـ بصبر ـ والصبر فضيلة فتمسكي بها وانتظري .

«أتعلمين ما هي المياه العذبة؟ إنها أشبه بالصبر ، لأن الصبر فضيلة نادرة الوجود . . فاشربي من هذه المياه كما أشرب .

«لو قدّر لي الآن أن أضمك إلى صدري ، لما أرقت كل هذا المداد ،

بل لكنت أريق عليك مداد حبي وإخلاصي .

«فلا بأس ، لا بأس . . ولا خوف ، لا خوف . . ما دامت الشعلة تخفق باستمرار ، وما دام الصبر والإخلاص والحكمة تنسج جميعها درعاً متينة حولها .

«أمّا السير كلفورد فانسيه . . لا تخفليه ، لا تباليه . . إنه أعجز من أن يؤذيك . وسيأتي ذلك اليوم الذي يمنحك الطلاق فيه .

«لا أود أن أكف عن الكتابة ، بل أرغب في الاستمرار ، دون توقف ، ودون انتظار ـ الاستمرار إلى الأبد ، في الكتابة . . إلى قلبي !

«أنا لك ، فصوني نفسك لي ، واعملي من بعيد باتحاد معي ، حتى نوجه الدفة إلى الهدف ، إلى الأمل ، إلى الهناء !

«حبيبتي . . . حبيبتي . . .» .

الغجري والحسناء

- ١ -

في الحقيقة عندما هربت زوجة القسّ مع شاب صفر اليدين لم تعرف الفضيحة لها حدوداً . كانت أعوام ابنتيها الصغيرتين لا تتجاوز السابعة والتاسعة من العمر على التوالي ، وكان القس زوجها طيباً بحق . صحيح أن الشيب كان قد وَخَطَ شعره ، لكن شاربه كان أسود اللون ، وكان وسيماً لا يزال مفعماً بعاطفة خفية لزوجته الجميلة الجامحة .

لماذا فرّت؟ لماذا ولّت بمثل هذا الاشمئزاز العارم كمَن به مسٌّ من الجنون؟ لم يُحر أحدٌ جواباً .

وحدهم الأتقياء قالوا : إنها كانت امرأة سيئة ، بينما التزمت بعض النساء الصالحات الصمت . وكنَّ يعرفن .

ولكنَّ الفتاتين الصغيرتين لم تعرفا قط ، وإن كانتا ظنّتا ، لإحساسهما بالجرح ، أن ذلك حدث لأن أمهما وجدتهما غير جديرتين بالاهتمام والرعاية .

وجرفت الريح الشريرة ، التي لا تحمل خيراً لأحد ، أسرة الأبرشية في تيارها العاصف .

وهنا ، يا لعجائب الحياة !

أصبح هذا القس ، الذي كان متميزاً إلى حد ما ككاتب مقالات وبارع في المناظرة والجدل ، والذي أثارت قضيته الشفقة بين المولعين بالمطالعة ، أصبح يتلقّى معاشه من أبرشية «بابلويك» .

كان الله قد خَفَّف من وطأة ريح الحظ العاثر بإيلاء القس منصباً في شمالي البلاد .

كانت الأبرشية في الواقع منزلاً حجرياً منفرّاً عند أسفل نهر «بابل» قبل دخولك القرية ، وعلى مسافة أبعد ، وراء تقاطع الطريق بالنهر ، كانت تقبع محالج القطن الحجرية الكبيرة القديمة والتي كانت تُدار ذات يوم بالماء . وكان الطريق يلتوي عند أعلى التل ليدخل في شوارع القرية الحجرية المكشوفة . وقد لمست أسرة الأبرشية تغيّراً حاسماً لدى انتقالها إلى المنصب الجديد .

كان القس ـ الذي أصبح الآن راعياً للكنيسة ـ قد اصطحب معه من المدينة أمه العجوز وأخته وأخاً له ، وأصبح الوسط الذي تعيشه الفتاتان مختلفاً جداً عن البيت القديم .

كان راعي الكنيسة قد بلغ السابعة والأربعين من العمر ، وقد تبدّى وجهه عن أسىً شديد ، بَيْد أنه لا يتّسم بالوقار بعد فرار زوجته ، وقد حالت النساء المشفقات عليه بينه وبين الانتحار .

كان شعره قد أصبح أبيض اللون تقريباً ، وبدت نظرته مأساوية تَندُّ عن عينين استسلمتا للحزن .

وما كان عليك إلاّ أن تنظر إليه لتعرف كم كان وقع الحادث عليه رهيباً ، وبأية طريقة كان قد أسيء إليه !

مع ذلك ، كانت ثمة نغمة كاذبة في مكان ما من نفسه ، وبعض النساء اللائي تعاطفن معه إلى أعمق حد كقس كَرِهْنَه في الخفاء كَرَاعٍ للكنيسة .

كان ثمة إيحاء معيّن يبثه من حوله بأنه أقومُ من الآخرين في كل ما يقال ويُفعل .

وتقبّلت الفتاتان طائعتين ـ على طريقة الأطفال الغامضة ـ حُكم العائلة ، وأصبحت الجدة ، التي تجاوزت السبعين من العمر وبدأ نظرها يضعف ، الشخصية الأولى في المنزل . وتولّت العمة سيسي ، الشاحبة

التقية التي تجاوزت الأربعين ، والتي كانت تنخرها دودة داخلية ، تدبير شؤون المنزل .

وكان العم «فرِد» ، البخيل ذو الوجه الباهت ـ وقد تجاوز الأربعين ، والذي كان يعيش بدناءة لنفسه فحسب ـ يذهب إلى البلدة كل يوم .

وكان راعي الكنيسة بطبيعة الحال أهم شخصية بعد شخصية الجدة .

كانوا يسمونها «الأم» ، وكانت من ذلك النوع الخشن ، جسمانياً ، والذكي فكرياً ، وقد عرفت كيف تشق طريقها طوال حياتها باستغلال نقاط الضعف في الرجال من أنسبائها ، وسرعان ما اتخذت دورها في قيادة العائلة .

كان القس لا يزال «يحب» زوجته المنحرفة ، ولسوف «يحبها» حتى يموت . لذا . . . آثر الصمت .

كان شعور القس مقدساً ، وكانت الفتاة الطاهرة التي تزوجها وأحبّها قد أُودِعت قَلْبَه بقدسية .

وفي الخارج ، في العالم الشرير ، كانت تهيم في الوقت نفسه امرأة سيئة السمعة ، خانت القس وهجرت طفلتيه الصغيرتين ، وهي الآن مربوطة إلى نير شاب حقير سيجلب لها الخزي الذي تستحقه دونما شك .

ليكن هذا مفهوماً بوضوح ، وليتمّ الصمت بعد ذلك .

كانت لا تزال تبرعم في الأعالي الطاهرة لقلب القس زهرة الثلج البيضاء النقية لعروسه الشابة ، زهرة الثلج البيضاء هذي لم تذبل ، أمّا المخلوقة الأخرى التي هربت مع ذلك الشاب الحقير فلا شأن للقس بها .

واحتلت «الأم» ، التي كانت إلى حد ما أرملة لا مكانة لها ولا نفوذ

في بيت صغير ، كُرْسي الصدارة في الأبرشية ، وغرست جثمانها الهرم من جديد في أرض العائلة وبإحكام هذه المرة . لم تكن لتتخلّى عن العرش .

كانت بدهائها تتنهد تقديراً للإخلاص الذي يُكنُّه القس لزهرة الثلج البيضاء النقية ، بينما تتظاهر بالاستنكار لذلك الإخلَاص .

لم تكن تتفوه بكلمة ـ في احترام ماكر لحب ابنها العظيم ـ ضد نبتة «القُرَّاص» تلك ، التي ترعرعت في عالم الشر والتي كانت تدعى يوماً «السيدة آرثر سيول» . أمّا الآن ـ وشكراً للسماء ـ فإنها بعد زواجها مرة أخرى لم تعد «السيدة آرثر سيول» .

لم تعد امرأة تحمل اسم القس .

كانت زهرة الثلج البيضاء النقية تزهر على الدوام ولكن دونما اسم . حتى الأسرة كانت تفكر بها على أنها «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» .

كل ذلك كان ماءً في طاحونة «الأم» . لقد حماها ذلك من زواج آرثر مرة أخرى ، وإلى الأبد .

لقد أصبح الآن في يدها بأضعف نقطة فيه ، ألا وهي حبه الخفي لذاته .

لقد تزوج زهرة ثلج بيضاء لا تعرف الذبول . يا له من رجل محظوظ ! لقد أُسيء إليه ! يا له من رجل تعيس ! لقد عانى . يا لقلب المحبّ ! ولقد سامح وغفر ! أجل لقد غفر لزهرة الثلج البيضاء ! بل إنّه خَصّص لها شيئاً في وصيته عندما سيموت ذلك النذل .

ولكنْ صَهْ ! فلتُحجم حتى عن التفكير عن قرب في نبتة «القُرّاص» المريعة تلك ، في العالم الخارجي العفن : «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» .

لتزهرْ زهرة الثلج البيضاء بعيداً عن المنال في أعماق الماضي . . أمّا الحاضر فهو قصة أخرى .

*

وترعرعت الفتاتان في هذا الجو من الكتمان والتقديس الماكر للذات .

كانتا تشاهدان أيضاً زهرة الثلج البيضاء تزهر في الأعالي التي يتعذر بلوغها .

كانتا تعرفان أيضاً أنها كانت مُتوّجة في روعة فريدة سامقة فوق حياتيهما ، ولا سبيل إلى لمسها .

وفي الوقت نفسه كانت تنبعث أحياناً من العالم القذر رائحة عفنة منتنة للأنانية والشهوة المنحطة : رائحة نبتة «القراص» الشائكة تلك ، «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» .

إذ إنَّ نبتة «القرّاص» هذه كانت تنجح في الواقع من وقت إلى آخر في إيصال رسالة صغيرة إلى الفتاتين ، طفلتيها ، وعندئذ كانت «الأم» ، ذات الشعر الفضي ، تغلي داخلياً بالكراهية . إذْ لو عادت «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» لما تبقّى شيء من «الأم» .

لذا كانت تنبعث من الجدة عصفة ريح خفية من الكراهية نحو الفتاتين ، طفلتي نبتة الشهوة العفنة ، سنثيا تلك ، التي كانت تُكنُّ احتقاراً رقيقاً للأم .

وقد امتزجت بكل هذا وذاك ذكرى واضحة تماماً في ذهن الطفلتين عن بيتهما الحقيقي والأبرشية في الجنوب وأمهما سنثيا التي كانت فاتنة ، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً . كانت قد أضْفت وهجاً

عظيماً ودفقة حياة كشمس تخطر رشيقة في البيت لا تني تأتي وتذهب .

كانت الفتاتان تقرنان وجودها دائماً بالتألق ، ولكن بالخطر أيضاً ، بالفتنة الساحرة ، ولكن بالأنانية المخيفة .

والآن ولّى ذلك السحر وتجمدت فوق قبره زهرةُ الثلج البيضاء كإكليل من الخَزَف ، كما ولّى خطر القلق ، وبصورة خاصة ذلك النوع من الأنانية الشبيه بالأسود والنمور .

الآن ، كان ثمة استقرار تام يستطيع المرء أن يموت فيه بأمان .

والفتاتان كانتا تترعرعان ، وكلما ترعرعتا كلما أصبحتا أكثر ارتباكاً بالتحديد ، واشتدت حيرتهما بعد ذلك بشكل حيويّ .

أمّا «الأم» فكانت كلما كبرت كلما ضعف بصرها ، حتى أصبح لزاماً على أحد ما أن يقودها في أرجاء المنزل .

لم تكن تستيقظ من ضجعتها إلاّ قرابة الظهر ، ومع ذلك ، كانت دائماً ـ سواء أكُفَّ بصرُها أم لزمت الفراش ـ تمسك بزمام المنزل .

فضلاً عن ذلك ، لم تكن تلزم الفراش ، بل كانت تتبوأ عرشها حيثما وُجدَ الرجال ، وكانت أشد مكراً من أن تسمح بالتهاون والمهادنة ، ولَا سيما أنَّ لديها منافسين . وكانت إيفيت ، صغرى الفتاتين ، منافستها الكبرى .

لقد كان في إيفيت بعض من مرح «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» الغامض المستهتر ، غير أنها كانت أسلس قياداً وأقل عناداً ، ولربما أمسكت الجدة بزمامها في الوقت الملائم . . ربما !

وقد أحبَّ القسُّ إيفيت ودلّلها بشغف ولهٍ وكأنه يقول : ألَسْتُ رجلاً رقيق القلب متسامحاً؟

كان يطيبُ له أن يكوِّن هذا الرأي عن نفسه . وقد عرفت «الأم» ضعفه هذا إلى أقصى حد . . عرفت ذلك واستغلته بتحويله إلى أوسمةٍ له ولشخصيته .

كان يريد أن تكون له ـ في نظره ـ شخصية فاتنة ، تماماً كما ترغب النساء في اقتناء الثياب الفاتنة . كانت «الأم» ـ بدهاء ومكر ـ تُجَمِّلُ عيوبَه ونواقصه ، وقد وهبها حُبُّ الأم مفتاح نواحي الضعف فيه ، فأخفَتها له بالأوسمة .

بينما «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» . . .

لكن إيّاك أن تذكرها في هذا الصدد ! فقد كان القس في نظرها محدودب الظهر لاحبَ الجنبين تقريباً وأبله .

غير أن الأمر المضحك هو أن الجدة كانت تكره لوسيل ، كبرى الفتاتين ، في الخفاء ، أكثر من كراهيتها لإيفيت المُدلّلة ، فقد كانت لوسيل القلقة والنزقة أكثر إدراكاً بوقوعها تحت نفوذ الجدة من إيفيت الغامضة المدلّلة .

من ناحية أخرى ، كانت العمة سيسي تكره إيفيت . كانت تبغض حتى اسمها بالذات .

كانت حياة العمة سيسي مُكرّسة للأم ، وكانت تعلم ذلك جيداً ، كما كانت «الأم» تدرك أنّ سيسي تعلم ذلك . وعلى الرغم من كل شيء فقد أصبح ذلك عُرفاً على مَرِّ السنين ، وكان كل شخص ، بما فيهم سيسي نفسها ، قد أقرّ بذلك العُرْفِ القائم على تضحية العمة سيسي .

كانت تصلي كثيراً من أجل ذلك ، وهذا يُظهر أنّه كان لديها مشاعرها الخاصة في مكان ما ، يا للمسكينة !

لم تعد سيسي هي سيسي بعينها . كانت قد فقدت حياتها وجنسها ، وكانت ، وهي الآن تزحف نحو الخمسين ، تندلع فيها ألسنة خضراء غريبة من لهيب الغضب ، وعندئذ كانت تنقلب إلى امرأة مسعورة .

بَيْدَ أنَّ الجدة رغم ذلك كانت تسيطر عليها ، وتبقيها تحت نفوذها ، وكان هدف العمة سيسي الأوحد في الحياة هو أن ترعى «الأم» .

كانت ألسنة لهب خضراء من الكراهية الجهنمية تشب من العمة سيسي أحياناً نحو الشباب جميعاً ، وكانت المسكينة تصلي وتحاول أن تنال مغفرة السماء ، غير أنها لم تكن هي نفسها تستطيع أن تغفر لما أحاقَ بها ، فكان وقود النار يندلع أحياناً في عروقها فيلهبها ويحرقها .

ولم تكن الجدة ـ على ما يبدو ـ روحاً دافئة لطيفة . لم تكن أبداً كذلك .

كانت تتظاهر بما هي عليه عن مكر ودهاء .

وبدأ فجر الحقيقة يبزغ للفتاتين شيئاً فشيئاً .

إذْ تحت قُلُنْسوة «الأم» ذات الطراز القديم ، وتحت شعرها الفضي ، وتحت الثوب الحريري الأسود الذي يكسو جسدها القصير البدين والبارز نحو الأمام ، كانت هذه المرأة العجوز تحمل قلباً ماكراً يسعى دائماً إلى بسط سلطتها الأنثوية ، ومن خلال ضعف الرجال الراكدين الآسنين ، الذين رعتهم بالتربية ، كانت تحتفظ بنفوذها على مَرِّ السنين : من السبعين إلى الثمانين ، ومن الثمانين في المرحلة الجديدة إلى التسعين . فقد كان في الأسرة تراث كامل من «الولاء» : ولاء كل فرد للآخر وخصوصاً للأم .

كانت «الأم» بالطبع محور الأسرة ، وكانت الأسرة امتداداً لذاتها ،

فكان من الطبيعي أن تغطيها بنفوذها . ولكون أبنائها وبناتها ضعفاء ومتخاذلين كانوا يبايعونها الولاء الدائم .

أيّ شيء كان مُخبّأ لهم خارج إطار الأسرة غير الخطر والإهانة والخزي؟

ألم يختبر القس ذلك في زواجه؟

لذا يجب الحذر الآن . . الحذر والولاء في مواجهة العالم .

فليكن هنالك ما تشاء من الكراهية والخلافات «داخل» العائلة ، أمّا العالم الخارجي فله سور منيع من الانسجام والوئام يحميه ويصونه .

- ٢ -

الواقع أنَّ الفتاتين لم تشعرا بالثقل الرهيب لليد الهرمة الميتة التي بسطتها الجدة على حياتيهما إلاّ بعد أن عادتا نهائياً من المدرسة إلى البيت .

كانت لوسيل الآن في الواحدة والعشرين تقريباً ، وإيڤيت في التاسعة عشرة . كانتا قد درستا في مدرسة شهيرة للفتيات وأمضيتا السنة الختامية في «لوزان» .

وكما هو مألوف تماماً كانتا فتاتين شابتين طويلتين بوجهين نَضرين ورديّين وشعر مقصوص وطباع تَتّسم بخشونة الشباب إلى حد بعيد .

قالت إيڤيت لأختها وهما على متن مركب القناة تراقبان صخور «دوڤر» الرمادية وهي تقترب :

ـ إنَّ أشدَّ ما يبعث على السأم البغيض في بابلويك هو أنه لا يوجد رجال في الجوار! لِمَ لا يتخذ أبي بعض الرجال المرحين أصدقاء له؟ وفيما يتعلق بالعم فَرد فإنه رجل لا يُحْتمل!

أنت تعلمين إلى حد بعيد ماذا علينا أن نتوقع : جوقات الترتيل أيام الآحاد ، وأنا أكره الجوقات المختلطة . إن أصوات الفتيان جميلة عندما تخالطها أصوات نساء ، بالإضافة إلى مدرسة الأحد وجمعية صداقة الفتيات وحفلات السمر وكل الأرواح الهرمة العزيزة التي تسأل عن صحة الجدة ، ولكن لا تجدين فتى لطيفاً واحداً على مبعدة أميال .

قالت لوسيل :

ـ لا أدري ! هناك دائماً أسرة فراملي ، وأنت تعرفين أنَّ «جيري سومر كوتس» يحبك .

فصاحت إيفيت رافعة أنفها الحَسَّاس إلى الأعلى :

ـ ولكنني أكره الشباب الذين يعشقونني . إنهم يضجرونني وهم ثقيلو الظل كالرصاص .

فقالت لها لوسيل :

ـ فماذا تبتغين إذاً إنْ كنت لا تطيقين أن تكوني محبوبة؟ أعتقد أنه شيء رائع تماماً أن يكون المرء محبوباً . تعرفين أنك لن تتزوجي أحداً منهم فلماذا لا تدعينهم يستمرون في الهيام بك إذا كان ذلك يبعث في نفوسهم التسلية؟

صاحت إيفيت :

ـ ولكنني أريد أن أتزوج .

ـ حسناً ، في هذه الحالة إذاً ، دعيهم يواصلون الشغف بك حتى تجدي واحداً يمكنك أن تقترني به على وجه الاحتمال .

ـ لا . . لا ينبغي عليّ أن أتزوج بتلك الطريقة . لا شيء يخرجني عن طوري كفتى يتعشّقني . إنهم يثقلون عليّ بذلك . إنّهم يجعلونني أشعر بطبيعة متوحشة .

ـ وهذا ما يجعلونني أشعر به عندما يلحّون ، ولكنهم ظرفاء عن بُعد إلى حدٍّ ما على ما أعتقد .

ـ أريد أن أقع في الحب بعنف .

ـ هذا محتمل جداً . أمّا أنا فلا أرغب في ذلك . يجب أن أكره هذا الأمر ، ومن المحتمل أن تكرهي أنت ذلك لو حدث بالفعل . ومع

ذلك علينا أن نستقر قبل أن نعرف ماذا نريد .

فصاحت إيڤيت رافعة أرنبة أنفها إلى الأعلى :

ـ ولكن ، ألا تكرهين العودة إلى بابلويك؟

ـ لا . . ليس تماماً . . أعتقد أننا سنصاب بالملل على الأرجح . أتمنى أن يشتري أبي سيارة . إنني أعتقد أنه ينبغي علينا أن نخرج دراجتينا القديمتين . ألا تحبين الذهاب إلى «تانزي مور»؟

ـ لَشدَّ ما أرغب في ذلك ، على الرغم من أنه لإجهاد فظيع أن يدفع المرء دراجته القديمة في أعالي تلك التلال .

كان المركب يقترب من الصخور الرمادية ، وكان الفصل صيفاً ، بيد أنه كان يوماً غائماً . وكانت الفتاتان ترتديان معطفيهما وقد رفعتا الياقة الفرائية وجذبتا قبعتيهما الصغيرتين الأنيقتين حتى غطتا آذانهما .

فتاتان نحيلتان طويلتان بوجهين نضرين بسيطين ، ومع ذلك كانا وجهين واثقين ، واثقين جداً ، ينمّان بغطرسة فتيات المدارس . كانتا إنكليزيتين إلى حد كبير ، وكانتا تبدوان متحررتين مع أنهما كانتا في الواقع مُصَفَّدتين وشديدتي التعقيد .

كانتا تبدوان جريئتين وخارجتين على التقاليد ، لكنهما كانتا في الواقع متمسكتين بالتقاليد إلى حد بعيد ، وهذا ما حدا بهما إلى الانطواء داخل أنفسهما .

كانتا أشبه بقاربين شراعيين طويلين فتيين وجريئين انطلقا لتوهما من المرفإ إلى بحار الحياة الشاسعة ، ولكنهما كانتا في الواقع حياتين صغيرتين مسكينتين بلا دفة ، تتحركان من سلسلة مرسى إلى أخرى .

وبثت الأبرشية قشعريرةً في قلبيهما عندما دخلتاها .

بدت منفرّة وقذرة إلى حد ما ، وقد فاح منها الجو الرطب الذي

تتّسم به وسائل الراحة المهترئة عند الطبقة الوسطى ، والتي لم تعد مريحة ، بل انقلبت رثّة ومملّة . لقد أصاب المنزل الحجري الصلب الفتاتين بخيبة أمل ، فقد وجدتاه قذراً دون أن تستطيعا الإفصاح عن خيبتهما به .

بدا الأثاث البالي قذراً في مجموعه ولم يكن ثمة شيء جديد . حتى الطعام في أوقات الوجبات كان يتسم بتلك القذارة المريعة التي تثير النفور في الشابتين العائدتين من الخارج : لحم بقري مشويّ وكرنب ولحم ضأن بارد وبطاطا مهروسة ومخللات حامضة وحلوى لا يمكن استساغتها .

وكان للجدة التي «تحب القليل من لحم الخنزير» أطباق خاصة بها أيضاً : حساء لحم البقر وأنواع من البسكويت أو قليل من «الكاستر»(*) اللذيذ . أمّا العمة سيسي فكانت لا تأكل شيئاً ، كانت تجلس إلى المائدة وتضع حبة واحدة من البطاطا المسلوقة والمقشورة في صحنها . لم تكن تأكل اللحم أبداً ، لذا كانت تجلس في انحباس متجهم في أثناء تناول الطعام ، بينما كانت الجدة تلتهم طعامها بسرعة وهي تغطيه بلعابها ، وتكون حسنة الحظ إذا لم تُرِقْ منه شيئاً على بطنها البارز . لم يكن الطعام شهياً بحد ذاته . وكيف يمكن أن يكون كذلك والعمة سيسي نفسها تبغض الطعام وتبغض تناوله ، ولم تستطع أبداً أن تحتفظ بخادم لأكثر من ثلاثة أشهر .

كانت الفتاتان تأكلان في نفور ، ولوسيل تتحمل ذلك في شجاعة ، بينما كان أنف إيفيت الرقيق ينبئ باشمئزازها . وحده القس ذو الشعرات البيض كان يمسح شاربه الرمادي الطويل بفوطته ويطلق

(*) الكاستر : مزيج محلى من الحليب والبيض يُخبز أو يغلى أو يثلج .

النكات . كان هو أيضاً يزداد ثقلاً وجموداً بحكم جلوسه في مكتبه طوال اليوم فلا يمارس الرياضة أبداً . بيد أنه كان طوال الوقت يطلق النكات القصيرة الساخرة وهو جالس هناك في حِمى «الأم» .

كان الريف بتلاله المنحدرة ووديانه السحيقة الضيقة مظلماً وكئيباً ، إلاّ أنه كان ذا قوة فعالة نابعة من نفسه . وعلى بعد عشرين ميلاً كانت تقوم الصناعة السوداء في الشمال .

مع ذلك كانت قرية بابلويك منعزلة نسبياً ، بل تكاد تكون شاعرية . كانت قاسية جداً .

وحدث ما كانت الفتاتان تتوقعانه ، فقد عادتا إلى جوقة الترتيل وقدّمتا العون في الأبرشية . غير أن إيفيت امتنعت بشكل مطلق عن مدرسة الأحد وعصبة الأمل وجمعيات صداقة الفتيات . لقد أضربت في الواقع عن كل تلك الأعمال التي كانت تتولاّها عوانس عنيدات وكهولٌ أغبياء مُتعنتون .

كانت تتجنّب القيام بواجبات الكنيسة قدر الإمكان وتهرب من الأبرشية كلما استطاعت . وكان السند القوي لها في ذلك أسرة فراملي الكبيرة المرحة وغير المنظمة التي تقيم في المنزل الريفي .

كانت إيفيت تقبل في الحال كل دعوة لتناول وجبة خارج البيت ، حتى لو دَعَتها إحدى النساء لتناول الشاي في منزل أحد العمال . كان ذلك في الواقع مثيراً إلى حد ما بالنسبة إليها .

كانت تهوى التحدث إلى العمال الذين غالباً ما كانوا يتمتعون برؤوس صلبة جميلة ، ولكنهم كانوا طبعاً يعيشون في عالم آخر .

وهكذا مرت الشهور . وكان جيري سومر كوتس لا يزال مفتوناً بها ، كما كان هنالك آخرون أيضاً من أبناء المزارعين وأصحاب

المطاحن . وفي الواقع كان ينبغي لإيفيت أن تقضي وقتاً طيباً . كانت تخرج دائماً لحضور حفلات رقص ، والأصدقاء يأتون إليها بسياراتهم فيقلّونها إلى المدينة ، إلى الحفل الراقص الذي يُقام بعد الظهر في الفندق الرئيسي أو في قصر الرقص الجديد البهي الذي كان يدعى «بالي» . مع ذلك كانت دائماً تبدو مُنوّمة مغناطيسياً . لم تكن حُرّة قطّ لتشعر بالمرح الكامل ، بل كان في أعماقها سخط لا يطاق ، وكانت تعتقد أنه لا ينبغي لها أن تشعر به ، وكانت تكره الإحساس به ما زاده سوءاً . ولم تكن تدرك على الإطلاق مبعث هذا السخط .

أمّا في البيت فقد كانت نزقة بحق ووقحة إلى حد شنيع مع العمة سيسي . وفي الواقع أصبح طبع إيفيت العنيف مضرب الأمثال في الأسرة .

وأمّا لوسيل ، التي كانت دائماً أكثر واقعية ، فقد حصلت على عمل في المدينة كسكرتيرة خاصة لرجل كان يحتاج إلى من يتكلم الفرنسية بطلاقة ويجيد الاختزال .

كانت تذهب وتعود كل يوم بالقطار نفسه الذي يستقله العم فرد ، لكنها لم تسافر بصحبته قط ، وسواء أكان الجو صحواً أم ماطراً كانت تذهب إلى المحطة على دراجتها بينما كان هو يذهب مشياً على قدميه .

كانت كلتا الفتاتين مصممتين على أن ما تريدانه حقّاً هو حياة اجتماعية مرحة فعلياً . كانتا تشعران باستياء كبير لكون الأبرشية مكاناً مستحيلاً بالنسبة إلى الأصدقاء ، فقد كانت هنالك أربع غرف فقط في الطابق السفلي : المطبخ ، حيث تقيم الخادمتان الساخطتان ، وغرفة الطعام المظلمة ، ومكتب القس ، وغرفة الجلوس «العائلية» الكبيرة

الكئيبة . وكان هنالك مدفأة غاز في غرفة الطعام ، على أنَّ غرفة الجلوس وحدها كانت تتمتع بنار قوية دائمة . طبعاً لأن الجدة كانت تحكم هنا .

في هذه الغرفة كانت الأسرة تجتمع في المساء ، وبعد تناول العشاء ، كان العم «فرد» والقس يلعبان دائماً الكلمات المتقاطعة مع الجدة .

ـ والآن يا أماه ، هل أنت مستعدة؟ (ن) ثم فراغ وفراغ وفراغ وفراغ : (و) : موظف سيامي .

ـ ماذا؟ ماذا (م) : فراغ وفراغ وفراغ ثم (و)؟

كانت الجدة ثقيلة السمع .

ـ لا يا أماه ! ليست (م) بل (ن) وفراغ وفراغ وفراغ ثم (و) : موظف سيامي .

ـ ماذا؟

ـ سيامي . سيام .

فقالت السيدة العجوز بصوت عميق وقد عقدت يديها على بطنها المستدير :

ـ موظف سيامي؟ وماذا يمكن أن يكون ذلك الآن؟

وشرع ولداها في تقديم اقتراحات أخذت تعلق عليها قائلة : «آ. آ» .

كان القس بارعاً في حل ألغاز الكلمات المتقاطعة بشكل مذهل ، أمّا فرد فقد كان يعرف بعض المفردات الفنية .

وعندما عجز الجميع عن الحل قالت السيدة العجوز :

ـ هذه بالتأكيد مسألة عسيرة وصعبة .

في هذه الأثناء كانت لوسيل تجلس في زاوية من زوايا الغرفة وقد وضعت يديها على أذنيها متظاهرة بالقراءة ، بينما كانت إيفيت ترسم بنزق وهي تُدندن بصوت عال ألحاناً ساخطة ، وذلك لتساهم في حفلة الأسرة الموسيقية .

وكانت العمة سيسي تتناول باستمرار قطعاً من الشوكولا ، بحيث يعمل فكّاها بدون توقف . كانت على ما يبدو تعيش على الشوكولا ، وضعت قطعة أخرى في فمها بينما كانت تجلس بعيدة عنهم وتصفّحت مجلة الأبرشية مرة أخرى ، ثم رفعت رأسها فوجدت أنه قد حان الوقت لإحضار كوب الدواء للجدة .

وحين نهضت فتحت إيفيت النافذة في سخط عصبي .

كان هواء الغرفة محتبساً لا يتجدد حتى خُيّل إليها أنها تفوح برائحة الجدة . وكانت الجدة ، التي تشكو من ثقل في السمع ، تسمع مثل ابن عرس عندما لا يراد لها أن تسمع . قالت :

ـ هل فتحت النافذة يا إيفيت؟ أعتقد أنه عليك أن تتذكري أنَّ في الغرفة أناساً أكبر منك سناً .

ـ الجو محتقن خانق لا يطاق ، ولا عجب إذا كنا جميعاً نصاب دائماً بنزلات البرد .

ـ إنني على ثقة من أن الغرفة كبيرة جداً ، وهنالك نار قوية تشتعل .

وارتجفت السيدة العجوز قليلاً وتابعت :

ـ هنالك تيار بارد كفيل بأن يوردنا جميعاً مورد الهلاك .

فصاحت إيفيت :

ـ إنه ليس تياراً على الإطلاق ، بل هو نسمة من الهواء العليل .

فارتجفت العجوز مرة أخرى وقالت :

ـ أحقاً؟

ومشى القس بهدوء إلى النافذة وأغلقها بإحكام دون أن ينظر في هذه الأثناء إلى ابنته . إنّه يكره أن يعارضها ولكنها يجب أن تعرف ما هو واجب .

واستمرت ألغاز الكلمات المتقاطعة التي اخترعها إبليس نفسه إلى أن تناولت الجدة دواءها ، وكان عليها بعد ذلك أن تذهب إلى الفراش ، وعندئذ حلت مراسم «تصبحين على خير» .

وقف الجميع ، وتحركت الفتاتان لتلقي العجوز العشواء ، ثم أعطاها القس ذراعه ، وتبعتهما العمة سيسي وهي تمسك شمعة . ولكن الساعة كانت قد بلغت التاسعة على الرغم من أن الجدة كانت فعلاً تتقدم في السن ، وعليها أن تأوي إلى الفراش في وقت أبكر ، بيد أنها عندما كانت ترقد في الفراش كان النوم يجافيها حتى تأتي العمة سيسي .

قالت الجدة :

ـ أتعرفين ! لم أنمْ بمفردي قط . لأربع وخمسين سنة لم أنَمْ ليلة واحدة دون أن تحيطني ذراع «الأب» ، وعندما رحل حاولت أن أنام بمفردي ، لكنني ما كدت أسبل أجفاني حتى كاد قلبي يقفز من جسدي ، ورقدتُ والوجيب يتملكني . يمكنك أن تعتقدي ما تشائين ولكنها كانت تجربة مريعة بعد أربع وخمسين سنة من حياة زوجية مثالية .

كنت دائماً أصلي لأموت أولاً ولكن «الأب» . . . حسناً ، لا أعتقد

أنه كان قادراً على تحمل ذلك .

وهكذا كانت العمة سيسي تنام مع الجدة ، وكانت تكره ذلك . كانت تقول إنها لم تكن تستطيع النوم أبداً ، وكانت تزداد شحوباً على شحوب ، ويزداد الطعام في المنزل سوءاً ، وكان لا بدّ من إجراء عملية جراحية لها .

بيد أن «الأم» كانت تنهض حوالى الظهر كالعادة ، وعند وجبة منتصف النهار كانت تترأس المائدة وهي على الكنبة ببطنها البارز ، ووجهها المُتذبذب المائل إلى الاحمرار ـ الذي يتّسم بنوع من الجلال المريع ـ يتدلّى برقة تحت جدار هامتها المرتفع ، وقد حدقت بعينيها الزرقاوين دون أن ترى شيئاً . كان شعرها الأبيض يقلّ وكان في مجموعه نُتفاً متناثرة . ولكنً القسّ كان يطلق نكاته لها بمرح وكانت تتظاهر بالاستنكار ، ولكنها كانت راضية تماماً وهي تجلس ببدانتها المتهدّلة وتطلق الريح من معدتها عقب الوجبات وتضغط بيدها على صدرها وهي تتجشأ في رضاً بدني فظ . وكان أشد ما يقلق الفتاتين هو أن الجدة ـ عندما كانتا تحضران أصدقاءهما الشباب إلى المنزل ـ كانت تجلس دائماً هنالك كوثنٍ مريع من اللحم الهرم ، مستأثرة بالاهتمام كله . كانت هنالك غرفةٌ واحدة فقط للجميع ، حيث كانت تجلس السيدة العجوز مع العمة سيسي التي تحرسها بعناية . يجب أن يُقَدَّم كل زائر إلى الجدة أوّلاً ، وكانت على استعداد لأن تكون أنيسة المعشر ، فقد كانت تهوى الصحبة . كان ينبغي أن تعرف مَنْ هو كل شخص ومِنْ أين أتى وكل ظروف حياته ، عندئذ وبعد أن تكون قد صارت علىَ علم بكل شيء ، يمكنها أن تسيطر على مجرى الحديث ، ولا شيء كان يثير سخط الفتاتين أكثر من هذا .

ـ أليس أمر السيدة سيول العجوز عجيباً؟ ! إنها حقاً تبدي اهتماماً بالحياة وهي في التسعين تقريباً !

فقالت إيفيت :

ـ إنها تُبدي اهتماماً بشؤون الناس إذا كانت تلك هي الحياة .

وعندئذ سرعان ما شعرت إيفيت بالذنب ، فقد كان شيئاً رائعاً قبل كل شيء أن يكون المرء في التسعين ولديه ذهن حاد كهذا . كما أن الجدة لم تؤذ أحداً «فعلياً» ، ولكن ما هو أكثر أذًى من ذلك أنها دائماً كانت عثرة في الطريق ، وربما كان من المريع إلى حد ما أن نكره أناساً لأنهم مُسنُّون ويقفون عقبة في طريقنا .

ندمت إيفيت على ما بدر منها في الحال وتعمّدت اللطف . وانطلقت الجدة تروي ذكرياتها عندما كانت فتاة يافعة في البلدة الصغيرة في «بكنغهام شاير» فثرثرت وثرثرت ، وكانت مسلية جداً ورائعة إلى حد ما . وعند الأصيل أتت لوتي وإيلاً وبوب فراملي مع ليو ويذريل .

ـ أوه . تفضلوا بالدخول .

فدلفوا جميعاً إلى غرفة الجلوس ، حيث كانت الجدة ، بقبعتها البيضاء ، تجلس قرب نار المدفأة .

ـ أقدم لك السيد ويذريل يا جدتي .

ـ السيد . . ماذا قلتِ؟ يجب أن تعذروني فأنا صمّاء قليلاً .

ومدّت الجدة يدها للشاب المرتبك وحدقت فيه بصمت ، ودون أن ترى سألته :

ـ ألست من أبرشيتنا؟

ـ فصاح :

ـ دنيغتون .

قالت إيلاّ في صوت خفيض :

ـ نودُّ القيام بنزهة غداً إلى «بُونسل هِدْ» في سيارة ليو . نستطيع أن نندس فيها جميعاً .

فسألت الجدة :

ـ هل قلت «بونسل هد»؟

ـ أجل .

وعمَّ صمت كامل للحظات .

ـ هل قلتِ إنكم ستذهبون في سيارة؟

ـ أجل ، في سيارة السيد ويذريل .

ـ آمل أن يكون سائقاً بارعاً . إنه طريق خطير جداً .

ـ إنه سائق بارع جداً .

ـ ليس سائقاً جيداً؟

ـ بلى ، إنه سائق ماهر جداً .

ـ إذا كنتم ذاهبين إلى «بونسل هد» فأعتقد أنني يجب أن أبعث برسالة إلى السيدة «لاوث» .

كانت الجدة تقحم اسم السيدة «لاوث» التعيسة هذه على الدوام عندما يكون هنالك لفيف من الناس .

صاحت إيفيت :

ـ لن نذهب من ذلك الطريق .

فقالت الجدة :

ـ أيّ طريق؟ يجب أن تذهبوا من طريق «هينر» .

وجلست المجموعة كالبطّ المحشو ـ على حد تعبير بوب ـ وهم يتململون في كراسيهم .

ودخلت العمة سيسي ، ثم جاءت الخادمة بالشاي ، وكانت هنالك تلك القطعة الأزلية الخالدة من الكعكة المُشتراة ، ثم ظهر صحن من الكعك الصغير الطازج .

كانت العمة سيسي في الواقع قد أرسلت في طلب الكعك من الفرن .

ـ الشاي يا أماه .

أمسكت العجوز بذراعي كرسيها ، فنهض الجميع ووقفوا ، بينما كانت تخطو ببطء عبر الغرفة متكئة على ذراع العمة سيسي إلى مكانها من المائدة .

في أثناء تناول الشاي دخلت لوسي عائدة من عملها في البلدة . كانت تبدو منهكة بوضوح ، وقد برزت علاماتٌ سود تحت عينيها ، وعندما شاهدت هذا الجمع كله أطلقت صيحة فرح . وما إن همدت الضجة واستمر الارتباك حتى قالت الجدة :

ـ لم تذكري لي أبداً يا لوسيل اسم السيد ويذريل . . أليس كذلك؟

قالت لوسيل :

ـ لا أذكر .

ـ لا يمكن أن تكوني قد ذكرته فالاسم غريب بالنسبة إليّ .

وانتزعت إيفيت بذهول كعكة أخرى من الصحن الذي كاد أن يفرغ تقريباً .

وأحسَّت العمة سيسي بالغضب الملتهب ينصهر في قلبها ، فقد كانت تصرفات إيفيت الغامضة ، التي لا تبالي بمشاعر الآخرين ، تقودها إلى الجنون ، فالتقطت صحنها وعليه الكعكة الوحيدة التي سمحت بها لنفسها وقالت في تهذيب لاذع وهي تقدمه لإيفيت :

ـ ألن تأخذي قطعتي؟

فقالت إيفيت وقد باشرت في تنفيس غموضها الخانق :

ـ شكراً .

ثم تناولت كعكة العمة سيسي بمظهر اللاّمبالاة نفسه ، وأردفت وكأنها أعادت التفكير فيما قالته عمتها :

ـ إذا كنتِ متأكدة من أنك لا تُريدينها .

أصبح لديها الآن كعكتان في صحنها ، بينما انقلب لون لوسي أبيض كلون الأشباح وهي تنحني فوق كأس الشاي . وجلست العمة سيسي وقد ارتسمت على ملامحها نظرة تائهة من الاستسلام السام ، وكان الارتباك في تلك اللحظة ألماً مُبرحاً .

لكن الجدة التي كانت قد تبوأت العرش بجثمانها الضخم قالت وسط الإعصار دون أن تدرك شيئاً ممّا يدور :

ـ إذا كنت ستذهبين بالسيارة إلى «بونسل هد» غداً يا لوسيل فأرجو أن تحملي مني رسالة إلى السيدة لاوث .

كانت السيدة لاوث بالنسبة إلى الأسرة بمثابة رأس الملك شارل ، تذكرها الجدة باستمرار لتسترعي انتباه الزوار .

فقالت لوسيل وهي ترمق العجوز العشواء بنظرة غريبة عبر المائدة :

ـ حسناً .

ـ لقد كانت لطيفة جداً في الأسبوع الماضي ، إذ أرسلت إليّ مع سائقها كتاباً لألغاز الكلمات المتقاطعة .

فصاحت إيڤيت :

ـ لكنك شكرتها على ما أذكر في ذلك اليوم!

ـ نعم ، وأحبّ أن أبعثَ لها برسالة .

فصاحت لوسيل :

ـ نستطيع أن نرسلها بالبريد .

ـ كلاّ . . أريدك أنت أن تحمليها إليها . عندما زارتني السيدة لاوث في المرة الماضية . .

كان الشباب يجلسون كسرب من الأسماك الصغيرة الي تحرك أفواهها الخرساء عند سطح الماء ، بينما استمرت الجدة تتحدث عن السيدة لاوث . أمّا العمة سيسي ـ وكانت الفتاتان تعرفان ذلك ـ فقد كانت لا تزال عاجزة وفاقدة الوعي تقريباً في نوبة من الغضب بسبب الكعكة ، وربما كانت المسكينة تصلي . وكان رحيل الأصدقاء رحمة ، ولكن الفتاتين كانتا عندئذ زائغتي البصر ، وحينئذ أدركت إيڤيت وهي تُجيل الطرف حولها إرادة النفوذ العنيدة المتحجرة في الجدة العجوز التي تتظاهر بالأمومة .

كانت تجلس جامدة في كرسيها وقد مال جثمانها إلى الخلف ، وترقّط وجهها العجوز المترجرج المائل إلى الاحمرار وهو فاقد الوعي تقريباً ، لكنه عنيد . كان وجهها كقناع يخفي شيئاً صلداً لا يلين .

كان ذلك هو الجمود الساكن لنفوذها المقيت . وعلى الرغم من ذلك وفي غضون دقيقة ستفتح فمها الهرم لتكتشف أدقّ التفاصيل عن ليو ويذريل .

كانت في تلك اللحظة مستغرقة في سبات شيخوختها وهرمها ،

لكنها سرعان ما ستفتح فمها ، وسرعان ما سيخفق ذهنها مستيقظاً ، وبما لديها من جشع نهم في الحياة ـ حياة الناس الآخرين ـ ستبدأ في التحقيق في أدق التفاصيل .

كانت كالضفدع العجوز الذي راقبته إيفيت وهي مسحورة ، وقد قبع على حافة خلية النحل أمام المدخل الصغير الذي كان النحل يخرج منه ، ليمسك في الحال في فكّيه الممدودين وبنهشة شيطانية خاطفة كالبرق كُلّ نحلة تخرج لتندفع إلى الهواء ، ويبتلعها واحدة تلو الأخرى ، وكأنه يستطيع ابتلاع ملء خلية بكاملها في ثنايا جوفه المتهدّل المنتفخ المتغضّن الذي يشبه حافظة النقود .

لقد ظل هذا الضفدع لأجيال كثيرة يبتلع النحل وهو يندفع مع هواء الربيع سنة بعد سنة وفصلاً إثْر فصل .

لكنَّ البستاني الذي نادته إيفيت استبدّ به الغضب فقتل الضفدع بحجر .

وقال وهو يهوي بالحجر عليه :

ـ قد تكونُ ذا نَفْعٍ في التخلّص من الحلزون لكنك لن تفرغَ خلية النحل في أحشائك .

كان اليوم التالي غائماً وكئيباً ، وكانت الطرقات موحلة مريعة ، إذْ ظل المطر ينهمر لعدة أسابيع ، ومع ذلك فقد انطلقت الصبيتان في رحلتهما دون أن تأخذا رسالة الجدة معهما ، فقد انسلّتا إلى الخارج بينما كانت الجدة تقوم برحلتها البطيئة إلى الطابق العُلوي بعد الغداء . فما كانتا لتذهبان إلى منزل السيدة لاوث مهما كان السبب .

لقد أصبحت تلك الأرملة ـ التي كان زوجها الطبيب قد حصل على وسام فارس ، والتي كانت طيّبة القلب ودودة في الواقع ـ إنساناً بغيضاً في حياتهما .

جلس ستة من الشبّان المتمردين الصغار في السيارة بغرور شديد ، بينا كانت السيارة تهسهس في الوحل . مع ذلك كانت نظراتهم شاحبة ، فقبل كل شيء لم يكن لديهم في الواقع ما يتمردون عليه . لقد تُركت لهم الحرية التامة في تحركاتهم ، وكان أهْلوهُم قد سمحوا لهم أن يفعلوا تقريباً كل ما يشاؤون ، فلم يكن يمسكهم قيد يحطمونه ، ولا قضيب سجن يبردونه ، ولا مزلاج يكسرونه . كانت مفاتيح حياتهم في أيديهم . وهناك كانت تتدلى بلا حراك .

إنّ اقتلاع قضبان السجن أسهل بكثير من فتح أبواب الحياة المجهولة ، وهذا ما يكتشفه الجيل الصغير في كدر . صحيح أن الجدة كانت هنالك ، ولكنك لا تستطيع عملياً أن تقول لتلك الجدة العجوز المسكينة : «ارقدي وموتي أيتها العجوز» . قد تكون مصدر إزعاج فظيع ، لكنها لم تقم في الواقع بأي شيء ضار ، ولم يكن من العدل أن يكرهها المرء لهرمها .

هكذا انطلق الشبان في رحلتهم محاولين أن يكونوا في أحسن حال . كان في مقدورهم أن يفعلوا ما يشاؤون ، ولذا ـ طبعاً ـ لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى الجلوس في السيارة والتعرض بالانتقاد للناس الآخرين ، مع كياسة غزلية سخيفة كانت مملة إلى حد ما .

تمنّوا لو كان هنالك «أوامر مشددة» ليتمردوا عليها ! ولكن لا شيء ، باستثناء رفض حمل رسالة الجدة إلى السيدة لاوث وهذا ما سيحظى باستحسان القس لأنه هو أيضاً لم يكن يشجع «رأس الملك شارل» .

كانوا يغنّون بشكل متقطّع تقريباً أحدث الأغاني ذات الطابع المضحك وهم يمرون عبر القرى الكئيبة . وفي الأراضي الفسيحة وقرب الطريق كانت الأيائل ، أيائل اليحمور والأيائل السمر ، تَسْتكنُّ في جماعات في ظلام الأصيل تحت أشجار البلوط على مقربة من الطريق ، وكأنما راقت لها صحبة الإنسان .

أصرت إيفيت على التوقف والخروج من السيارة للاقتراب منها . وخاضت الفتيات بأحذيتهنّ الروسية الأعشاب الرطبة ، بينما كانت الأيائل تراقبهن بأعين واسعة غير مذعورة . وخبّ الأيل الذكر مبتعداً في هدوء ، وقد رفع رأسه إلى الخلف لثقل قرنيه ، بيد أن الأنثى وازنت بين أذنيها الكبيرتين ، ولم تنهض من مكانها تحت الشجرة مع صغارها التي لم تبلغ ، إلاّ بعد أن كادت الفتيات يلمسنها .

بعد ذلك عدت مبتعدة بخفة وقد رفعت ذيلها عن إليتيها المُرقّطتين ، بينما راحت صغارها تخبّ برشاقة . وصاحت إيفيت عند ذلك :

ـ أليست رشيقة وظريفة إلى حد كبير ! إنك لتعجبين كيف

استطاعت أن تستلقي براحة تامة على العشب الرطب الكريه .

قالت لوسيل :

ـ أعتقد أنه كان عليها أن تستلقي لبعض الوقت ، والعشب جاف إلى حد ما تحت ظلال الشجرة .

ونظرت إلى العشب الممهّد حيث كانت الأيائل مستلقية ، ودنت إيڤيت وتحسّست بيدها ملمس العشب ثم قالت في شك :

ـ أجل ، أعتقد أنه دافئ قليلاً .

وتجمّعت الأيائل مرة أخرى على مبعدة بضعة ياردات ، وكانت تقف بلا حراك في ظلمة الأصيل . وعن بعد وتحت منحدرات الأعشاب والأشجار فيما وراء النهر الرشيق وجسره المسوّر ، تربّع البيت «الدوقي» الكبير ومدخنة أو اثنتان تطلقان دخاناً مائلاً إلى الزرقة ، ومن خلفه انتصبت غابات قرمزية .

وقفت الفتيات وقد رفعت كل منهن بيدها ياقة معطفها الفرائية حتى أذنيها ، بينما تدلت اليد الأخرى على طولها ، وهن يراقبن في صمت ، وكانت أحذيتهن الروسية الواسعة تحميهن من العشب المبلل . وفي الأسفل كان يجثم البيت الكبير المربع بلونه الرمادي المائل إلى لون «الكريم» .

وتبعثرت الأيائل في مجموعات صغيرة على مقربة منهن تحت الأشجار العتيقة ، وبدا كل شيء ساكناً وطبيعياً وحزيناً جداً . قالت إيلاّ :

ـ إني لأتساءل أين هو الدوق الآن؟

قالت لوسيل :

ـ ليس هنا على ما أظن . أتوقع أن يكون في الخارج حيث تشرق الشمس .

وارتفع بوق السيارة من الطريق ، وسمعوا صوت ليو يقول :

ـ هيـا أيهـا الأولاد ! إذا كنا نريد الوصـول إلى «بونسل هدْ» ثم النزول إلى «آمبرديل» لتناول الشاي ، فمن الأفضل لنا أن نتحركَ .

واحتشدوا مرة أخرى في السيارة بأقدام ترتجف من البرد ، وانطلقوا عبر المرعى مارين ببرج الكنيسة الصامت ، ثم اندفعوا عبر البوابات الكبيرة وفوق الجسر إلى قرية «وود لنكن» الحجرية الرطبة الواسعة حيث كان النهر يجري . وانطلاقاً من ذلك المكان بقوا مدة طويلة يعبرون في أوحال ورطوبة وظلام الوادي وقد انتصبت فوقهم في معظم الأحيان صخور عمودية ، حيث كان الماء يهدر من جهة ، ومن الجهة الثانية تطل صخرة منحدرة أو أشجار داكنة . وظلوا على هذه الحالة يسيرون عبر ظلام الأشجار المتدلية حتى بدأوا يصعدون ، وغيّر ليو سرعة السيارة ، وجهدت هذه ببطء في الصعود عبر الأوحال الرمادية المائلة إلى البياض ، ودخلت قرية «بول هيل» الحجرية التي كانت تقع على المنحدر حول الصليب القديم بدرجاته التي تنتصب عند تفرع الطريق ، وتابعت طريقها مارة بالأكواخ التي تصاعدت منها رائحة كعك الشاي الساخن الرائعة ، ثم تجاوزتها وهي تستمر صعوداً تحت الأشجار التي كان الماء يقطر منها ، مارة بمنحدرات نبات السرخس الوعرة ، وهي تصعد على الدوام ، حتى أصبحت الشقوق أقل عمقاً وأنتهت الأشجار ، وأصبحت المنحدرات على كل جانب عارية بأعشاب قائمة وأسوار حجرية جافة وخفيضة ، وظهرت «بونسل هد» للعيان . كانت المجموعة صامتة لبعض الوقت ، وعلى كل جانب من الطريق كان العشب ينمو ، ثم ظهر سياج حجري خفيض ، ثم بدا المنحنى المرتفع الذي يُفْضي إلى قمة الهضبة تَحدُّه الأسوار الحجرية

الجافة الخفيضة ، وفوقه السماء المنخفضة . وصاح ليو :

ـ هل نتوقف لحظة؟

فصاحت الفتيات :

ـ أوه . أجل .

وانسلّوا خارج السيارة مرة أخرى ليجيلوا الطّرف في الجوار . كانوا يعرفون المكان جيداً ، ولكن مع ذلك ، إذا ما جاء المرء إلى هنا فإنه يخرج من السيارة ليلقي نظرة . كانت الهضاب كمفاصل الأصابع ، وكانت الوديان إلى الأسفل بين الأصابع ضيقة ومنحدرة ومظلمة ، وكان في الأعماق قطار يتصاعد منه البخار وهو يتجه ببطء نحو الشمال . كان شيئاً صغيراً من العالم السفلي وكان صدى صوت المحرك يتردد باتجاه الأعلى على نحو غريب .

ثمَّ تناهى الصوت الكئيب المألوف لأعمال النسف في مقلع للحجارة .

وتحرك ليو الذي لم يكن يعرف للاستقرار طعماً بسرعة وقال :

ـ هل نمضي؟ هل ترغبون في النزول إلى «آمبرديل» لتناول الشاي أم نجرب مكاناً آخر أقرب منه؟

وصوّتوا جميعاً لصالح «آمبرديل» لوجود مقهى «المركيز غرانثام» فيه .

ـ حسناً . وفي أيّ طريق سنعود؟ هل نذهب عبر «كودنر» وفوق «كروسهل» أم نذهب عبر «آشبورن»؟

وكانت المشكلة المألوفة في كل مرة ، ثم قرروا في النهاية أن يتّبعوا طريق «كودنر» العلوي . وعندها انطلقت السيارة قُدُماً .

كانوا الآن فوق قمة العالم على ظهر قبضة اليد . كانت عارية أيضاً

كظهر قبضتك ، وعالية تحت السماء ، وقد امتد لون أخضر داكن كئيب ، إلاّ أنه كان مُعَرَّقاً بشبكة من الأسوار الحجرية القديمة التي تقسم الحقول ، تقطعها هنا وهناك خرائب مناجم الرصاص ومصانعه القديمة . وانتصبت مزرعة حجرية غير كثيفة بأشجار ست ، عارية وحادة . وبانت عن بُعد رقعةٌ من الحجر الرمادي الداخن كانت عبارة عن قرية صغيرة . وفي بعض الحقول كانت أغنام رمادية تقتات بصمت وسكينة . بيد أنه لم يكن ثمة صوت أو حركة ، كان المكان هو سقف إنكلترا ، وكان حجرياً ، وجافاً كأيّ سقف ، ومن ورائه وإلى الأسفل كانت مقاطعات إنكلترا . قالت إيڤيت لنفسها :

ـ ها أنا أرى المقاطعات الملونة .

وهي لم تكن ملونة هنا على كل حال . وانتشر فجأة سرب من الغربان لم يعرفوا من أين أتى ! كانت هذه الغربان تجثم وتلتقط طعامها في أحد الحقول العارية المُسمّدة .

وتابعت السيارة طريقها في ممر ضيق صاعد بين العشب والأسوار الحجرية . وكان الشبان صامتين وهم ينظرون إلى شبكة الأسوار الحجرية البعيدة تحت السماء باحثين عن المنحنيات الهابطة التي كانت تشير إلى انحدار أحد الأودية الخفية في الأسفل .

وكانت أمامهم عربة خفيفة يقودها رجل وبجانبه تمشي بتثاقل امرأة مسنة قوية البنية وقد حملت صرة على ظهرها . كان الرجل الذي في العربة قد أدركها ، وقد أصبح الآن في محاذاتها .

كان الطريق ضيقاً ، ما دفع ليو إلى إطلاق صوت بوق السيارة بشكل حاد . نظر الرجل الذي في العربة حوله ، ولكن المرأة التي

كانت تسير على قدميها مشت بجهد وثبات بسرعة إلى الأمام دون أن تدير رأسها .

ووجب قلب إيفيت ، كان الرجل الذي في العربة غجرياً من الجنس الأسود الذي يتسم بالوسامة ومرونة الجسد . ظل جالساً في عربته وهو يتلفت حوله محدقاً في ركاب السيارة من تحت حافة قبعته . كان يجلس باسترخاء ، وحملقته وقحة في لامبالاتها . كان ذا شارب أسود رفيع تحت أنفه النحيل المستقيم ، وقد عقد حول عنقه منديلاً حريريّاً كبيراً باللونين الأحمر والأصفر . مال وخاطب المرأة بكلمة ، فوقفت لحظة لتستدير وتنظر إلى ركاب السيارة التي أصبحت الآن قريبة تماماً . وأطلق ليو صوت بوق السيارة مرة أخرى بإلحاح ، فاستدارات المرأة ـ التي كان قد عُقد حول رأسها منديل أبيض ورمادي ـ على نحو حادٍّ لتحاذي العربة التي كان سائقها قد استقرّ مُسنداً ظهره وقد شدّ العنان وهزّ كتفيه الخفيفين المسترخيين . ولكنه مع ذلك لم يتنحَّ جانباً .

ودفع ليو بوق السيارة ليطلق صوتاً مدوّياً وهو يضغط على الكابح ، وأبطأت السيارة خلف مؤخّرة العربة ، واستدار الغجريّ بسبب الضجيج ضاحكاً بوجهه الداكن من تحت قبعته الخضراء القاتمة ، وقال شيئاً لم يسمعوه ، كاشفاً عن أسنان بيض تحت خط الشارب الأسود ، وقد أومأ بيده الداكنة المسترخية .

وصرخ ليو :

ـ تنحّيا عن الطريق إذاً !

وَرَدّاً على صراخه جذب الغجريّ عنان الحصان برقة حتى أوقفه ، وقد مال إلى جانب الطريق . كان حصاناً أغبر قويّاً ، وكانت العربة

جيدة وأنيقة بلون أخضر داكن . وكان على ليو أيضاً ـ في غيظ ـ أن يضغط بشدة على المكابح ويتوقف .

وقال الغجريّ الذي في العربة وكل ما فيه يضحك باستثناء عينيه السوداوين اليقظتين ، اللتين تنقّلتا من وجه إلى آخر وتلكأتا عند وجه إيڤيت الفتيّ الرقيق :

ـ ألا ترغب الأوانس الجميلات في سماع الطالع؟

والتقت عينا إيڤيت بعينيه السوداوين لثانية وهما تبحثان بنظرة مستوية ، بغطرستهما وعدم اكتراثهما الكامل ، بأناس مثل بوب وليو ، واشتعل شيء في صدرها ، وجال في خاطرها : «إنه أقوى مني . إنه لا يبالي» .

وهتفت لوسيل في الحال :

ـ أجل ، دعونا نسمع الطالع .

وقالت الفتيات في آن واحد :

ـ أجل .

فصاح ليو :

ـ وماذا عن الوقت؟

صاحت لوسيل :

ـ تبّاً للزمن الهرم ! هنالك من يجر الوقت من ناصيته على الدوام .

فقال ليو متصنّعاً الشجاعة :

ـ حسناً ، إن كنتم لا تعبأون بموعد رجوعنا فأنا أيضاً لا أعبأ بذلك .

كان الرجل الغجري يجلس باسترخاء على جانب عربته وهو يراقب الوجوه أمامه ، ثم قفز فجأة برقة من على حافة العربة بركبتين

صلبتين قليلاً . كان في الظاهر رجلاً جاوز الثلاثين بقليل ، وكان متأنقاً بطريقته المميزة . كان يرتدي نوعاً من سترات الصيد بصَفّين من الأزرار تصل حتى مفصل الورك فقط ، وهي من نسيج صوفي غليظ باللونين الأسود والأخضر الداكن ، وبنطالاً أسود ضيقاً إلى حد ما ، وحذاءً أسود وقلنسوةً خضراء داكنة ومنديلاً كبيراً مزداناً بالرسوم حول عنقه وقد امتزج فيه اللونان الأحمر والأصفر .

كان لباسه الخارجي أنيقاً بشكل غريب وباهظ الثمن في طرازه الغجري . كان وسيماً أيضاً ، يضغط بذقنه في غرور الغجر القديم ، وقد بدا واضحاً الآن أنه لم يعد يبالي بهؤلاء الغرباء وهو يقود حصانه الأغبر القويّ بعيداً عن الطريق استعداداً للرجوع بعربته . وللمرة الأولى رأت الفتيات موضعاً عميقاً في جانب الطريق وعربتين من عربات القوافل يتصاعد منهما الدخان . نزلت إيفيت من السيارة بسرعة ، وصادف الجميع فجأة مقلعاً للحجارة مهجوراً حُفر داخل منحدر في جانب الطريق .

وفي هذا المقلع المهجور الذي كان يشبه الكهف تقريباً وقفت ثلاث عربات وقد فُككت لقضاء فصل الشتاء . وكان هنالك في عمق المؤخرة مأوى شُيّد من الأغصان كإسطبل للحصان ، وقد ارتفعت الصخرة الرمادية الخام عالياً فوق العربات وانحنت منعطفة باتجاه الطريق . وكانت الأرض عبارة عن رقائق متكدسة من الأحجار التي نمت بينها الأعشاب . كان مخيّماً شتوياً مريحاً ومحجوباً عن الأنظار .

كانت المرأة المُسنّة التي تحمل الصرة قد دخلت إحدى العربات وتركت الباب مفتوحاً ، فيما كان طفلان يسترقان النظر إلى الخارج وقد كشفا عن رأسين أسودين .

أطلق الرجل الغجري صيحة نداء قصيرة وهو يرجع بعربته إلى داخل المقلع ، فخرج رجل كهل ليساعده على فك أربطة الحصان ، ثم صعد الغجريّ نفسه الدرجات إلى داخل أحدث العربات وكان بابها مغلقاً ، وإلى الأسفل كان كلب موثق يندفع إلى أمام . كان كلباً أبيض اللون مُرقّطاً بلون الكبد ، وقد أطلق زمجرة منخفضة عندما اقترب ليو ويوب منه . وفي اللحظة نفسها نزلت درجات العربة الحديثة امرأة غجرية داكنة الوجه وقد أحاطت رأسها بمنديل ، أو شال قرمزي ، وتدلّى قُرْطان ذهبيان كبيران من أذنيها ، وهي تهز تنورتها الخضراء الفضفاضة المُهدّبة . كانت وسيمة بوجه طويل داكن جريء إلاّ أنه كان ذئبياً قليلاً . بدت كإحدى الغجريات الإسبانيات المتبخترات ، قالت وهي تتفرّس في الفتيات بعينيها الثاقبتين الجريئتين :

ـ صباح الخير سيداتي وسادتي .

كانت تتكلم بلُكْنة أجنبية معينة . أجابت الفتيات :

ـ صباح الخير .

ـ أية سيدة جميلة صغيرة ترغب في سماع طالعها؟ لتعطني يدها الصغيرة .

كانت امرأة طويلة القامة تمد عنقها إلى الأمام بطريقة مفزعة كالمتوعّدة ، انتقلت عيناها بنشاط شديد من وجه إلى آخر وهي تبحث دون رحمة عمّا تريد . وفي تلك الأثناء ظهر الرجل الذي بَدَا من الواضح أنه زوجها عند أعلى درجات العربة وهو يدخن الغليون وبين ذراعيه طفل أسود الشعر . كان ينتصب على رجليه الرشيقتين وهو ينظر إلى الأسفل بشكل غَرَضي إلى المجموعة وكأنه على مسافة بعيدة منها ، وقد ارتفعت أهدابه السود الطويلة عن عينيه السوداوين

المغرورتين الوقحتين .

كان في نظرته شيء ثاقب أحسّت به إيڤيت ، أحسّت به في ركبتيها ، لكنها تظاهرت بالاهتمام بالكلب الأبيض المُرقّط بلون الكبد .

وسألت لوتي فراملي الغجرية ، وقد ارتدّ الشبان الستة إلى الخلف بنفور من هذه المرأة الغجرية :

ـ كم تريدين إذا أخبرتنا بالطالع جميعاً؟

فقالت المرأة بدهاء :

ـ كلكم؟ سيداتي وسادتي جميعاً؟

فصاح ليو :

ـ أنا لا أرغب في سماع طالعي . هيا باشري .

وقال بوب :

ـ ولا أنا أرغب في ذلك ، فقد أنتن أيتها الفتيات الأربع .

فقالت المرأة الغجرية وهي تتفرس فيهن بدهاء بعد أن ألقت نظرة على الشبان :

ـ السيدات الأربع؟

وحدّدت الثمن بقولها :

ـ تعطيني كل واحدة منكنّ شِلناً ، وزيادة طفيفة للحظ . . زيادة طفيفة . .

وابتسمت بطريقة هي أقرب إلى الذئبية منها إلى المُتملّقة . وشعر الجميع بقوّة إرادتها ثقيلة كالحديد تحت مخمل كلماتها .

قال ليو :

ـ حسناً . اجعليه شِلناً عن كل فتاة ولكن لا تطيلي في الحديث .

فصاحت لوسيل فيه :

ـ على رِسْلك يا هذا ! نريد أن نسمع طالعنا مفصّلاً .

وأخذت المرأة كرسيين خشبيين خفيضين من تحت عربة ووضعتهما قرب العجلة ، ثم أمسكت لوتي فراملي الفتاة الطويلة السمراء من يدها وأمرتها بالجلوس ، وقالت وهي ترفع نظرها إلى وجهها بطريقة غريبة :

ـ ألا تبالين إذا سمع كل شخص من الحاضرين؟

فاحمرت لوتي في عصبية ، بينما أمسكت المرأة الغجرية يدها ومسّدت راحتها بأصابع صلبة قاسية المظهر ، قالت :

ـ لا أبالي .

وأنعمت المرأة الغجرية النظر في راحة لوتي مُتَقفية خطوط اليد بسبابتها القاسية السوداء .

بيد أن المرأة بَدَتْ نظيفة . وببطء أخذت تقرأ لها الطالع بينما وقفت الأخريات يصغين وهن يواصلن الصياح :

ـ أوه . إنه جيم . . يا غالي . أوه . إنني لا أصدق هذا . أوه . هذا غير صحيح . امرأة شقراء تعيش تحت شجرة ! . . واعجبا ! ومَن تكون !؟

قال ليو بتحذير قويّ :

ـ توقفن أيتها الفتيات ! إنكن تفشين كل شيء .

وانسحبت لوتي خجلة مرتبكة ، وجاء دور إيلاً . كانت الغجرية أكثر هدوءاً ودهاءً وهي تحاول أن تقرأ كلمات الطالع . وظلت لوسيل تقطع الصمت بصياحها :

ـ أوه . . يا للعجب!

وعند أعلى الدرجات وقف الرجل الغجري رابط الجأش دون أي

تعبير على الإطلاق ، ولكنّ عينيه الجريئتين ظَلّتا تُحدّقان بإيڤيت . لقد أحست بهما على وجنتيها وعلى عنقها ولم تجرؤ على أن ترفع نظرها إلى الأعلى . بيد أن ليو كان يرفع نظره إليه أحياناً ويتلقى نظرة معبّرة من وجه الغجري الوسيم ومن العينين السوداوين المغرورتين المتغطرستين . كانت نظرة غريبة الأطوار من عينين كانتا تنتميان إلى قبيلة الوُضعاء ، نظرة تنمّ عن كبرياء المنبوذ وتحدي الطريد الذي يزدري الرجال الملتزمين بالقانون ثم يمضي إلى حال سبيله . وطوال الوقت كان الرجل الغجري يقف هناك حاملاً طفله بين ذراعيه وهو ينظر إلى الجمع دون اكتراث .

كانت لوسيل تصغي إلى قراءة طالع يدها ، قالت الغجرية :

ـ لقد عَبَرت البحر وهناك التقيت برجل ـ رجل كستنائي الشعر ـ ولكنه كان طاعناً في السن .

فصاحت لوسيل وهي تلتفت إلى إيڤيت :

ـ أوه . . يا للعجب ! !

غير أن إيڤيت كانت ذاهلة شاردة لا تكاد تنتبه وكأنها في إحدى حالات نومها المغناطيسي .

ـ ستتزوجين بعد بضع سنوات ـ ليس الآن بل بعد بضع سنوات وربما كانت أربع سنوات ـ ولن تكوني ثريّة غير أن الوفرة ستكون لديك ـ ما يكفي ـ وستبتعدين في رحلة طويلة . . طويلة .

فصاحت لوسيل :

ـ مع زوجي أم . . .؟

ـ معه .

وعندما جاء دور إيڤيت ، رفعت المرأة نظرها إليها بجرأة وقسوة

وهي تتفرس طويلاً في وجهها ، قالت بعصبية :

ـ لا أعتقد أنني أرغب في سماع الطالع . كلاّ ، لن أسمع طالعي . . لن أسمع طالعي يقيناً .

فقالت المرأة الغجرية بخشونة :

ـ هل أنت خائفة من شيء ما؟

فتململت إيفيت قائلة :

ـ لا ، ليس هذا هو السبب .

ـ ألديك سرٌّ ما تخفينه؟ أتخافين أن أفشيه؟ تعالي ، هل تريدين أن ندخل العربة حيث لا يسمع أحد ما أقول؟

كانت المرأة تلمّح إليها بصورة غريبة ، بينما ظلت إيفيت على عنادها صعبة المراس ، وقد بدت على وجهها الرقيق الفتي الواهن سيماء العناد التي أضفت عليها قساوة غريبة . قالت فجأة :

ـ أجل بإمكاني أن أفعل ذلك .

فصاح الآخرون :

ـ يا الله ! كوني رياضية الروح .

وصاحت لوسيل :

ـ لا أعتقد أنك تحسنين صنعاً بذلك .

فقالت إيفيت بطريقتها الطفولية :

ـ أجل . . سأفعل ذلك . . سأدخل العربة .

هتفت المرأة الغجرية بكلمات للرجل الواقف على الدرجات ، فدخل العربة لحظة ، أو اثنتين ، ثم عاد فظهر ثانية ونزل الدرجات ، حيث وضع الطفل الصغير على قدميه الرخوتين وقد أمسك به من يده . كان شديد التأنق بحذائه الأسود اللامع وبنطاله الأسود الضيق

وسترته الصوفية المحكمة ذات اللون الأخضر الداكن . مشى عابراً ببطء مع الطفل المتعثّر إلى المكان الذي كان فيه العجوز الغجريّ يطعم الحصان الأغبر بعض الشوفان في الحظيرة المُشيّدة من أغصان بين حفرتين من الصخور الرمادية ، وقد تناثر نبات السرخس الجاف على الأرض المغطاة برقائق الأحجار .

نظر الغجري إلى إيفيت وهو يعبر محدقاً في عينيها تماماً بنظرته القاسية الجريئة ، والتي كانت على الرغم من ذلك نظرة غير شريفة .

والتقى شيء صلب في داخلها بنظرته ، لكنّ سطح جسمها بدا وكأنه قد انقلب إلى ماء . ومع ذلك فقد سجل هذا الشيء في داخلها معالم وجهه الصافية المميزة وأنفه المستقيم الصافي ووجنتيه وصدغيه . وتحدّد لديها تحت السترة الخضراء نقاء جسمه الداكن الغريب الرقيق كله : نقاء كالسخرية الحية . وبدا لها وهو يخطر ببطء ماراً بها منتصباً على مفاصل وركيه المرنة أنه أقوى منها . ومن بين كل الرجال الذين شاهدتهم في حياتها كان هذا الرجل هو الوحيد الذي كان أقوى منها ، في نوع قوتها ، وفي نوع إدراكها .

وهكذا تبعت المرأة بفضول ، وهي تصعد درجات العربة ، وقد أخذت أردان معطفها البني الفاتح الأنيق المائل إلى الصفرة تتأرجح وتكاد تقريباً تظهر ركبتيها من تحت ثوبها الأخضر الباهت .

كانت لها ساقان طويلتان واسعتا الخطى وجميلتان وأقرب إلى النحول منهما إلى الاكتناز ، وقد ارتدت جوربين من صوف غريبي الطراز بلون بني باهت شبيهين بقائمتي حيوان رقيق .

وعند أعلى الدرجات توقفت إيفيت واستدارت بابتهاج نحو الآخرين قائلة بطريقتها البسيطة المتعالية في ارتجال :

ـ لن أدعها تطيل .

كانت ياقتها الفرائية الرمادية مفتوحة بحيث أظهرت حنجرتها الرقيقة وثوبها الأخضر الباهت ، كما كانت قبعتها الصغيرة المثنية ذات اللون المائل إلى الصفرة قد نزلت حتى أذنيها حول وجهها النضر الرقيق .

كان شيء ما رقيق يحوم حولها ، لكنه مع ذلك مستبدٌ ولا مبالٍ ، وأدركت أن الرجل الغجري قد استدار لينظر إليها . كانت تحسّ بمؤخرة عنقه السمراء الصافية وشعره الأسود المشذّب .

كان يراقبها وهي تدخل عربته .

*

لم يعرف أحد قط ماذا قالت لها الغجرية ، وإنّما شعر الجميع أنّ وقت الانتظار طال .

كان الشفق قد أخذ يشتد فوق الظلمة ومال الجو إلى البرودة والرطوبة ، وتصاعد من مدخنة العربة الثانية المجاورة دخان ورائحة طعام دسم . كان الحصان قد فرغ من تناول الشوفان وقد شُدّت حوله بطانية صفراء ، وعلى مسافة كان رجلان غجريان يتحدثان بأصوات خافتة .

كان ثمة إحساس غريب بالسكون والسرية في ذلك المقلع المنعزل المحجوب عن الأنظار . وأخيراً فُتح باب العربة وظهرت إيفيت وهي تنحني إلى الأمام تخطو هابطة الدرجات بساقيها الطويلتين النحيلتين الساحرتين ، وقد أحاط بها سكون سحريّ مطرق عند ظهورها في ضوء الشفق .

قالت في شيء من الغموض دون أن تنظر إلى أحد وقد احتفظت

بسرّها بصلابة داخل عنادها الرقيق الغامض :

ـ هل بدا لكم الوقت طويلاً؟ آمل ألاّ تكونوا قد شعرتم بالضجر ! ألن يكون الشاي لذيذاً الآن؟ هل نذهب؟

قال بوب :

ـ ادخلي أنت السيارة . سأدفع الأجر .

وتهادت المرأة الغجرية هابطة الدرجات بأردان ثوبها الصوفي الفضفاض الرنّان ذي اللون الأخضر المائل إلى الزرقة . انتصبت قامتها فبدت امرأة كبيرة السنّ بوجه ذئبي أسمر وقد رانت عليها ملامح المرأة الظافرة . وكان منديل الكشمير القرمزي ، والذي طُبعت عليه ورود حمراء ، ينساب على جانب واحد من شعرها الأسود المجعد ، وراحت تحدق في الشبان الصغار في ضوء الشفق بغطرسة جريئة .

وضع بوب في يدها قطعتي نقود من ذات نصف الكراون ، فتملقت كذئب يتحايل قائلة :

ـ أعطني المزيد من أجل الحظ ، من أجل حظ سيدتك الصغيرة ، قطعة أخرى من الفضة لتجلب لك الحظ .

قال بوب برزانة وهدوء بينما كانوا يبتعدون باتجاه السيارة :

ـ لقد حصلتِ على شلنٍ من أجل الحظ وذلك يكفي .

ـ قطعة صغيرة من الفضة . . قطعة صغيرة فحسب من أجل حظك في الحب !

فاستدارت حينذاك إيفيت للخلف ، بينما كانت تدخل السيارة ، وبإيماءات مجفلة طويلة ومفاجئة من أطرافها الطويلة ، وبيد طويلة ممدودة خطت ووضعت شيئاً ما في يد الغجرية ، ثم عادت فخطت إلى داخل السيارة وقد حنت قامتها .

وارتفع صوت المرأة المكشوف الساخر تقريباً وهي تقول :

ـ الرخاء للسيدة الصغيرة الجميلة ، وبركات الغجرية عليك .

وأزّ المحرك ، ثم أزَّ ثانية بضراوة أكثر وانطلقت السيارة . أضاء ليو الأنوار وسرعان ما انحسر المقلع والغجر غائصين في سواد الليل .

هتف صوت إيڤيت عندما انطلقت السيارة :

ـ تصبحون على خير .

كان صوتها الصوت الوحيد الذي تردّد مُغرّداً صفيقاً في لامبالاته . وحملقت مصابيح السيارة الأمامية في الزقاق الحجري .

صاحت لوسيل قائلة على الرغم من إرادة إيڤيت الصامتة في أنْ لا تُسأل :

ـ إيڤيت ! . . ينبغي عليك أن تخبرينا ماذا قالت لك تلك المرأة .

قالت إيڤيت بلطف زائف :

ـ لا شيء مهمّاً على الإطلاق . الشيء القديم المألوف فحسب : رجل أسمر ويعني حظاً حسناً ، ورجل أشقر ويعني حظاً سيئاً ، وموت في الأسرة ، وإذا كانت الجدة هي المقصودة فالأمر لن يكون مريعاً جداً . وسأتزوج عندما أبلغ الثالثة والعشرين ، وسوف تتكدّس لدي أكوامٌ من النقود وأكوامٌ من ألوان الحب وطفلان . كل ذلك له وقع ظريف جداً ، لكنَّ الأمر مُبالغ فيه جداً كما تعلمين .

ـ ولكن لماذا أعطيتها المزيد من النقود؟

ـ حسناً . لقد أردتُ ذلك . عليك أن تكوني نبيلة كريمة النفس سخيّة اليد مع مثل هؤلاء الناس .

وحدث أن ثارت في الأبرشية ضجة عارمة بسبب إيڤيت وصندوق النافذة . فقد كانت العمة سيسي ، بعد الحرب ، قد عقدت آمالها على نافذة زجاجية مزخرفة في الكنيسة كذكرى لشهداء الأبرشية ، بَيْد أن الغالبية العظمى من الذين سقطوا كانوا من المُنشقين ، لذا اتخذت الذكرى شكل نصب تذكاري صغير أمام مُصلّى «ويزليان» . ولكن هذا لم يفتّ في عضد العمة سيسي فراحت تعرض السلع وتقيم الأسواق الخيرية وتدفع الفتيات إلى تنظيم استعراضات مسرحية للهواة من أجل نافذتها الثمينة .

وأشرفت إيڤيت ـ التي كانت تهوى التمثيل إلى حد استعراض جزء منه ـ على المسرحية الهزلية المسماة «ماري في المرآة» ، وحصّلت العائدات التي كان يجب أن تدفعها إلى صندوق النافذة عند تسوية الحسابات . وكان من المفروض على كل واحدة من الفتيات أن يكون لديها حصّالة من أجل الصندوق ، وعندما أحست العمة سيسي أنّ المبالغ المُحصلة تكاد الآن تفي بالغرض ، طلبت على حين غرة حصّالة إيڤيت ـ وكانت تحوي خمسة عشر شلناً ـ فكانت لحظةً من الرعب غير المنتظر .

ـ أين الباقي كله؟

فقالت إيڤيت بكل هدوء :

ـ استدنته لتوّي . لم يكن المبلغ باهظاً جداً .

فسألتها العمة سيسي وكأنما فغر الجحيم فكّيه متثائباً :

ـ وماذا عن الجنيهات الثلاثة والشلنات الثلاثة عشر التي كانت حصيلة مسرحية «ماري في المرآة»؟

ـ بالضبط . . هي التي استدنتها لتوّي وبإمكاني أن أفيها .

مسكينة هي العمة سيسي ! . . لقد انفجر دُمّل الكراهية الدفينة في دخيلة نفسها ، وكان مشهداً شاذاً مروّعاً جعل إيڤيت ترتجف من الخوف والاشمئزاز . حتى القس كان صارماً إلى حد ما .

قال ببرود :

ـ إذا كنت قد احتجت إلى نقود فلِمَ لم تخبريني؟ هل سبق أن رُفض لك طلبٌ ممكن؟

فقالت إيڤيت متلعثمة :

ـ إنني . . إنني حسبتُ أنَّ الأمر غير ذي بال .

ـ وماذا فعلت بالنقود؟

فقالت إيڤيت بعينين واسعتين ذاهلتين ووجه شاحب :

ـ أعتقد أنني أنفقتها .

ـ أنفقتها على ماذا؟

ـ لا أستطيع أن أتذكّر كلَّ شيء : جوارب وأشياء ، وقد تبرّعت بجزء منها .

مسكينةٌ إيڤيت !

فقد أخذت سماتُ عظمتها وغطرستها ترْتد إليها بشدة .

كان القس غاضباً ، وقد ارتسمت على مُحياه ملامح شرسة وحانقة هي صنف من الهزء والازدراء . كان يخشى أن تكون ابنته قد ورثت بعض الطباع الفاسدة العفنة التي كانت تتصف بها «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» .

قال لها في نوع من السخرية المُهجنة الباردة التي أظهرت إلحاده المُطلق في أعماق قلبه :

ـ تتبجّحين بنقود غيرك ، أليس كذلك؟

دناءَةُ قلب لا نواة فيه للإيمان الدافئ أو الافتخار بالحياة ! لم يكن لديه أيُّ إيمان بابنته بكل ما بالكلمة من معنى . وتولّى الشحوبُ والذهول إيفيت ، وتقلصت كبرياؤها ـ تلك الشعلة الواهنة الثمينة التي حاول كل شخص أن يُخمدها ـ تقلّصت كما يتقلّص اللهيب بفعل ريح باردة وكأنما قد خمد . وبدا وجهها ـ الذي أصبح الآن أبيض اللون ولا يزال كزهرة اللهب الثلجية ، كزهرة غروره الثلجية البيضاء ـ وكأنما لا حياة فيه ، بل إنّ فيه هذا الذهول الغريب النقي فحسب .

وفكّرت في قرارة نفسها :

ـ إنه لا يؤمن بي . لست شيئاً في نظره في الواقع . فأنا لا شيء ، بل شيء مشين فحسب . كل شيء مهين . كل شيء مشين .

وما كان لموقف من الانفعال أو الغضب ـ الذي كان من الممكن أنْ يسحقها أو يثير غيظها ـ أنْ يحطّ من قَدرها كما فعل والدها بها ولا سيما في موقفه النهائي المتمثل بالهزء منها ، فقد أصبح خائفاً قليلاً في سكون الفكر المجدب . كان يحتاج قبل كل شيء إلى «مظهر» الحب والإيمان والحياة المشرقة ، ولم يكن ليجرؤ أبداً على مواجهة دودة إلحاده البدنية التي كانت تعيث في قلبه فساداً .

سألها :

ـ ماذا تقولين للدفاع عن نفسك؟

فاكتفت بالنظر إليه بوجهها الجامد الشبيه بزهرة اللبن الثلجية ، والذي أشاع فيه الخوف ، وبثّ فيه إحساساً يائساً بالذنب . كانت تلك الأخرى ، «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» ، تبادله نظرة الخوف الأبيض الخَدِر نفسه ، الخوف من إلحاده المُذلّ ، الدودة التي كانت هي نواة قلبه .

كان يعرف أنّ نواة قلبه كانت دودة بدنية مريعة ، وأنّ جُلّ ما كان

يخشاه أن يكون على أيٍّ شخص آخر أن يعرف حقيقة ذلك . كان ألم كراهيته المُبرح ضد كُلٍّ مَنْ علم بذلك ونأى عنه .

لقد رأى إيڤيت ترتد عنه ، فغيّر من أسلوبه على الفور ، وتصنّع الأسلوب القديم الدُنيوي الساخر المرح قائلاً :

ـ حسناً . . عليك أن تسددي المبلغ يا ابنتي . . هذا كل ما في الأمر . سأسلّفك المبلغ من مُخصصك ، لكنني سأتقاضى منك فائدة شهرية بمقدار ٤٪ . حتى الشيطان نفسه يجب أن يدفع نسبة مئوية على ديونه . وإذا كنتِ لا تستطيعين أن تثقي بنفسك مرة أخرى فلا تمسّي نقوداً ليست لكِ بعد اليوم ، فليس يجمل بالمرء أن يخون الأمانة .

بقيت إيڤيت مسحوقة ومصعوقة ومهانة . كانت تزحف هنا وهناك وهي تجرجر أذيال كبريائها . كان لديها نفور حتى من نفسها . آه ! لماذا مسّت هذا المال الملعون !

وتقلّص من ثمَّ جسدها تماماً وكأنه قد تَدَنّس . لماذا حدث ذلك؟ لماذا ، لماذا حدث ذلك؟

لقد أقرّت في قرارة نفسها بالخطإ لكونها أنفقت النقود . قالت لنفسها :

ـ لم يكن ينبغي عليّ بالطبع أن أفعل ذلك . إنهم على حق تماماً في غضبهم .

ولكن من أين جاءت قشعريرة جسَدها المريعة؟ ولماذا شعرت وكأنها قد أصيبت بعدوى مرض ما في جسدها؟

ووبّختها لوسيل . لقد كانت لوسيل المسكينة في غم شديد :

ـ إنَّ ما يجعلك سخيفة جداً يا إيڤيت هو أنك تهبين نفسك لهم جميعاً . كان بإمكانك أن تدركي أنهم سيكتشفون ذلك . كان في وسعي أن أجمع النقود لك وأوفر عليك هذا الإزعاج كله . إنَّ ذلك

غـاية في السـوء ، ولكنك لا تفكرين على الإطلاق بشكل مـسـبق أين ستَحطُّ بك أعمالك . تخيّلي العمة سيسي وهي تقول لك كل تلك الأشياء ! يا له من أمر مريع ! ماذا ستقول أمك لو سمعت بما حصل؟

عندما كـانت الأمـور تسوء كانت الفـتـاتان تفكران بأمـهـمـا وتزدريان أباهما وسلالة «سيول» الحقيرة بأسرها . وكانت أمهما في الحقيقة تنتمي إلى عالم أسمى وإنْ كان أشـد خطراً ، ولا «أخلاقيـاً» ، وبلا جدال أكثر أنانيـة ، ولكن بإيحـاء أكثر بريقـاً ، أكثـر تجريداً من المبادئ الخلقـيـة ، وأسهل انتقالاً إلى الازدراء ، لكنه ليس مُذلاً إلى هذا الحد .

كـانت إيڤيت تعتـبر دائماً أنهـا أخذت عن أمهـا جسـدها الرقيق المرهف ، أمّـا آل «سـيـول» فـقـد كـانوا ذوي جلْد خشن بعض الشيء وقـذرين في مكان مـا من الـداخل . ولكنَّ آل «سَـيـول» بعـد ذلك لا يتـخلّون عنك مطلقـاً ، في حين أنَّ «المرأة الرقـيـقـة التي كـانـت تدعى سنثيا» قد تخلت عن القس بفضيحة مدوية ، وعن طفلتيه الصغيرتين ، طفلتيهـا الصغيرتين . لم يكـن في مقـدور الفتـاتين أن تسامحاها تماماً . وعلى نحـو غـامض فـحـسب ، وإثرَ هذا الشـجـار ، بدأت إيڤـيت تعي القـدسيـة الأخرى لذاتهـا ، قدسية جسدها الحسـاس النظيف ودمـهـا ، والذي أفلح آل «سيول» «بأخلاقيتهم» المزعومة في تدنيسه . كانوا دائماً يريدون أن يُدنسوه ، كانوا غيـر مؤمنين بالحياة ، في حين أنَّ «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» ربما كانت غير مؤمنة بالأخلاق فقط .

وشرعت إيڤيت في الذهول والانكماش والارتباك .

ودفع القس النقود للعمة سيسي ما أثار حنق تلك السيدة الشديدة . كان دمّل غـضبها اليائس لا يزال يسيل قيحاً . كانت تريد أن تعلن عن إثم ابنة أخيهـا في مـجلة الأبرشية ، وكان الألـم يبرّح هذه المرأة المحطمة كونها لـم تستطع أن تنشر الخبر للعالم كله .

إنها الأنانية ! الأنانية ! الأنانية !

ثم سلّم القس ابنته حساباً صغيراً كان معه هو دَيْنها والفائدة المترتبة عليه والمبلغ المقتطع من مخصصها القليل ، ولكنه أضاف جنيهاً إلى رصيدها ، وهو قيمة الغرامة التي كان عليه أن يدفعها لاشتراكه في الجريمة . قال لها مازحاً :

ـ بصفتي والد المتهمة فأنا محكوم بغرامة جنيه ، وبذلك أنفض الرماد عن شعري .

كان دائماً كريماً فيما يتعلق بالنقود ، لكنه إلى حد ما كان يبدو أنه يعتقد ـ بكونه سخياً في النقود ـ أنه يستطيع بصورة مطلقة أن يسمي نفسه رجلاً كريماً ، في حين أنه كان يستخدم النقود ، والكرم أيضاً ، لإحكام قبضته عليها .

لكنه ترك القضية بأسرها تتلاشى بعد ذلك . وكان في هذا الوقت منشرح الصدر ـ هذا إذا استقَيْنا حكُمنا من المظاهر الخادعة ـ كان يعتقد أنه لا يزال في مأمن .

إلاّ أن العمة سيسي على أية حال لم تستطع أن تتعافى من تشنجها .

ففي ليلة ، أوت إيفيت إلى الفراش وهي تشعر بالتعاسة ، وفي وقت مبكر إلى حد ما ، وكانت لوسيل في حفلة خارج المنزل ، وفيما كانت تستلقي بأطرافها الهزيلة اللينة التي آلمتها في نوع من الخَدَر والخور ، إذْ بالباب يُفتح في هدوء ، لتبدو العمة سيسي وهي تدفع برأسها الكئيب من خلال فرجة الباب ، فارتدعت إيفيت .

وفَحَّ فجأة فم العمة سيسي المسعورة :

ـ أيتها الكاذبة ! أيتها اللصة ! أيتها المتوحشة الصغيرة الأنانية ! أيتها المنافقة الصغيرة ! أيتها الكاذبة ! أيتها المتوحشة الأنانية ! أيتها المتوحشة الصغيرة الجشعة !

كان ثمة كراهية شاذة مجردة وشديدة تحت ذلك القناع الأخضر الكئيب وتلك الكلمات المسعورة ، إلى درجة أن إيفيت فتحت فمها لتصرخ بهستيريا ، بَيْدَ أن العمة سيسي خرجت وأغلقت الباب بالطريقة الفجائية نفسها التي فتحته بها ، واختفت .

قفزت إيفيت من فراشها وأدارت المفتاح ثم زحفت عائدة وهي نصف مخبولة لخوفها من هذا الشذوذ القذر ، ونصف فاقدة الحس لشلل كبريائها المحطمة .

ووسط هذا كله تصاعدت إلى حلقها فقاعة من الضحك الذاهل . كان الأمر سخيفاً إلى هذا الحد من القذارة .

لم يُسِئ سلوكُ العمة سيسي هذا بشكل بالغ إلى الفتاة ، فقد كان خيالياً إلى حد ما قبل كل شيء . ومع ذلك كانت جريحة : في أطرافها ، في جسمها ، في جنسها . جريحة . . كانت جريحة وفاقدة الحس ونصف محطمة . وحدها أعصابها كانت تهتز وقد أثيرت . ولكونها لا تزال يافعة السنّ فقد تعذّر عليها إدراك ما حدث منذ لحظات .

وكل ما فعلته بعد أن خرجت العمة سيسي هو أنها استلقت وتمنت لو كانت غجرية لتعيش في مخيم أو عربة قافلة فلا تطأ قدماها منزلاً على الإطلاق ، ولا يدور في خلدها وجود أبرشية ، ولا تنظر إلى كنيسة مطلقاً .

كان قلبها قد تحجّر اشمئزازاً من الأبرشية . لقد مقتت هذه المنازل بوسائلها المنزلية الصحية وبحمّاماتها وما تثيره من قرف . مقتت الأبرشية وكل ما انطوت عليه من معان . كان ذلك النوع من حياة المجاري الآسنة برمتها عَفناً ، حيث لم تكنْ كلمة المجاري تُذكر مطلقاً ، بَيْد أنها كانت على ما يَبدو تفوح من المركز إلى كل نزيلٍ ذي ساقين

بدءاً من الجدة حتى الخدم .

وإنْ كان الغجر لا يملكون حمّامات فليس لديهم على الأقل مجار . كان ثمة هواء طلق ، أمّا في الأبرشية فلم يكن هنالك هواء طلق قطّ . وفي نفوس الناس ظل الهواء راكداً إلى أنْ أنْتن . وأجّجت الكراهية قلبها وهي مستلقية بأطراف خدرة .

وفكّرت بكلمات الغجرية :

ـ «هنالك رجل أسمر اللون لم يقطن منزلاً على الإطلاق ، إنه يحبك ، الناس الآخرون يدوسون قلبك ، سيدوسون قلبك إلى أن تعتقدي أنه أصبح ميتاً . ولكنّ الرجل الأسمر سينفخ على الشرارة الأخيرة في النار مرة ثانية ، النار الحامية . سترين أية نار حامية !» .

حتى عندما كانت المرأة الغجرية تقول ذلك لها أحست إيفيت بأنّ هنالك بعض النفاق في مكان ما ، لكنها لم تكترث . كانت تكره بكراهية الطفل الباردة اللاذعة باطن الأبرشية والنوع المتعفن من الحياة . ولقد أحبت تلك المرأة الغجرية الضخمة السمراء الشبيهة بالذئب ، أحبّت الحلقات الذهبية الكبيرة في أذنيها ، والوشاح القرمزي فوق شعرها الأسود المتموج ، وصدارها الضيق ذا المُخمل البني ، وتنورتها الخضراء الشبيهة بالمروحة ، وأحبت يديها الداكنتين القاسيتين القويتين ، واللتين ضغطتا بإحكام شديد كمخالب الذئب على راحة يدها الناعمة . لقد أحبتها ، أحبت خطرها وجرأتها الخفية ، أحبت جنسها الخفي العنيد الذي لم يكن أخلاقياً بيد أنه كان ذا كبرياء خاصة به ، متحدية وصلبة ، وما من شيء كان في مقدوره أن يخضع تلك المرأة .

إنها لجديرة بأنْ تحتقر الأبرشية وأخلاقية الأبرشية بصورة مطلقة ! !

وإنّها لقمينة بأن تخنق الجدة بيد واحدة !

وإنها لخليقةٌ بأن تحتقر أباها والعم «فرد» كرجلين ، بمثل احتقارها

للكلب «روڤر» كلب «نيو فاوند لاند» العجوز البدين ذي اللعاب السائل، احتقاراً أنثوياً تهكمياً كبيراً لمثل هذه الكلاب المُدجّنة التي تسمي نفسها رجالاً.

وارتعشت إيڤيت فجأة وكأنها رأت عينيه الكبيرتين الجسورتين مُركزتين عليها بالتلميح السافر، والرغبة الكامنة فيهما.

لقد جعلها هذا التلميح السافر بالرغبة إلى حد مطلق تستلقي منبطحة على الفراش فاقدة القوى، وكأن مخدّراً صبّها في قالب جديد مصهور. لم تعترف لأحد قط أن جنيهين من جنيهات صندوق النافذة المنحوس قد عرفا طريقهما إلى المرأة الغجرية. ماذا يحدث لو عرف أبوها والعمة سيسي هذه الحقيقة؟

وتحرّكت إيڤيت بتلذّذ في الفراش، فقد بث التفكير في الغجريّ الحياة في أطرافها وبلور في قلبها كراهيتها للأبرشية، ولذا شعرت الآن بالقوة والقدرة بدلاً من الضعف والوهن.

عندما أخبرت إيڤيت لوسيل فيما بعد بالفاصل المسرحي الذي أدّته العمة سيسي عند مدخل غرفة نومها، صاحت لوسيل ساخطة:

ـ فلتحلّ عليها اللعنة! بإمكانها أن تتجاهل الأمر. ينبغي أن أعتقد أننا سمعنا ما فيه الكفاية حتى الآن! يا للسماء!.. وأنت تعتقدين أنّ العمة سيسي طائر من طيور الجنة!.. لقد تجاهل أبي الأمر وقبل كل شيء. الأمر يخصّه هو إن كان لأحد أن يهتم به. فلتخرس العمة سيسي.

لقد كانت تلك الحقيقة بالذات، وهي أنّ القسّ تجاهل الأمر وعاد ثانية إلى معاملة إيڤيت الطائشة الغامضة وكأنها مخلوق ذو امتيازات خاصة، هي التي جعلت مرارة العمة سيسي تنزّ صفراءها باستمرار.

لقد كانت إيڤيت، في الواقع وفي معظم الأحيان، غير مدركة

لمشاعر الآخرين ، ولذلك لم يكن في مقدورها الاهتمام بهم ، وهذه الحقيقة كانت تدفع العمة سيسي تقريباً إلى الجنون .

لماذا ينبغي لتلك المخلوقة الصغيرة ذات الأم الآثمة أن تمضي قُدماً في الحياة كمخلوق يتمتع بامتيازات ، وهي التي كانت ولا تزال غير مدركة لوجود الناس الآخرين مع أنهم كانوا نُصْب عينيها مباشرة؟

كانت لوسيل في هذا الوقت سريعة الانفعال جداً . كانت تبدو وكأنها ببساطة قد فقدت توازنها منذ أن دخلت الأبرشية .

يا للوسيل المسكينة ! ! لقد كانت تنوءُ بعبء المسؤولية ، والتفكير إلى حد كبير .

كانت تقوم بالأعمال الإضافية المجهدة كلها ، فكانت تفكر بالأطباء والأدوية والخدم وما شابه ذلك من أمور . كانت تكدح بضمير حي في عملها طوال النهار في البلدة وهي تعمل في غرفة مُضاءة بنور اصطناعي من العاشرة صباحاً حتى الخامسة مساءً .

وكانت تعود إلى البيت لتثور أعصابها إلى حد الجنون تقريباً جرّاء فضول الجدة المُلحّ الرهيب ونزق شيخوختها المتطفّلة .

كانت قضية صندوق النافذة قد همدت ظاهرياً ، ولكن بقي هنالك توتر خانق في الجو ما أنذر باستمرار رداءة الطقس . وكانت لوسيل تلازم البيت في أصيل عطلة نصف يومها لأنها لم تكن لتعود على نفسها بالنفع .

كان القس في مكتبه ، وكانت لوسيل وإيفيت تحوكان ثوباً للثانية ، وكانت الجدة تنال قسطها من الراحة على أريكة . كان الثوب من المخمل الحريري الأزرق ، وهو فرنسي القماش ، وكان سيلائم إيفيت إلى حد كبير . وقد جعلت لوسيل إيفيت تجرّبه للمرة الثانية ، إذ كانت نزقة بصورة عصبية فيما يتعلق بطريقة انسيابه تحت الذراعين .

صاحت إيفيت وهي تمد ذراعيها الطويلتين الرقيقتين اللدنتين اللتين مال لونهما إلى الزرقة من البرد :

ـ تبّاً ! لا تكوني صعبة الإرضاء إلى هذا الحد المفرط يا لوسيل ! إنه على ما يرام تماماً .

ـ إنْ كان هذا هو كل الشكر الذي أتلقاه وأنا أهدر عطلة نصف يومي في الكدح من أجل صنع ثوب لك ، فالأجدر هو أن أصنع شيئاً لنفسي .

فقالت إيفيت برقتها التي تثير الغضب وهي ترفع مرفقيها العاريين وتحدق من فوق كتفها في المرآة الطويلة :

ـ حسناً يا لوسيل . تعرفين أنني لم أطلب منك ذلك أبداً ، وتعلمين أنه ليس في وسعك إلاّ أن تشرفي عليه فعلاً .

فصاحت لوسيل :

ـ أوه . أجل . لم تطلبي مني ذلك أبداً ! وكأنني لا أعرف ماذا قصدت عندما بدأت تتنهّدين وتتخبّطين .

فقالت إيفيت في دهشة غامضة :

ـ أنا؟ متى بدأت أتنهد وأتخبط؟

ـ طبعاً تعرفين . . أنك فعلت ذلك .

ـ أنا؟ كلاّ . لم أعرفَ . متى كان هذا؟

كان في مقدور إيفيت أن تُقحم إزعاجاً مميزاً في أسئلتها التائهة الباردة .

فقالت لوسيل بصوتها المُدوّي والمتميز غيظاً :

ـ لن أعمل أيّ شيء آخر في هذا الثوب إذا لم تقفي في سكون وتتوقفي عن الكلام .

قالت إيفيت وكأنها تقف على آجرّ ساخن :

ـ أتعرفين أنك نزقة ونكدة إلى أفظع حد يا لوسيل؟

فصاحت لوسيل وقد أومضت عيناها فجأة بوحشية في وجه أختها :

ـ والآن يا إيڤيت ! اصمتي فوراً . لماذا ينبغي على كل شخص أن يتحمل مزاجك المستبد البغيض؟

فقالت إيڤيت وهي تتلوى ببطء لتخرج جسدها من الثوب الذي لم يكتمل وتلبس ثوبها القديم مرة أخرى :

ـ حسناً . إنني لا أعرف شيئاً عن مزاجي .

ثم عادت لتجلس إلى المائدة في ذلك الأصيل المعتم وقد ارتسمت على وجهها نظرة عنيدة ، وبدأت تخيط القماش الأزرق .

كانت الغرفة ممتلئة بالقصاصات الزرق ، وكان المقص على الأرض ، كما كانت قد اندلقت محتويات سلة الخياطة في فوضى على جميع أنحاء المنضدة ، وعلى البيانو كانت مرآة أخرى قد وضعت بشكل مهدد بالسقوط . أمّا الجدة التي كانت في شبه سُبات أسْمَته إغْفاءة فقد استيقظت على الأريكة الكبيرة الوثيرة وارتدت قَلنسوتها في الحال . وقالت وهي تتحسّس ببطء شعرها الأبيض الخفيف لتتحقق من أنه على ما يرام .

ـ إنني لا أنال السكون المناسب لقيلولتي .

كانت قد سمعت أصواتاً غامضة . ودخلت العمة سيسي في تلك اللحظة وهي تبحث في حقيبة عن بعض حبات الشوكولا ، وقالت :

ـ لم أرَ مثل هذه الفوضى أبداً من قبل . من الأفضل يا إيڤيت أن تُزيلي بعض تلك القصاصات .

فقالت إيڤيت :

ـ حسناً . سأفعل ذلك في غضون دقيقة .

فقالت العمة سيسي ساخرة وهي تندفع فجأة كالسهم لتلتقط المقص :

ـ هذا يعني أنك لن تفعلي ذلك أبداً .

وخيّم الصمت لحظات قليلة ، دفعت لوسيل في أثنائها يديها ببطء خلال شعرها وهي تقرأ كتاباً .

وألحّت العمة سيسي ثانية :

ـ من الأفضل أن تزيلي كل شيء يا إيڤيت .

فأجابت إيڤيت وهي تنهض مرة أخرى لترفع الثوب الأزرق فوق رأسها ، وتدفع ذراعيها الطويلتين العاريتين من خلال فتحتي اليدين في الثوب الذي لا كمّين له :

ـ سأفعل ذلك قبل موعد تناول الشاي .

ثم وقفت بين المرآتين لتتأمل نفسها مرة أخرى ، وفيما هي تفعل ذلك دفعت المرآة الثانية التي كانت قد وضعتها دون حرص على البيانو ، فانزلقت على الأرض في جلبة ، لكنها لم تنكسر لحسن الحظ ، بَيْد أنّ الجميع أجفلوا إلى حدّ بعيد .

صاحت العمة سيسي :

ـ لقد هشّمت المرآة .

وتناهى صوت الجدة الحاد :

ـ هَشّمت المرآة ! أية مرآة ! من الذي هشّمها؟

وانبعث صوت إيڤيت الهادئ :

ـ لم أهشم شيئاً . المرآة سليمة تماماً .

قالت لوسيل :

ـ من الأفضل ألاّ تضعيها هناك مرة ثانية .

وحاولت إيڤيت أن تضع المرآة في مكان آخر وهي تهز كتفيها هزة

تعبر عن برمها بكل تلك الضجة . لكنها لم تفلح في ذلك ، فقالت في نزق :

ـ لو كان لدى المرء نار للتدفئة في غرفته لما احتاج إلى مجموعة من الناس تضج من حوله عندما يريد أن يخيط .

وسألت الجدة ثانية :

ـ أية مرآة هذه التي تحركينها هنا وهناك؟

قالت إيفيت في وقاحة :

ـ إحدى المرايا التي تخصنا نحن والتي أحضرناها من الأبرشية .

فقال الجدة :

ـ لا تكسريها في «هذا» المنزل أيّاً كان المكان الذي أتت منه .

كان هناك ثمة نوع من الكره العائلي الجماعي للأثاث الذي يخص «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» ولذا فقد أُبعد معظمه إلى المطبخ وغرف نوم الخدم .

قالت إيفيت :

ـ أنا لا أؤمن بالخرافات بخصوص المرايا أو ما شابه ذلك من أمور .

فقالت الجدة :

ـ ربما كنت لا تؤمنين بذلك ، فالناس الذين لا يتحمّلون مسؤولية أعمالهم لا يكترثون عادة بما يحدث .

قالت إيفيت :

ـ قبل كل شيء يمكنني القول إنها مرآتي الخاصة حتى لو كسرتها فعلاً .

فقالت الجدة :

ـ وأنا أقول لن يكون هنالك مرايا تُكسر في «هذا» المنزل ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، بغَضّ النظر عمّن تخصه أو كانت تخصه .

سيسي! . . هل قبعتي في وضع حسن؟

فدنت العمة سيسي منها وعدّلت من وضع قبعتها . وراحت إيڤيت تترنم في صوت مرتعش عالٍ بلحن ناشز ومثير للغضب .

قالت العمة سيسي :

ـ والآن ، هَلاّ قمتِ يا إيڤيت بتنظيف المكان؟

فصاحت إيڤيت بغضب :

ـ تَبّاً! إنه لمن المريع حقاً أن يعيش المرء مع مجموعة من الناس الذين يضجّون ويشتكون لأسباب تافهة .

فقالت العمة سيسي بطريقة تُنذر بشَر :

ـ أيمكنني أنْ أسأل من هم هؤلاء النَاس؟

وأوشك شجار آخر بين الاثنتين أن يَنْشب . ونظرت لوسيل إلى الأعلى وفي عينيها نظرة غريبة . كان دم «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» قد غلى في الفتاتين .

فقالت إيڤيت بحنق :

ـ طبعاً يمكنك أن تسألي . تعرفين تماماً أنني أقصد الناس في هذا المنزل البغيض .

فقالت الجدة :

ـ على الأقل نحن لا ننحدر من سلالة نصف فاسقة .

وخيّم الصمت المكهرب لمدة ثانية واحدة ، ثم شَبّت لوسيل من مقعدها الخفيض والشرر يتطاير من عينيها ، وصرخت في انفجار عنيف فوق رأس السيدة العجوز ذات الجلالة المزركشة :

ـ اخرسي .

وبدأ صدر العجوز يجيش بمشاعر لا تعرفها إلاّ السماء . وكان الصمت ، هذه المرة ، كالصمت الذي يعقب الصاعقة ، جليدياً .

ثم وثبت العمة سيسي على لوسيل وهي ممتقعة الوجه ، وراحت تدفعها في غضب وضراوة ، وهي تصيح بصوت أجشّ :

ـ اذهبي إلى غرفتك . اذهبي إلى غرفتك .

واستمرّت تدفع لوسيل التي أصبحت بيضاء اللون ولكن بعينين ناريتين خارج الغرفة . وتركت لوسيل نفسها تُدفع بينما كانت العمة سيسي تصرخ :

ـ ابقي في غرفتك حتى تعتذري عن هذا ! حتى تعتذري للأم عن هذا .

وتناهى صوت لوسيل الواضح من الممر بينما كانت العمة سيسي تبعدها :

ـ لن أعتذر .

وأخذت العمة سيسي تدفعها إلى الطابق العلوي في مزيد من الوحشية .

وقفت إيفيت في غرفة الجلوس بقامة مَديدة وقد رانت عليها مسحة الكبرياء الجريحة ، صامتة ومشدوهة في الوقتً نفسه . كان هذا شيئاً غريباً جداً عليها . كانت لا تزال عارية الذراعين في الثوب الأزرق الذي لم يكتمل ، وكانت هي أيضاً نصف مذعورة لهجوم لوسيل على جلالة السن ، لكنها كانت ساخطة ببرود لما ارتكبته الجدة من قذف بحق دم الأمومة الذي يسري في عروقها وعروق أختها .

قالت الجدة :

ـ طبعاً لم أقصد التجريح .

قالت إيفيت بفتور :

ـ حقاً؟

ـ طبعاً لم أقصد التجريح . فقط قلت إننا لسنا فاسقين لمجرد كوننا

اعتدنا على الإيمان بخرافة كسر المرايا .

وكاد يتعذّر على إيفيت أن تصدّق أذنيها . هل سمعت بشكل صحيح؟ هل كان ذلك ممكناً؟ أم أنّ الجدة وهي في مثل هذا السن كانت تتفوه بكذبة سافرة فحسب؟

كانت إيفيت تعرف أن المرأة العجوز تتفوه بكذبة صفيقة باردة ، لكنّ الجدة سرعان ما صدقت تماماً الرواية التي لفقتها هي نفسها .

وظهر القس الذي كان قد خصص وقتاً للراحة . وسأل بلطف وحذر :

ـ ما الأمر؟

وتشدقت إيفيت بالإجابة :

ـ لا شيء . . لقد طلبت لوسيل من الجدة أنْ تلزم الصمت وهي تقول شيئاً ما ، وقادتها العمة سيسي إلى غرفتها . «إنّها ضجة صاخبة من أجل شيء تافه» ، وإنْ كانت لوسيل قد تجاوزت الحد قليلاً .

ولم تستطع العجوز أن تستوعب تماماً ما قالته إيفيت ، فقالت :

ـ يجب أن تتعلم لوسيل فعلاً كيف تسيطر على أعصابها . لقد سقطت المرآة وأزعجتني . قلتُ ذلك لإيفيت فقالت شيئاً ما عن الخرافات والناس في هذا المنزل البغيض . فقلت لها إنّ الناس في هذا المنزل ليسوا فاسقين إذا حدث واكترثوا لكسر مرآة . وعندئذ هاجمتني لوسيل بعنف وأمرتني بالتزام الصمت . إنه لمن المُخزي حقاً أن يفسح لهؤلاء الأطفال في المجال لأعصابهم . أعتقد أن الموضوع موضوع أعصاب ولا شيء سوى ذلك .

وكانت العمة سيسي قد دخلت في أثناء هذا الحديث . وللوهلة الأولى لزمت الصمت ، ثم اتضح لها أن الأمر هو كما قالت الجدة . فقالت :

ـ حظّرت عليها النزول من غرفتها إلى أنْ تأتي وتعتذر للأم .

فقالت إيڤيت الهادئة الشبيهة بالملكة وقد شبكت ذراعيها العاريتين :

ـ إنني أشك في أنها ستعتذر .

فقالت السيدة العجوز :

ـ وأنا لا أريد أيَّ اعتذار . الموضوع موضوع أعصاب فحسب . لا أعرف ماذا سيحدث لهن إذا كانت أعصابهن كذلك وهنّ في هذا السن . يجب أن تتعاطى «الفيبروفات» . إنني متأكدة يا سيسي أنّ آرثر يريد أن يتناول الشاي .

ولملمت إيڤيت أشياءها المُعدة للخياطة لتصعد إلى الطابق العلوي . ومرة أخرى أخذت تترنّم بلحنها الصاخب والناشز إلى حد ما . كانت ترتجف داخلياً .

قال لها أبوها بلطف :

ـ المزيد من الأسمال؟

كانت تريد أن تواسي لوسيل وتسألها عن سبب انسياب الثوب الأزرق . وعند منبسط الدرج الأول وقفت كما كانت تفعل دائماً لتحدق عبر النافذة التي تطل على الطريق والجسر . ومثل «الليدي أوف شالوت» كان يبدو دائماً أنها تتخيّل أنَّ شخصاً ما سوف يأتي بحذاء النهر وهو يغني «تيراليرا» أو شيئاً ما يضاهي هذه الأغنية .

كان موعد تناول الشاي قد أزِف . وكانت أزهار اللبن الثلجية تتفتّح بحذاء الممر القصير الممتد من جانب المنزل إلى البوابة ، وعلى الأعشاب الرطبة المنحدرة باتجاه النهر كان البستاني يعمل بتأنٍّ في أحواض الزهر المستديرة المبتلة . وفيما وراء البوابة كان الطريق الموحل ، المائل إلى البياض ، يمتد ليعبر الجسر الحجري مباشرة على وجه التقريب ، ثم ينعطف منحنياً نحو الأعلى إلى القرية الشمالية الحجرية الوعرة ذات البيوت المتراصة والدخان المتصاعد ، والتي كانت تجثم إلى الأعلى من المصانع الحجرية القاتمة ، بحيث كان في مقدور إيفيت أن ترى مداخنها العالية طويلةً ومنتصبةً أمامها في أسفل الوادي .

كانت الأبرشية على أحد جانبي نهر «بابل» في الوادي الوعر تقريباً ، وفيما وراءها من الأعلى ، ونزولاً على الجانب الآخر من النهر السريع ، كانت القرية . وعند مؤخرة الأبرشية كان التل ينتصب منحدراً تكتنفه أيكة من أشجار اللاركس العارية القاتمة التي كان الطريق يختفي خلالها . ومباشرة عبر النهر ، ومن ناحية الأبرشية وفي الجانب المواجه للمنزل ، كانت ضفة النهر ترتفع وعرة مُشجّرةً إلى أن تصل إلى المراعي الموحشة المنحدرة التي كانت بدورها ترتفع منحدرة إلى جوانب التل المُشجرة القاتمة التي تتخللها صخور رمادية ناتئة . ولكن من طرف المنزل كان في وسع إيفيت أن ترى الطريق فقط وهو ينحني وراء السور المسيّج بالغار لينزل إلى الجسر ، ثم يصعد بدوره حول كتف التل إلى المجموعة المتراصّة الأولى من المنازل الصلبة في قرية «بابلويك» خلف الأسوار الحجرية الجافة المحيطة بالحقول الوعرة .

كانت تتوقع دائماً أن يهبط شيء ما على منحدر الطريق من قرية

بابلويك ، وكانت تتلكأ عند نافذة منبسط الدرج على الدوام . وغالباً ما كانت تأتي عربة أو سيارة أو شاحنة محملة بالأحجار ، أو يأتي عامل أو أحد الخدم ، ولكن لم يأت مطلقاً من يغني «تيراليرا» بحذاء النهر . ويبدو أن أيام «التيراليرا» قد ولّت .

ولكن في هذا اليوم ، على أي حال ، وحول المنعطف على الطريق الرمادي المائل إلى البياض وبين العشب والأسوار الحجرية الخفيضة ، برز حصان أغبر يجر عربة وهو يخطر بشجاعة ورشاقة هابطاً التل ، يقوده رجل ذو قلنسوة يجلس على مقدمة عربته الخفيفة .

كان الرجل يتمايل باسترخاء مع تمايل العربة ، فيما كان الحصان يخطر هابطاً التل في عتمة الأصيل الساكنة . في مؤخرة العربة كانت تبرز مكانس طويلة من القصب والريش وقد مالت برؤوسها على أعوادها القصبية .

وقفت إيفيت قرب النافذة وقد ضمّت ستائر النافذة خلفها وقبضت بشدة على عضديها العاريين بيديها . وعند سفح المنحدر بدأ الحصان يخبّ بنشاط نحو الجسر . وقرقعت العربة على الجسر الحجري واهتزت المكانس واختلطت ، بينما كان السائق يجلس وكأنه في نوع من أنواع الأخيلة وهو يتمايل إلى الوراء وإلى الأمام . كان المشهد شبيهاً بمشهد يراه المرء في الأحلام . ولكن الرجل عندما عبر نهاية الجسر ومَرَّ بمحاذاة سور الأبرشية رفع بصره إلى المنزل الحجري القاتم ، الذي كان يبدو كأنه قد ارتدّ مبتعداً عن البوابة عند أسفل الهضبة .

حرّكت إيفيت راحتيها بسرعة على ذراعيها ، وبالسرعة نفسها ومن تحت حافة قلنسوته الناتئة لمحها ، فقد كان وجهه الداكن الضاري متنبهاً . وأوقف العربة فجأة عند البوابة البيضاء وهو لا يزال يحدق إلى الأعلى نحو نافذة منبسط الدرج ، بينما كانت إيفيت ، وهي لا تزال قابضة على ذراعيها الباردتين المرقطتين ، لا تفتأ تحدق فيه بشرود .

أومأ برأسه في إشارة دقيقة سريعة وقاد حصانه على جانب الطريق فوق العشب ، ثم وبرشاقة ويقظة رفع الغطاء المشمّع عن العربة ، وأخرج العديد من الأدوات ، وسحب مكنستين طويلتين أو ثلاثاً من القصب أو ريش الديك الرومي ، وغطى العربة وسار باتجاه المنزل وهو يشخص ببصره نحو إيفيت في الأعلى ويفتح البوابة البيضاء .

أومأت له برأسها واندفعت إلى غرفة الحمّام لتضع ثوبها عليها ، وهي تتمنى لو أخفت إيماءتها بحيث يصعب عليه التأكد من أنها أومأتْ . وفي هذه الأثناء سمعت «روفر» الأحمق العجوز يهرّ بصوت عميق وأجشّ يقاطعه نباح الأبله الصغير «تركسي» ، وكانت وصلت مع خادمة البيت في اللحظة نفسها إلى باب غرفة الجلوس .

قالت إيفيت للخادمة :

ـ هل هو الرجل الذي يبيع المكانس؟

وفتحت الباب وهي تقول :

ـ أيتها العمة سيسي ! هنالك رجل يبيع المكانس فهل أذهب لأفتح الباب؟

قالت العمة سيسي التي كانت تجلس مع القس والأم لتناول الشاي ، فيما استُبعدت الفتاتان من الوجبة هذه المرة فقط :

ـ أيّ نوع من الرجال هو؟

قالت إيفيت :

ـ رجل ومعه عربة .

قالت الخادمة :

ـ غجري .

وهنا نهضت العمة سيسي على الفور . كان عليها أن تلقي نظرة على الرجل القادم .

كان الغجري يقف عند الباب الخلفي أسفل الضفة الوعرة القائمة

حيث كانت تنمو أشجار اللاركس ، وكانت تلوح من إحدى يديه المكانس الطويلة وتتدلّى من اليد الأخرى أشياء متنوعة من النحاس الأصفر والأحمر اللامع : مقلاة وشمعدان وأطباق من النحاس المطروق . كان الرجل بحد ذاته أنيقاً ورشيقاً ويكاد يكون خليعاً في قلنسوته الخضراء الداكنة وسترته ذات الصفين المكسوة بالمربعات . ولكنّ أسلوبه كان لطيفاً وهادئاً جداً وفي الوقت نفسه متكبراً بمسحة من التنازل والتحفظ .

قال وهو ينظر إلى العمة سيسي بعينين سوداوين ثاقبتين داهيتين ، ولكن بعد أن بَثَّ في صوته رقة بالغة الهدوء :

ـ هل ترغبين في شراء شيء اليوم يا سيدتي؟

ورأت العمة سيسي كم كان الغجري وسيماً . رأت انحناء شفتيه المرن تحت خط الشارب الأسود فاعتراها الارتباك . كانت مجرد إشارة خفية بالخشونة أو التجهّم من جانب الرجل ستجعلها تصفق الباب في وجهه باحتقار ، لكنه أفلح في الإيحاء بخضوع رقيق إلى حد بعيد في وجهه الذكريّ ، إلى درجة أنها بدأت تتردّد .

قالت إيفيت :

ـ الشمعدان جميل . هل صنعته أنت؟

ونظرت إلى الرجل بعينيها البريئتين الساذجتين اللتين كانتا قادرتين كقدرة عينيه على إضفاء المعاني المزدوجة .

ـ نعم يا سيدتي .

ونظر مرة أخرى إلى عينيها لحظة بذلك الإيحاء السافر بالرغبة والذي كان له وَقْع السحر عليها ، واستطاع أن يسرقها من إرادتها . وبدا وجهها الرقيق كأنه أخلد إلى السُّبات . فتمتمت بغموض :

ـ إنّه غاية في الجمال..

وبدأت العمة سيسي تساوم على شراء الشمعدان الذي كان يتكوّن

من ساق نحاسية سميكة ومنخفضة ترتفع من طاسة مزدوجة . وبتَرَفُّعٍ وأناة كانَ الرجل يصغي إليها دون أن ينظر قط إلى إيڤيت التي كانت تتكئ على ممرّ الباب وتراقب في تأمل وتفكير .

وسألته فجأة عندما دخلت العمة سيسي لتعرض الشمعدان على القس وتسأله فيما إذا كان يعتقد أنه جدير بالثمن :

ـ كيف حال زوجتك؟

نظر الرجل إلى إيڤيت ملء عينيه وقد غَضّنت شفتيه ابتسامةٌ لا تكاد تُرى .

ولم تبتسم عيناه بل اشتد فيهما الإيحاء فحسب إلى درجة البريق الساطع . وتمتم في صوت حميمي خافت ومُدغدغ :

ـ إنها على ما يرام . متى ستعبرين من ذلك الطريق مرة أخرى؟

قالت إيڤيت بغموض :

ـ لا أعرف .

قال :

ـ تعالي في أيام الجمعة عندما أكون هناك .

فحَدّقت من فوق كتفه وكأنها لم تسمعه . وعادت العمة سيسي بالشمعدان والنقود التي ستدفعها ثمناً له . فأشاحت إيڤيت مبتعدة دون اكتراث وهي تترنم بأحد ألحانها المتقطعة متخلّية عن الأمر كله بجفاء معيّن .

ومع ذلك توقّفت ، وقد اختبأت هذه المرة عند نافذة منبسط الدرج لتراقب الرجل وهو يذهب . كل ما أرادت أن تعرفه هو فيما إذا كان له أية سيطرة عليها . ولم تكن تريده أن يراها هذه المرة .

شاهدته وهو يتجه إلى البوّابة بمكانسه وقدوره ثم يخرج إلى عربته . رتّب قدوره ومكانسه بعناية وثبت الغطاء المشمع على العربة ، ثم وبوثبة بطيئة ، لا جد فيها ، من خاصرتيه المرنتين ، اعتلى العربة ثانية

وأمسك بعنان الحصان . وابتعد الحصان الأغبر في الحال فيما كانت عجلات العربة تطحن الطريق إلى أعلى التل ، وسرعان ما اختفى الرجل دون أن ينظر إلى الوراء . ذهب كالحلم الذي كان حلماً فحسب ، لكنها لم تستطع مع ذلك أن تنفضه عنها .

قالت لنفسها وقد خاب أملها في الواقع لأنها كانت تريد أحداً ما ، أو شيئاً ما ، يبسط سلطته عليها :

ـ كلاّ . ليست له أية سلطة عليّ .

ثم صعدت لتعاتب لوسيل المجدة الشاحبة وتوبخها على إفساحها في المجال لحالة اهتياج لا مسوّغ لها . قالت معُنّفة :

ـ ما نفع أن تطلبي من الجدة أن تلزم الصمت؟ يجب أن يُطلَبَ من أيٍّ شخص التزام الصمت عندما يكون جَلفاً . ولكنها لم تكن تقصد كما تعلمين . كلاّ لم تكن تقصد ذلك . وهي متأسفة تماماً لما قالته . ليس هنالك سبب على الإطلاق لإثارة جلبة . هلمّي ولنرتد ثيابنا ولنتهادَ كالدوقات إلى الأسفل من أجل العشاء . فلنأخذ مكانتَنا بتلك الطريقة . هلمّي يا لوسيل .

كان ثمة شيء غريب ومحيّر ـ كخيوط العنكبوت وهي تلفع الوجه ـ بخصوص مرح إيفيت الغامضة وابتعادها الضبابي الغريب عن كل ما ينغّص . وكان ذلك أمر يبعث على الابتهاج أيضاً ، ولكنه كان الخبط في ضباب الخريف عندما تهلّ على وجهك جدائل خيوط العنكبوت ولا تعرف تماماً أين أنت .

وعلى أي حال فقد أفلحت في إقناع لوسيل ، وأخرجت الفتاتان أبهى ما لديهما من ثياب الحفلات : لوسيل بثوب أخضر وفضي ، وإيفيت بثوب ليلكيّ باهت بخيوط من الحرير ذي اللون الفيروزي ، وقليل من أحمر الشفاه ومسحوق الوجه وأفضل خُفّين ، وعندئذ بدأت حدائق الجنة تزهر .

همهمت إيفيت ونظرت إلى نفسها وقد ارتسمت عليها مظاهر اللامبالاة والاستخفاف بالتقاليد إلى أبعد حد كواحدة من المركيزات الصغيرات .

كانت ذات طريقة غريبة في إمالة حاجبيها وزمّ شفتيها ، فبدت بكل المظاهر وقد فصلت نفسها عن كل اعتبار دنيوي وطافت على غيمة من ذخيرتها ذات الألوان اللؤلؤية . كان ذلك أمراً مسلياً غير أنه لم يكن مقنعاً تماماً .

قالت برقة متناهية :

ـ طبعاً أنا جميلة يا لوسيل وأنت رائعة تماماً ، وقد بدوت معاتبة قليلاً . طبعاً أنت الأكثر أرستقراطية بيننا ، كلتينا ، بأنفك . ، والآن تبدو عيناك معاتبتين ما يضفي عليك مسحة جذابة . وأنت جميلة تماماً تماماً ، ولكنني بطريقة ما أكثر جاذبية . ألا توافقين؟

واستدارت نحو لوسيل ببساطة محيّرة ماكرة . كانت بسيطة فعلاً فيما قالت . كان ذلك فقط ما كانت تعتقده . ولكنّ ذلك لم يعط أيّ تلميح إلى الشعور المختلف تماماً الذي كان أيضاً يشغلها : شعورها بأنها استُطلعت من الداخل ، من داخل ذاتها الأنثَوية الخفية ، وليس من الخارج .

كانت ترتدي ثيابها وتتجلّى في أبهى منظر لتقاوم التأثير الذي أحدثه الغجريّ فيها عندما نظر إليها ، فلم يَرَ أيّاً من وجهها الجميل وأساليبها الجميلة ، بل رأى فقط سر عذريتها المظلم القويّ المرتعش .

وبدأت الفتاتان تهبطان الدرج في أبهة عندما قرع جرس تناول العشاء ، لكنهما تريّثتا إلى حين سمعتا أصوات الرجال ، وعندئذ تهادتا نازلتين ودخلتا غرفة الجلوس وقد أخذت إيفيت تصلح من هندامها بطريقتها المبتهجة الغامضة وهي لا تزال شاردة الذهن قليلاً ، بينما كانت لوسيل خجولاً وعلى وشك أن تنفجر الدموع من عينيها .

وهتفت العمة سيسي التي كانت لا تزال ترتدي سترتها البنية الداكنة المنسوجة :

ـ يا إلــهي الرؤوف ! يا لها من رؤيا ! أين تخالان أنكما ذاهبتان؟

قالت إيڤيت بسذاجة :

ـ سنتناول العشاء مع العائلة . ارتدينا أفضل ما لدينا من الحلي الرخيصة على شرف هذه المناسبة .

فضحك القس بصوت عال ، وقال العم «فرد» :

ـ إنّ العائلة تشعر أن حضوركما شرف عظيم لها .

كان كلا الكهلين شهماً تماماً وهذا ما كانت تبغيه إيڤيت .

قالت الجدة :

ـ تعاليا ولتدعاني أتحسّس ثيابكما . هيا . هل هي أفضل ما لديكما؟ إنه لمن المخجل أنني لا أستطيع رؤيتها .

قال العم «فرد» :

ـ سيكون علينا هذه الليلة يا أمّاه أن ندعو السيدتين الصغيرتين إلى العشاء ونقوم بمراسم الشرف ، فهلاّ ذهبتِ مع سيسي؟

فقالت الجدة :

ـ سأذهب بالتأكيد ، فالجمال والشباب يجب أن يتصدّرا المكان .

قال القس مسروراً :

ـ حسناً يا أماه ، لهذه الليلة فقط .

وقدّم ذراعه إلى لوسيل ، بينما رافق العم «فرد» إيڤيت .

كانت الوجبة ثقيلة الوطأة ومُملّة واستمرت على المنوال نفسه . حاولت لوسيل أن تكون مرحة ودمثة المعشر ، وكانت إيڤيت في الواقع لطيفة المعشر أيضاً إلى أقصى حد بطريقتها الرقيقة الغامضة . كانت تتفكر في خلفية ذهنها في إبهام : «لمَ نحن جميعاً كقطع الأثاث الفانية فحسب؟ لماذا لا يوجد شيء هام؟» ، كانت تلك هي اللازمة المتكررة

في نفسها «لماذا لا يوجد شيء هام؟» .

وسواء أكانت في حرم الكنيسة أم في حفلة للشباب ، أم كانت ترقص في الفندق في المدينة ، كانت فقاعة السؤال الصغيرة تلك ترتفع مراراً على سطح وعيها : «لماذا لا يوجد شيء هام؟» .

كان ثمة عدد وافر من الشباب المستعدين لمبادلتها الحب ، وبإخلاص أيضاً . ولكن كان عليها أن تتخلص منهم وبنزق . لماذا كانوا على هذه الدرجة من التفاهة؟ ولماذا يبعثون على السخط هكذا؟

ولكنها لم تفكر في هذا الوقت بالغجريّ فقد كان حَدَثاً عرضياً تماماً . ومع ذلك فقد لاح اقتراب يوم الجمعة وبشكل غريب على قدر من الأهمية . قالت للوسيل :

ـ ماذا سنفعل يوم الجمعة؟

وأجابت لوسيل على هذا السؤال بقولها إنهما لن تفعلا شيئاً . فاغتاظت إيفيت وصمتت على مضض .

*

جاء يوم الجمعة ، وفكرت إيفيت طوال اليوم ـ على الرغم منها ـ بالمقلع البعيد عن الطريق في أعالي «بونسل هد» . أرادت أن تكون هناك ، وكان هذا كل ما كانت تريده . أرادت أن تكون هناك ، ولم يكن لديها حتى فكرة واضحة عن سبب الذهاب إلى ذلك المكان . إضافة إلى ذلك فقد عادت السماء تمطر .

ولكنها ، وبينما كانت تخيط الثوب الأزرق لتنهيه من أجل حفلة «لاملي كلوز» في اليوم التالي ، أحست تماماً أن روحها كانت هناك عند المقلع بين عربات القافلة مع الغجر .

وغابت عن جسدها ، عن هيكل جسدها ، كالمفقودة ، أو كَمَن سُلبت منها روحُها ، أمّا جوهر جسدها فقد كان هناك في المقلع بين عرَبات القوافل .

وفي خلال الحفلة في اليوم التالي لم يكن لديها فكرة عن كونها قد صارت لطيفة مع ليو ، ولم يخطر لها أنها كانت تنتزعه من إيلاً فراملي المُعذّبة . لم تكن تعي ذلك إلى أن قال لها وهي تتناول المثلجات المحلاّة بالفستق :

ـ لماذا لا نعقد خطبتنا أنت وأنا يا إيڤيت؟ إنني واثق تماماً أنه أفضل شيء لكلينا .

كان ليو مبتذلاً قليلاً ولكنه شاب طلق المحيا وميسور الحال . كانت إيڤيت تميل إليه حقاً ، ولكنْ أنْ تُخطَب له يا له من أمر سخيف تماماً ! شعرت وكأنها تقدم له طقماً من ملابسها الداخلية الحريرية ليخطب له . قالت في استغراب :

ـ ولكنني كنت أعتقد أن إيلاّ . . .

ـ حسناً ، كان ذلك من المحتمل لولاك . إنها أفعالك كما تعلمين ، فمنذ أن أخبرك أولئك الغجر بطالعك وأنا أشعر أنني لك وحدك دون سواي وأنك لي وحدي دون سواك .

فقالت إيڤيت وقد أضاعها الذهول ببساطة :

ـ حقاً ! . . حقاً . . !

فسألها :

ـ ألم تشعري بالإحساس نفسه تقريباً؟

وظلت إيڤيت تلهث بنعومة كالسمكة وهي تقول :

ـ حقاً !

فقال لها :

ـ لقد شعرت بالإحساس نفسه نوعاً ما . أليس كذلك؟

فسألته وقد تنبّهت من ذهولها :

ـ ماذا؟ حول ماذا؟

ـ نحوي ، كما أشعر نحوك !

ـ لماذا؟ ماذا؟ هل تقصد خطبتنا؟ أنا؟ لا! . . عجباً! كيف يمكنني ذلك؟ لم أستطع أبداً أن أحلم بشيء مستحيل كهذا .

كانت تتحدث بصراحتها المعهودة الطائشة دون أن تفكر بمشاعره على الإطلاق . فقال وقد أغاظه كلامها قليلاً :

ـ ما الذي كان يمنعك؟ لقد اعتقدتُ أنك فعلت ذلك .

فتنفست في ذهول بتلك الصراحة الغافَلة العَذرية الرقيقة التي جعلت من البعض معجبين بها ومن البعض الآخر أعداء لها ، وقالت :

ـ هل حقاً اعتقدت هذا؟

كانت ذاهلة إلى حد كبير ، لذا لم يكن لديه ما يفعله سوى أن يعبث بأصابعه في انزعاج . وبدأت الموسيقى تصدح فنظر إليها . . و

قالت وهي تستجمع نفسها وتحدق بجمع الراقصين بتَرفُّعٍ وكأنه لا وجود له :

ـ كلاّ . لن أرقص بعد الآن .

ثمة مسحة من الاستغراب المبهم كانت تنسحب على جبينها ، وفي الواقع أوحى وجهها العذري الغامض الرقيق بزهرة الثلج الكامنة في تخيّلات أبيها الحزينة .

قالت وهي تستدير إليه بتنازل نزق :

ـ ولكنك طبعاً سترقص . هلاّ طلبت من إحداهنّ أن ترقص معك؟

نهض ليو غاضباً وغادر الغرفة ، وبقيت هي دقيقة ممعنة في ذهولها : إلاّ أنْ يتقدّم ليو لخطبتها!!

كان يمكن أن تتوقع أيضاً أن يتقدم «روفر» العجوز ، كلب «نيو فاوند لاند» لخطبتها .

لن تُخطب لأيّ إنسان على سطح الكرة الأرضية! كلاّ بحق السماء . لا يمكن تخيُّل شيء أكثر مثاراً للسخرية من ذلك . وعندئذ وفي فكرة جانبية سريعة أدركت أن الغجريّ كان موجوداً! وتولاّها

الغضب للتوّ . هو ، من بين جميع من حولها؟ هو ! . . أبداً .

وسألت نفسها ثانية في ذهول مكبوت :

ـ لماذا الآن؟ لماذا؟ إنّ ذلك مستحيل بصورة مطلقة . . بصورة مطلقة . لمَ ذلك إذاً؟

كانتَ مسألة جدّ معقّدة . نظرت إلى الشبّان وهم يرقصون ومرافقهم إلى الأعلى ، وقد برزت أوراكهم وضمرت خصورهم في أناقة ، لكنهم لم يلهموها بحلّ لمشكلتها .

مع ذلك كانت تكره فعلاً ، وبصورة محدّدة ، الأناقة الاضطرارية للحضور والأوراك البارزة التي انسدلت فوقها السترات الأنيقة باختيار مُخنَّث كهذا .

قالت غاضبة في قرارة نفسها :

ـ ثمة شيء فيَّ لا يرونه ولن يروه .

وفي الوقت نفسه شعرت بالراحة لأنهم لم يروه ولم يستطيعوا أن يروه . لقد جعل ذلك الأمر الحياة أكثر بساطة إلى حد بعيد .

وبما أنها كانت واحدة من الذين يتحلّون بالوعي في الخيال البصري ، فقد شاهدت مرة أخرى السترة الخضراء الداكنة المنسدلة على بنطال الغجريّ الأسود ووركيه الجميلين الرشيقين المتنبهين كالعيون . لقد كان أنيقاً .

بينما بدت أناقة هؤلاء الراقصين متخمة جداً ، أوراكاً محشوة باللحم فحسب . وكان ليو على الموال نفسه يحسب نفسه راقصاً طريفاً ، ومثالاً للرجل الرائع .

ثم رأت وجه الغجري ، الأنف المستقيم ، الشفتين الرقيقتين المتحركتين ، والحملقة المغرية ذات المغزى من العينين السوداوين اللتين بدا أنهما تصيبانها في كيان حيوي لم يكتشف بعد ، دون أن تخطئا الهدف .

رفعت أنفها في غضب : كيف تجرأً على النظر إليها بتلك الطريقة؟ لذا حدّقت محملقة بهؤلاء المتأنقين التافهين فوق حلبة الرقص ، واحتقرتهم ، تماماً كما تحتقر الغجريات البوهيميات غير الغجر من الرجال ، ومشيتهم الشبيهة بمشية الطلاب في الشوارع . لقد وجدت نفسها تحتقر هذا الجمع . أين من بينهم ذلك التحدي الحاذق المنفرد المميّز الرقيق الذي يستطيع الوصول إليها؟

لم تكن ترغب في الاقتران بكلب منزلي .

ارتفع أنفها الحساس ، وانسدل شعرها الكستنائي الناعم كقناع رقيق حول وجهها النضير الشبيه بالزهرة ، فيما كانت جالسة تتأمل . لقد بدت غاية في العذرية ، وفي الوقت نفسه كانت تحيط بها مسحة من الساحرة العذراء الشابة الطويلة ، التي دفعت كلاب المنزل من الرجال على الإجفال منها . فقد تتحول إلى شيء غريب قبل أن تدرك أين كانت . وهذا ما حدا بها إلى التوحد على الرغم من كلمات الغزل كلها . وربما كان الغزل وحده ما جعلها تشعر بالوحدة أكثر فأكثر .

وعاد ليو الذي كان كلباً من كلاب الحراسة الضخمة بين كلاب المنزل هذه ، بعد انتهاء رقصته بشجاعة مرحة جديدة . وقال لها وهو يجلس إلى جانبها كشاب رخي البال موفور الصحة عاقد العزم :

ـ لقد فكرت قليلاً بما قلته ، أليس كذلك؟

لم تدرِ لماذا أغضبها كثيراً ، وإلى حد لا يطاق ، أن يشد بنطاله إلى الأعلى عنَد الركبتين فوق ساقيه اللتين كانتا متناسقتين ولكن غير متميزتين ، وأنْ يرمي نفسه بثقة على أحد الكراسي .

قالت :

ـ أنا؟ بخصوص ماذا؟

فقال :

ـ تعرفين بخصوص ماذا . فهل قررتِ؟

فسألت ببراءة :

ـ أقرر بخصوص ماذا؟

لقد نسيت الأمر حقاً في وعيها الخارجي . فقال ليو وهو يرتب بنطاله ثانية :

ـ أوه . بخصوص خطبتنا أنا وأنت كما تعلمين !

كان ارتجالياً مثلها تماماً . فقالت في وُد رقيق وكأنه سؤال شارد بين بقية الأسئلة .

ـ إنّ ذلك مستحيل بصورة مطلقة .

ثم ردّدت كطفلة بريئة :

ـ بل إني لم أفكر به حتى مرة ثانية أبداً . أوه . لا تتحدث عن ذلك الضرب من الهراء !! هذا النوع من الكلام مستحيل بصورة مطلقة .

فقال بابتسامة غريبة إزاء تأكيده الشارد الهادئ :

ـ ذلك النوع من الكلام مستحيل ! . . . أحقاً؟ حسناً ، ما هو النوع الممكن إذاً؟ إنك لا تريدين أن تموتي عانساً ، أليس كذلك؟

فقالت في شرود :

ـ لا أُبالي .

فقال :

ـ أمّا أنا فأُبالي .

فاستدارت نحوه ونظرت إليه باستغراب قائلة :

ـ لماذا؟ لما ينبغي عليك أن تبالي لو أصبحتُ أنا عانساً؟

فقال وقد رفع نظره إليها بابتسامة جريئة ذات معنى أراد أن يجعل معناها صارخاً إنْ لم يكن واضحاً :

ـ لكل سبب في العالم .

ولكن بدلاً من أن تنفذ ابتسامة ليو الواضحة والجريئة إلى مكان خفي وعميق في قلب إيفيت وتصيبها هناك ، أصابت جسدها من

الخارج فقط ككرة التنس ، وأحدثت ذلك النوع من رد الفعل المفاجئ المحنق .

فقالت في حقد شبيه بحقد الفتيات الوقحات :

ـ أعتقد أن هذا النوع من الكلام سخيف إلى أبعد حد . . فأنت في الواقع خاطب لـ . . لـ . .

وأمسكت نفسها في الوقت المناسب وقالت :

ـ لنصف دزينة ربما من الفتيات الأخريات . إنّ ما قلته لا يرضي كبريائي ، وإني لأكره أن يعلم به أيّ شخص . أكره ذلك . لن أنبس ببنت شفة عنه وآمل أن يكون لديك إحساس يمنعك من ذلك . ها هي إيلاّ .

وتهادت مبتعدة كزهرة طويلة ناعمة ، وقد أشاحت بوجهها عنه لتنضم إلى إيلاّ فراملي المسكينة .

ورمى ليو قفازه الأبيض وقال في قرارة نفسه :

ـ كلبة صغيرة شرسة !

ولكنه كان من صنف كلاب الحراسة الضخمة ، وكان يحب أن تتحداه إلى حد ما هذه الهرة الصغيرة . وبدأ منذ تلك اللحظة يسدد عليها بالتحديد .

هطل المطر بغزارة مرة أخرى في الأسبوع التالي ، وقد أصاب هذا إيفيت بغضب غريب . كانت تريد أن يكون الجو صحواً ، وقد أصرت بصورة خاصة على أن يكون الجو صحواً عند نهاية الأسبوع . ولكنها لم تسأل نفسها لماذا .

وجاء يوم الخميس ، عطلة نصف اليوم ، بصقيع شديد وشمس مشرقة . ووصل ليو بسيارته مع المجموعة المألوفة ، لكن إيفيت رفضت على نحو مهين ودون تسويغ أن تذهب . قالت :

ـ لا . شكراً . لا أشعر أني أرغب في الذهاب .

كانت على ما يبدو تستمتع بكونها خارجة على المألوف . وبعد ذلك خرجت بمفردها للنزهة فوق التلال المتجمدة على الصخور السود .

وجاء يوم الجمعة مشمساً وصقيعياً أيضاً . كان ذلك في شهر شباط/ فبراير ، ولكن في الريف الشمالي لا يذوب الجليد تحت أشعة الشمس ، فأعلنت إيفيت أنها ستتنزه على دراجتها وستأخذ معها غداءها ، حيث أنها قد لا تعود حتى الأصيل .

وانطلقت دون إسراع ، وعلى الرغم من شدة الصقيع كان للشمس مسحة من مسحات الربيع . كانت الأيائل في الأراضي الفسيحة تقف على بعد تحت أشعة الشمس التماساً للدفء ، وعبرت منها أنثى مرقطة بالبياض ببطء المنظر الطبيعي الساكن .

وجدت إيفيت ، وهي تقود الدراجة ، أنه من الصعب أن تُبقي

يديها دافئتين ، حتى وإنْ كان جسدها دافئاً تماماً ، إلاّ حين كان عليها أن تصعد مشياً على قدميها التل الطويل إلى القمة ، ولم يكن هناك ثمة ريح ، كانت الأرض المرتفعة عارية جداً وواضحة كعالم آخر .

وكانت إيڤيت قد صعدت إلى مستوى آخر من الأرض ، فقادت دراجتها ببطء خشية أن تخطئ الطريق في تلك المتاهة الشاسعة من الأسوار الحجرية . وبينما كانت تسير على طول الطريق ، الذي اعتقدت أنه الطريق الصحيح ، تناهى إلى سمعها صوت طَرقات خافتة برنين مَعْدني واهٍ .

كان الرجل الغجري قد افترش الأرض مسنداً ظهره إلى العربة وهو يطرق زبدية من النحاس . كان يجلس تحت أشعة الشمس عاري الرأس لكنه كان يرتدي سترته الخضراء ، وحوله كان يتحرك بهدوء ثلاثة أطفال صغار وهم يلعبون في حظيرة الحصان . أمّا العربة والحصان فلم يكونا موجودين . وكانت امرأة عجوز محنية الظهر ، وقد عُقد منديلٌ حول رأسها ، تطهو فوق نار من الحطب . وكان الصوتَ الوحيد المسموع صوت المطرقة الصغيرة ذات الطرقات السريعة التي كانت ترن تاب ـ تاب ـ تاب على النحاس الكليل .

رفع الرجل بصره في الحال عندما ترجلت إيڤيت عن دراجتها ، لكنه لم يتحرك على الرغم من توقفه عن الطرق . وارتسمت على وجهه ابتسامة انتصار رقيقة لا تكاد تُرى . ونظرت العجوز حولها نظرة حادة من تحت شعرها الرمادي القذر ، وتحدث الرجل إليها بكلمة نصف مسموعة فاستدارات ثانية نحو قِدرها ، ورفع هو بصره إلى إيڤيت .

سألته إيڤيت بتهذيب :

ـ كيف تسير أموركم جميعاً؟

فاستدار وهو لا يزال جالساً ، وسحب مقعداً خفيضاً من تحت عربة القافلة وقرّبه من إيفيت وقال :

ـ على ما يرام . هلاّ جلست دقيقة؟

ثم وبينا كانت تسير بدراجتها إلى جانب المقلع عاود الغجري الطرق ثانية بتلك الطرقات الخفيفة السريعة الخاطفة . واتجهت إيفيت إلى موقع النار لتدفئ يديها . وبينا كانت تمدّ يديها الرقيقتين الطويلتين المرقطتين بالاحمرار من البرد سألت العجوز الغجرية بطفولة :

ـ هل تطهين الغداء؟

قالت العجوز :

ـ الغداء ! أجل . له وللأطفال .

وأشارت بالشوكة الطويلة نحو الأطفال الثلاثة المحدقين بها بعيون سود من تحت أهدابهم السود . ولكنهم كانوا نظيفين . وحدها العجوز لم تكن نظيفة . أمّا المقلع نفسه فقد كانوا قد جعلوه نظيفاً تماماً على ما يبدو .

انحنت إيفيت أمام النار في صمت وهي تدفئ يديها ، والرجل يطرق بسرعة مع فترات من السكون . وصعدت العجوز ببطء درجات العربة الثلاث والتي كانت أقدم العربات ، وبدأ الأطفال يلعبون ثانية كحيوانات برية صغيرة بهدوء وانهماك .

سألت إيفيت الرجل وقد أدارت وجهها إليه وهي تنهض من أمام النار :

ـ هل هم أطفالك؟ .

فنظر إلى عينيها وحرّك رأسه بالإيجاب .

ـ ولكن أين زوجتك؟

ـ خرجت ومعها السلة ، خرجوا جميعاً بالعربة ليبيعوا الأشياء . إنني لا أذهب لبيع الأشياء . إنني أصنعها ولكنني لا أذهب لبيعها . ليس دائماً . على الأغلب لا أذهب .

فقالت :

ـ هل تصنع الأدوات النحاسية كلها؟

فأومأ بالإيجاب ، ومرة أخرى قدم لها المقعد الخفيض فجلست .

قالت :

ـ لقد قلتَ إنك ستكون هناك أيام الجمعة . لذا جئت من هذا الطريق بما أن الطقس كان جميلاً جداً .

فقال الغجري وهو ينظر إلى خديها اللذين كانا لا يزالان ممتقعين من البرد ، وإلى شعرها الناعم فوق أذنيها المحمرتين ، وإلى يديها الطويلتين اللتين كانتا لا تزالان مبقعتين بالاحمرار فوق ركبتيها :

ـ يوم جميل جداً .

وسألها :

ـ هل تشعرين بالبرد وأنت تقودين الدراجة؟

فقالت وهي تشبك يديها في عصبيّة :

ـ في يديّ .

ـ ألم ترتدي قفازين؟

ـ ارتديتهما ولكنهما لم يكونا جيّدين .

قال :

ـ يتخلّلهما البرد أليس كذلك؟

فأجابت :

ـ أجل .

وبرزت العجوز وهي تنزل درجات العربة ببطء على نحو غريب وهي تحمل بعض الصحون المطلية بالمينا .

ناداها الغجري بنعومة :

ـ هل طهوتِ الغداء؟

فغمغمت العَجوز بكلمات وهي تضع الصحون قرب النار ، وقد تدلى وعاءان من قضيبٍ حديديّ طويل وُضِعَ أفقياً فوق جمرات النار ، بينما كان وعاء صغير يزبد فوق حامل حديدي ثلاثيّ القوائم . وكانت الحرارة والبخار يرتعشان معاً في أشعة الشمس .

وضع الرجل أدواته والوعاء على الأرض ونهض . وسأل إيڤيت دون أن ينظر إليها :

ـ ألا تأكلين معنا؟

فقالت إيڤيت :

ـ كلاّ . . لقد أحضرت غدائي .

فقال :

ـ هل تأكلين بعض اليخنة؟

ثم تحدث ثانية بهمس وهدوء مع المرأة العجوز التي غمغمت بالإجابة بينما كانت تزلّج الوعاء الحديدي نحو طرف القضيب . قال :

ـ بعض الفاصولياء ولحم الضأن .

قالت إيڤيت :

ـ مع الشكر الجزيل .

ثم أضافت ، وقد تشجعت فجأة :

ـ حسناً . أجل . كمية قليلة جداً إن كان بإمكاني أن أطلب .

ثم عَبَرَتْ إلى دراجتها لتفك صرّة غدائها ، وصعد هو الدرجات إلى عربته الخاصة . ثم ظهر بعد دقيقة وهو يمسح يديه بمنشفة . قال :

ـ هل تريدين أن تصعدي لتغسلي يديك؟

قالت :

ـ كلاّ . لا أعتقد . إنهما نظيفتان .

فألقى عندئذ بماء اغتساله بعيداً وانطلق نازلاً الطريق بإبريق نحاسيّ طويل العنق ليحضر ماء نظيفاً من النبع الذي كان يسيل ويصب في بركة صغيرة ، وأخذ معه كوباً ليغرف به . وعندما عاد وضع الإبريق والكوب قرب النار وأحضر لنفسه جذعاً قصيراً من شجرة يجلس عليه . وجلس الأطفال على الأرض مجتمعين وهم يأكلون الفاصولياء وقطعاً صغيرة من اللحم بالملعقة أو بأصابعهم . وكان الرجل الجالس على جذع الشجرة يأكل في صمت ، وباستغراق . وصنعت العجوز القهوة في الوعاء الأسود على الحامل الثلاثي ، وعرجت صاعدة الدرجات لتحضر الفناجين . كان السكون يرين على المقلع . وجلست إيڤيت على المقعد الخفيض بعد أن خلعت قبعتها ونشرت شعرها في الشمس .

وسألته إيڤيت فجأة :

ـ كم طفلاً لديك؟

فأجاب ببطء وهو يرفع بصره إلى عينيها :

ـ خمسة .

ومرة أخرى غاص طائر قلبها وبدا أنه مات . وتناولت منه فنجان القهوة بغموض كما في الحلم . لم تكن تعي شيئاً سوى شكله الصامت وهو يجلس في الظل هناك على الجذع وفي يده كوب

مطلي بالمينا ، وهو يرشف القهوة في صمت . كانت إرادتها قد غابت عن أطرافها ، كان قد سيطر عليها ، كان ظله فوقها ، وكان ، وهو ينفخ في قهوته الساخنة ، مدركاً لشيء واحد فحسب : ثمرة عذريتها الغامضة ورقة جسدها المتناهية .

وأخيراً وضع فنجان قهوته على الأرض قرب النار ثم نظر إليها . كان شعرها ينسدل على وجهها وهي تحاول أن ترشف من الفنجان الساخن . ورانت على وجهها سيماء النعاس الرقيقة التي تبدو على زهرة وسنى عندما تكون ممتلئة ، وكزهرة بدائية غامضة كانت إيفيت ممتلئة ، كزهرة اللبن الثلجية التي تنشر أجنحتها البيض الثلاثة محلقة في النعاس اليقظ لإزهارها القصير . لقد ارتسم عليها نعاس عذريتها المتفتحة اليقظ بشكل كامل وقد غَشَتْهُ النشوة كزهرة اللبن الثلجية في أشعة الشمس . أمّا الغجريّ فقد انتظرها كمادة الظل وهو مدرك لها من عليائه ، كما ينتظر الظل والظل هناك .

أخيراً تناهى صوته دون أن يزول السحر :

ـ هل تريدين أن تدخلي عربتي الآن وتغسلي يديك؟

ونظرت العينان الطفلتان الناعستان في لحظة عذريتها الكاملة إلى عينيه دون أن تبصرا شيئاً .

كانت لا تعي إلاّ تدفقه الغريب الداكن وهو يغمر أوصالها ليغسلها في النهاية وهي فاقدة الإرادة تماماً . كانت تعيه كقوة مظلمة كاملة . قالت :

ـ أعتقد ذلك .

فنهض بصمت ثم استدار ليتحدث آمراً العجوز بصوت خفيض ، ثم نظر ثانية إلى إيفيت وهو يلقي عليها بظل سلطته بحيث لا تشعر بعبء نفسها أو عبء عملها .

قال :

ـ تعالي !

فتبعته ببساطة ، تبعت حركة جسمه الصامتة الخفية المسيطرة أمامها . ولم يكلفها ذلك شيئاً . كانت قد دخلت إرادته .

كان عند قمة الدرج وهي عند أسفله عندما أحس وعيها بصوت دخيل . فوقفت ساكنة عند أسفل الدرج . كان ثمة سيارة قادمة . وقف هو عند أعلى الدرج ينظر حوله على نحو غريب . وتحدثت العجوز شيئاً ما بصوت أجشّ ، وبصوت آخذ في الارتفاع بسرعة اندفعت سيارة مقتربة منهم . كانت السيارة مارة بهم . وبعد ذلك سمعا صيحة صوت امرأة وصوتَ مكابح سيارة . كانت قد توقفت وراء المقلع تماماً . وهبط الغجريّ الدرج بعد أن أغلق باب العربة . قال لها :

ـ ألا تريدين أن ترتدي قبعتك؟

فذهبت بامتثال إلى المقعد الخفيض قرب النار والتقطت قبعتها . وجلس هو قرب عجلة العربة مكفهراً ، والتقط أدواته وانطلقت في تلك اللحظة ضربات مطرقته السريعة على نحو سريع وغاضب كصوت مدفع رشاش صغير في اللحظة التي تناهى فيها صوت المرأة وهي تصيح :

ـ أيمكننا أن ندفئ أيدينا على نار المخيم؟

وتقدمت المرأة وهي ترتدي السترة المصنوعة من فراء السمور ، وتبعها رجل يرتدي معطفاً أزرق وهو يخلع قفازيه المصنوعين من الفراء ويخرج غليونه .

قالت المرأة التي كانت ترتدي السترة المصنوعة من جلود الكثير من

الحيوانات الصغيرة الميتة ، وهي تبتسم ابتسامة متكلفة عريضة متوزعة بين التنازل والتردد :

ـ لقد بدت النار شديدة الإغراء .

لم يتفوه أحد بكلمة . وتقدّمت نحو النار وهي ترتعش قليلاً داخل سترتها من البرد ، فقد كانا يقودان سيارة مكشوفة .

كانت امرأة صغيرة الحجم جداً وذات أنف كبير إلى حد ما : ولربما كانت يهودية . وبما أنها كانت ضئيلة الحجم كطفل تقريباً ، فقد بدت في سترة الفراء تلك أكثر ضخامة ممّا ينبغي بكثير ، وكانت عيناها الواسعتان اللتان أشبه ما تكونان بعينين عسليتين ممتعضتين ليهودية مُدلّلة ، تحدقان على نحو غريب من خلال ثيابها الثمينة .

انحنت فوق النار الخفيضة مادّةً يديها الصغيرتين اللتين تلألأ فوقهما الماس والزمرد .

وارتجفت قائلة :

ـ طبعاً لم يكن ينبغي علينا أن نأتي في سيارة مكشوفة ، لكنّ زوجي يأبى حتى أن يدعني أقول إنني أشعر بالبرد .

ونظرت إليه بعينيها الكبيرتين المؤنبتين واللتين كان لا يزال يبدو فيهما الدهاء الماكر ليهودية بورجوازية ، وربما غنية .

كان واضحاً أنها تحب الرجل الأشقر الضخم على الطريقة الغريبة ليهودية ثرية .

وبَادَلَها الرجلُ النظرَ بعينيه الزرقاوين الشاردتين اللتين بدا أنهما دون أهداب ، وغضّنت خدّيه الناعمين العاريين على نحو غريب ابتسامة صغيرة . ولم تكن الابتسامة تعني شيئاً على الإطلاق . كان رجلاً من النوع الذي يقرنه المرء على الفور بالرياضات الشتائية كالتزلج والانزلاق على الماء . وبطريقة رياضية لا علاقة لها بالحياة ملأ

غليونه ببطء وهو يضغط التبغ بإصبع محمرة قوية طويلة . ونظرت اليهودية إليه لترى فيما إذا كانت قد تلقت جواباً منه ، ولكن لم يكن هنالك من شيء على الإطلاق باستثناء تلك الابتسامة الغريبة الجوفاء ، فاستدارت ثانية نحو النار وهي تُميل حاجبيها وتنظر إلى يديها الصغيرتين البيضاوين الممدودتين .

وخلع الرجل معطفه ذا البطانة الثقيلة وظهر في أحد القمصان الصوفية الأنيقة المخيطة برسوم أنيقة وبألوان صفر ورمادية وسود فوق بنطال أنيق وعريض نوعاً ما .

أجل كانت ثياب كليهما غالية الثمن ، وكان الرجل ذا بنية رائعة وصدر رياضي بارز . وكرجل ذي خبرة بالتخييم بدأ يحسن وضع النار ، وبهدوء ، كجنديّ في حملة عسكرية .

وسأل إيفيت وهو يشير بنظرة صامتة إلى الغجريّ الذي كان يواصل الطرق :

ـ أتعتقدين أنهم يمانعون لو أضفنا إلى النار بعض أكواز شجر التنّوب لنجعلها تندلع بلهب شديد؟

قالت إيفيت في انبهار وقد بدأ سحر الغجري يفارقها ببطء شاعرة بالجنوح والفراغ :

ـ أعتقد أنهم يحبون ذلك .

فذهب الرجل إلى السيارة وعاد وهو يحمل كيساً صغيراً من الأكواز اغترف منه حفنة وصاح بالغجريّ :

ـ أتمانعون في أن نُؤَجِّج النار؟

ـ ماذا؟

ـ أتمانعون في أن نؤجج النار ببعض الأكواز؟

فقال الغجري :

ـ فلتفعلْ .

وبدأ الرجل يضع الأكواز بخفة وحرص على الجمرات الحمر ، وسرعان ما التهمت النار واحداً إثر الآخر واشتعلت كورود من اللهيب برائحة عذبة .

وصاحت اليهودية الصغيرة وهي ترفع بصرها إلى رجلها ثانية :

ـ إنه لشيء ممتع . . ! ممتع . . !

وخفض بصره إليها على نحو لطيف تماماً كوقع أشعة الشمس على الجليد .

وصاحت اليهودية الصغيرة قائلة لإيفيت عبر صوت ضربات المطرقة :

ـ ألا تحبين النار؟ آه . إنني أعشقها .

ثم إنّها ضاقت ذرعاً بصوت ضربات المطرقة ، فجالت ببصرها ، وقد ارتسم على حاجبيها الصغيرين الدقيقين عبوس طفيف ، وكأنها ستأمر الرجل بالتوقف . وجالت إيفيت ببصرها أيضاً ، كان الغجريّ منحنياً فوق زبدية النحاس وقد تباعدت رجلاه وأطرق رأسه وارتفعت ذراعه الرشيقة ، وبدا للتو بعيداً جداً عنها . وتَمَشّى الرجل الذي كان يصطحب اليهودية الصغيرة نحو الغجري ووقف صامتاً وقد خفض بصره إليه ووضع غليونه في فمه . كانا الآن رجلين أشبه ما يكونان بكلبين ذَكَرين غريبين لا بد وأن يتشمّم أحدهما الآخر .

قالت اليهودية الصغيرة وهي تنظر إلى إيفيت نظرة ماكرة ممتعضة :

ـ نحن في شهر العسل .

كانت تتحدث بصوت مُتحدّ عالٍ نوعاً ما مثل طير، كأبي زريق أو غراب القيظ، وهو ينعق.

فقالت إيفيت:

ـ أحقّاً؟

ـ أجل! وقبل أن نتزوج. هل سمعت بسيمون فوسيت؟ (لقد ذكرت اسم مهندس ثري ومشهور في الريَف الشمالي). حسناً إنني زوجته، السيدة فوسيت. وهو الآن يعمل على الطلاق مني.

ونظرت إلى إيفيت بحزن وتحدّ غريبين.

فقالت إيفيت:

ـ أحقّاً؟

لقد فهمت إيفيت الآن نظرة الامتعاض والتحديّ في عيني اليهودية الصغيرة العسليتين الكبيرتين.

كانت امرأة صغيرة وصريحة، ولكن ربما كانت صراحتها عقلانية أكثر مما يجب. ولربما بيّنت إلى حد ما انعدام الضمير الذي اشتهر به سيمون فوسيت.

ـ أجل! حالما نحصل على الطلاق سأتزوج الرائد إيستوود.

باتت أوراقها مكشوفة بأكملها الآن. لم تكن تريد أن تخدع أحداً. وخلفها كان الرجلان يتحادثان بإيجاز. وأجالت الطرف وثبّتت نظرها على الغجري بعينيها العسليتين الكبيرتين. كان قد رفع بصره، وكأنما بخجل، نحو الرجل الضخم ذي القميص الصوفي المتلألئ، والذي كان يقف وغليونه في فمه وقفة رجل لرجل وهو ينظر إلى الأسفل.

قال الغجري في صوت خفيض:

ـ مع الخيول في مؤخرة الرأس.

كانا يتحدثان عن الحرب ، وكان الغجري قد خدم في فِرق المدفعية في فوج الرائد نفسه .

قالت اليهودية :

ـ Ein Schoner Mensch ! رجل وسيم . أليس كذلك؟

وبالنسبة إليها أيضاً كان الغجري أحد الرجال العاديين ، أحد الجنود البريطانيين .

قالت إيڤيت :

ـ إنه وسيم فعلاً !

فسألتها اليهودية في نبرة مندهشة :

ـ هل تركبين الدراجة؟

ـ أجل . نزولاً إلى بابلويك . إنّ أبي هو قِسٌّ بابلويك : السيد سيول .

فقالت اليهودية :

ـ أوه . أعرفه . إنه كاتب موهوب ! بارع جداً ! لقد قرأت له .

كانت أكواز التنوب قد استُهلكت الآن وأصبحت النار كومة مرتفعة من ورود النار المُتفتتة المتقوّضة ، وكانت السماء قد أخذت تتلبد بالغيوم عند الأصيل ، ولربما كانت تنذر بسقوط الثلج مع اقتراب المساء .

رجع الرائد ودسَّ نفسه في معطفه قائلاً :

ـ أعتقد أنني تذكرت وجهه . كان أحد سائسي خيولنا وأفضل مَنْ تعامل مع الأحصنة .

صاحت اليهودية قائلة لإيڤيت :

ـ أصغي ! لماذا لا تدعيننا نقلّك بالسيارة إلى نورمانتون؟ نحن

نسكن في سكورسبي ، ونستطيع أن نربط الدراجة بمؤخرة السيارة .

قالت إيڤيت :

ـ موافقة .

وصاحت اليهودية مناديةً الأطفال الذين كانوا يسترقون النظر بينما كان الرجل الأشقر يمضي بالدراجة :

ـ تعالوا ! تعالوا هنا .

وأخرجت حافظة نقودها الصغيرة ورفعت شِلناً وهي تصيح :

ـ تعالوا ! تعالوا خذوه !

كان الغجري قد توقف عن الطرق ودخل عربته . ونادت المرأة العجوز الأطفال بصوت أجشّ من داخل الحظيرة المسيّجة . تقدم الطفلان الكبيران وهما يحثّان الخُطى فأعطتهما اليهودية قطعتي الفضة اللتين كانتا في حافظة نقودها : شلناً وفُلُوريناً .

وتناهى مرة أخرى الصوت الأَجش للمرأة العجوز المختفية عن الأنظار .

هبط الغجري من عربته وسار نحو النار . وتفرّست اليهوديةَ في وجهه بالجرأة البورجوازية الغريبة التي اشتهر بها عرْقها .

قالت :

ـ هل كنتَ في فوج الرائد إيستوود في الحرب؟

ـ أجل يا سيدتي .

ـ تخيل أنكما هنا الآن معاً ! ستثلج السماء .

ورفعت نظرها إلى السماء .

فقال الغجري وهو ينظر إلى السماء :

ـ في وقت لاحق .

لقد أصبح هو أيضاً متعذر الفوز ، فقد كان عرقه طاعناً في القدم في معركته الغريبة مع المجتمع المستقر ولم تكن لديه فكرة عن الفوز ، بيد أنه كان يحرز انتصاراً بين الفينة والفينة . ولكن الفرصة الرياضية القديمة لإحراز انتصار بين الفينة والفينة قد أخمدت تماماً وإلى حد ما منذ الحرب . لم يكن هنالك بد من الاستسلام .

وكانت عينا الغجري لا تزالان تحتفظان بنظرتهما الجريئة ، لكنها كانت قد قستْ ووجّهت بعيداً وولّت عنها مسحة المودة الوقحة . كان قد خاض غمار الحرب .

نظر إلى إيڤيت وقال :

ـ هل ستعودين بالسيارة؟

فأجابت بتكلّف رقيق :

ـ أجل . الطقس متقلّب جداً .

فردّد وهو ينظر إلى السماء :

ـ الطقس غدّار .

ولم يكن في مقدورها على الإطلاق أن تتنبأ بمشاعره . وفي الحقيقة لم تكن مهتمة كثيراً بذلك . لقد فُتنت الآن وإلى حد ما باليهودية الصغيرة التي كانت أماً لطفلين والتي ستحول ثروتها من المهندس الشهير إلى الرائد الرياضي الشاب والمفلس إيستوود الذي لا بدّ أنه يصغرها بخمسة أو ستة أعوام .

إنه لأمر مثير !

وعاد الرجل الأشقر ، فصاحت اليهودية الصغيرة بكآبة :

ـ أعطني سيجارة يا تشارلز .

فأخرج الرجل علبته ببطء بحركته الرياضية البطيئة . كان في داخله

شيء حساس يجعله بطيئاً وحذراً وكأنه جرح نفسه أمام الناس. أعطى سيجارة لزوجته ثم واحدة لإيڤيت، وبعدئذ قدم العلبة ببساطة تامة إلى الغجري فأخذ منها واحدة.

ـ أشكرك يا سيدي.

واتجه بهدوء نحو النار حيث انحنى وأشعلها من الجمرات الحمر، فيما راقبته المرأتان.

قالت اليهودية في تعاطف بورجوازي قديم:

ـ حسناً! وداعاً! نشكرك على النار الدافئة.

فقال الغجري:

ـ النار ملْكُ كلّ شخص.

وجاء الطفل الصغير نحوه وهو يمشي بخطى قصيرة قلقة.

قالت إيڤيت:

ـ وداعاً. آمل ألاّ تثلج من أجلكم.

فقال الغجري:

ـ لا نبالي البتّة بسقوط الثلج.

قالت إيڤيت:

ـ حقاً! كنت أعتقد أنكم تكرهون ذلك.

قال الغجري:

ـ كلاّ.

وقذفت بوشاحها فوق كتفها على نحو ملكي، وتبعت سترة فراء اليهودية التي بدت وكأنها تمشي على ساقين صغيرتين.

- ٧ -

كانت أسرة إيستوود ، كما أسمتها إيفيت ، قد أثارتها إلى حد ما . كان على اليهودية الصغيرة الآن أن تنتظر ثلاثة أشهر من أجل القرار النهائي ، وكانت قد استأجرت بجرأة كوخاً صيفياً صغيراً قرب المستنقعات عند أعالي سكورسبي في منطقة غير بعيدة عن التلال .

كان الطقس في الشتاء بارداً بكل معنى الكلمة ، وكانت هي والرائد يعيشان في عزلة نسبية ودون أي خدم . كان الرائد قد استقال من منصبه في الجيش النظامي وأسمى نفسه السيد إيستوود . وفي الحقيقة كانا قد أصبحا للتوّ السيد والسيدة إيستوود بالنسبة إلى العالم العادي .

كانت اليهودية الصغيرة في السادسة والثلاثين من العمر ، وكان طفلاها كلاهما قد تجاوزا الثانية عشرة من العمر . وكان الزوج قد وافق على أن تنال الوصاية على الطفلين حالما تتزوج السيد إيستوود .

إذاً ، ها هو ذا الثنائي الغريب : اليهودية الصغيرة الضئيلة ذات التكوين الدقيق بعينيها الكبيرتين المتعضتين المؤنبتين ، وكتلة شعرها الكثيف الأسود المجعد والمشذّب بعناية ، والتي كانت امرأة صغيرة أنيقة على طريقتها ، والشاب الكبير ذو العينين الباهتتين ، القوي البارد ، الذي هو بالتأكيد من البقية الباقية من سلالة دانماركية معروفة وعريقة . وهما يعيشان معاً في منزل عصري صغير قرب المستنقعات والتلال ، ويقومان بأعمالهما المنزلية الخاصة .

حقاً كانت أسرة عجيبة . فقد استأجرا الكوخ مفروشاً ، بيد أن اليهودية الصغيرة كانت قد أحضرت معها أعزّ ما لديها من قطع الأثاث . كان لديها ميل غريب إلى أسلوب الزخرفة ، كالخزائن الغريبة المُقوّسة والمرصعة بعِرق اللؤلؤ وعظم ظهر السلحفاة والأبنوس وما لا

تعرفه إلاّ السماء ، كذلك الكراسي المموجة الطويلة الغريبة ذات القماش المطرز المقصب الأخضر بلون اخضرار البحر ، والتي أحضرت من إيطاليا ، وتماثيل القديسين بمسوحهم التي نُحتَتْ وهي تتطاير في مهب الريح بألوان ثرّة ، وبوجوههم القرمزية ، ورفوف من خزف ساكس القديم وتماثيلِ كابو دي مونتي الصغيرة ، وأخيراً مجموعة غريبة من الصور المدهشة المرسومة على خلفيّة من الزجاج ، والتي رسمت ربّما في أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر .

في داخل هذا المنزل المزدحم بالأثاث الخارج عن المألوف استقبلت اليهودية الصغيرة إيڤيت عندما قامت الأخيرة بزيارتها خلسة . كانت قد رُكِّبت في الكوخ مجموعة كاملة من المدافئ فأصبح كل ركن من أركانه دافئاً ، بل ساخناً تقريباً .

وكان هنالك التمثال الصغير المزخرف ، والذي يمثّل اليهودية الصغيرة نفسها بثوب صغير تماماً ومئزر وهي تضع شرائح فخذ الخنزير في الصحن ، بينما كان الرائد ، طائر الثلج الكبير ، بكنزة بيضاء وبنطال رمادي ، يقطع الخبز ويمزج الخردل ويُعدّ القهوة ويؤدي ما تبقى من أمور . كان قد أعدَّ أيضاً لوناً من ألوان الطعام هو طبق الأرنب البري المطبوخ في وعاء فخاريّ ، والذي تلا طهو اللحوم الباردة والكاڤيار .

كانت الأدوات الفضية والخزف الصيني ثمينة حقاً ، وكانت جزءاً من جهاز العروس .

كان الرائد يشرب الجعة في كوز من الفضة ، وإيڤيت واليهودية الصغيرة تحتسيان الشمبانيا في كؤوس جميلة ، وأحضر الرائد بعد ذلك القهوة وتجاذبوا الحديث . كانت تعتمل في نفس اليهودية الصغيرة نقمة عارمة على زوجها الأول . كانت أخلاقية بصورة شديدة ، أخلاقية جداً إلى درجة أنها أصبحت مُطلّقة . وكان الرائد أيضاً ، ذلك الطائر

الشتائي الغريب ذو القوة البالغة والوسيم أيضاً على طريقته ولكن بشحوب حول عينيه كأنما لا أهداب له كالطائر، كان هو أيضاً ذا نقمة غريبة على الحياة بسبب الأخلاقيات الزائفة .

كان ذلك الصدر الرياضي القوي يُكنُّ نوعاً ثلجياً غريباً من الغضب . كانت رقته نحو اليهودية الصغيرة مبنية على أساس إحساسه بالعدالة المغتصبة ، وكانت أخلاقيات الشمال المادية تدفعه ، كريح غريبة ، إلى العزلة .

وعندما اقترب الأصيل دخلوا إلى المطبخ حيث رفع الرائد كمّيه كاشفاً عن ذراعين بيضاوين رياضيين قويين ، وأخذ يغسل الأطباق بعناية ورشاقة ، فيما راحت المرأتان تجففانها . لم تكن عضلاته قد نمت عبثاً . ثم تجوّل متفقداً مدافىء المنزل الصغير التي كانت تطلب لحظة أو لحظتين فحسب من العناية كل يوم . وبعد ذلك أخرج السيارة الصغيرة المغلقة وأوصل إيفيت إلى البيت تحت وابل المطر ، حيث أنزلها عند البوابة الخلفية ، وهي عبارة عن كوة صغيرة بين أشجار اللاركس التي كانت تنحدر من خلالها درجات ترابية تؤدي إلى المنزل .

كان هذا الثنائي المنعزل قد أذهلها حقاً !

قالت لأختها تحدثها :

ـ حقاً يا لوسيل ! إنني أقابل أغرب الناس فعلاً .

وقدّمت لها وصفاً تفصيلياً لهذا الثنائي .

فقالت لوسيل :

ـ إنهما يبدوان ظريفين إلى حد ما على ما أعتقد . يروق لي أن يؤدي الرائد الأعمال المنزلية ومع ذلك يبدو أنيقاً إلى حد كبير . أعتقد أنه سيكون شيئاً ممتعاً أن أتعرف إليهما عندما يتزوجان .

قالت إيفيت بغموض :

ـ أجل . أجل . أجل ، سيكون الأمر ممتعاً .

لقد جعلتها غرابة العلاقة بحد ذاتها ، بين اليهودية الضئيلة وذلك الضابط الرياضي الشاب ذي العينين الشاحبتين ، تفكر مرة أخرى برجلها الغجري الذي كان غائباً بصورة مُطلقة عن وعيها ، لكنه عاد الآن بقوة مفاجئة مؤلمة .

سألت أختها :

ـ تُرى ما الذي يجمع الناس إلى بعضهم البعض يا لوسيل؟ أناس مثل أسرة إيستوود على سبيل المثال؟ وأبي وأمي المتنافران على نحو مريع جداً؟ وتلك المرأة الغجرية التي أخبرتني بطالعي ، وهي كالحصان الضخم ، والرجل الغجري ذو الجمال الرائع والقوام الرقيق؟ ما الذي يجمع بينهم؟

قالت لوسيل :

ـ أعتقد أنه الجنس أيّاً كان .

أجل . . ما هو؟ إنه ليس في الواقع أي شيء مبتذل كالانغماس المألوف في الشهوات الحسية كما تعلمين يا لوسيل . إنه في الواقع غير هذا .

قالت لوسيل :

ـ كلاّ . أعتقد أنه ليس ذلك . على أية حال أعتقد أنه لا ينبغي أن يكون كذلك .

ـ لأن الأشخاص المبتذلين ، كما ترين ، والذين ، كما تعلمين ، يجعلون الفتاة تشعر بالامتهان ، لا يوليهم أيُّ شخص كبير اهتمام ، ولا يشعر أحد بأيّ ارتباط بهم . ومع ذلك فهم المهتمون بالجنس كما هو مفترض .

قالت لوسيل :

ـ أعتقد أنه يوجد ذلك النوع الوضيع من الجنس ، ويوجد النوع

الآخر الذي ليس وضيعاً . الأمر معقد حقاً وإلى حد مريع . إنني لأشمئز من الأشخاص المبتذلين ولا أشعر أبداً بأيّ إحساس جنسي (وشدّدت على الكلمة بنبرة اشمئزاز إلى حد ما) تجاه الأشخاص غير المبتذلين . ربما كنت عديمة الإحساس بالجنس !

قالت إيڤيت :

ـ هذا هو الأمر تماماً . ربما كنا أنا وأنت عديمتي الإحساس بالجنس ، وربما لم يكن لدينا حقاً أيّ جنس يربطنا بالرجال .

فصاحت لوسيل باشمئزاز :

ـ كم هي كريهة هذه العبارة «يربطنا بالرجال» . ألا تكرهين أن ترتبطي بالرجال بتلك الطريقة؟ أعتقد أنه لمن دواعي الأسف الشديد أن يكون هنالك جنس . كان من الأفضل أن نبقى رجالاً ونساء دون ذلك الشيء المقيت .

وفكّرت إيڤيت ملياً . وبعيداً ، وفي خلفية مخيلتها كانت صورة الغجري عندما مال ببصره إليها وهي تقول : «إنَّ الطقس غدار جداً» . شعرت إلى حد ما ، وهي تنكره ، وكأنها بطرس عندما صاح الديك ، أو بالأحرى هي لم تكن تنكر الغجري ، فهي لم تكن لتهتم بدوره في الاستعراض على أية حال ، بل كان ما أنكرته جزءاً مخفياً من نفسها : ذلك الجزء الذي استجاب له بغموض ودون أن يعترف بذلك . وكان الديك الذي صاح ساخراً منها ديكاً لماعاً غريباً وأسود اللون .

قالت :

ـ أجل . أجل . الجنس مصدر مثير للضجر كما تعلمين يا لوسيل . عندما لا تحصلين عليه تشعرين أنه ينبغي عليك أن تناليه نوعاً ما ، وعندما تحصلين عليه ـ أو عندما تنالينه ـ (وهنا رفعت رأسها وغضّنت أنفها في احتقار) . . فإنك تكرهينه .

صاحت لوسيل :

ـ لا أعرف . أعتقد أنني أود أن أقع في حب رجل إلى حد بعيد .

قالت إيفيت وهي تغضّن أنفها مرة أخرى :

ـ أتعتقدين هذا !؟ لكنك لو فعلت لما أردت ذلك .

فسألتها لوسيل :

ـ وكيف تعرفين؟

قالت إيفيت :

ـ حسناً ، في الحقيقة أنا لا أعرف ، لكنني أعتقد ذلك . نعم ، أعتقد ذلك .

قالت لوسيل في اشمئزاز :

ـ هذا محتمل جداً . وعلى أية حال على المرء أن يكون واثقاً من أن الحب لن يدوم ، وسيصبح منفراً ليس إلاّ .

قالت إيفيت :

ـ أجل . إنها لمشكلة .

وأخذت تُدنْدن بلحن قصير .

ـ لا تكترثي بذلك . ليست مشكلة بالنسبة إلينا نحن الاثنتين . إن أيّاً منّا لم تقع حقاً في الحب ومن المحتمل ألاّ تقع فيه .

وهكذا حُلّت المشكلة بتلك الطريقة .

قالت إيفيت بحكمة :

ـ لست متأكدة ، لست متأكدة تماماً . أعتقد أنني سأقع ذات يوم في الحب وبصورة مريعة .

قالت لوسيل بقسوة :

ـ وربما لن تقعي في الحب أبداً . وهذا ما تفكر فيه معظم العوانس على الدوام .

فنظرت إيفيت إلى أختها بعينين مستغرقتين في التفكير ، ولكن ظاهرياً كانتا غير مباليتين ، وقالت :

ـ حقّاً؟ هل تعتقدين ذلك حقاً يا لوسيل؟ يا له من أمر مريع تماماً بالنسبة إلى هؤلاء العوانس ! ولماذا يكترثن بذلك؟

قالت لوسيل :

ـ لماذا يكترثن؟ ربما كُنَّ لا يكترثن في الواقع ، ولكن كل ما في الأمر أن الناس يقولون «يا للعانس المسكينة ! . . لم تستطع أن توقع رجلاً في شباكها» .

قالت إيفيت :

ـ أعتقد أن هذا هو السبب . إنهن يفكرن بالأشياء البغيضة التي يقولها الناس فعلاً وعلى الدوام عن العوانس . يا للعار !

قالت لوسيل :

ـ على أية حال لدينا وقت كاف لكلتينا ولدينا فعلاً الكثير من الفتيان الذين يفرطون في إطرائنا .

قالت إيفيت :

ـ أجل . أجل . ولكنني لا أستطيع على وجه الاحتمال أن أتزوج أيّاً منهم .

قالت لوسيل :

ـ ولا أنا . ولكنْ لِمَ علينا أن نتزوج؟ لمَ علينا أن نقلق بخصوص الزواج ما دُمنا نقضيَ وقتاً ممتعاً تماماً مع الفَتيان ، والذين هم من النخبة الجيدة إلى حد بعيد؟ يجب أن تقولي لي يا إيفيت إنهم من النخبة ذات الروح الرياضية والمهذبة إلى حد بعيد .

قالت إيفيت في شرود :

ـ أجل . إنهم مهذبونَ وكيّسون .

قالت لوسيل :

ـ أعتقد أنه سيحين الوقت للتفكير في الزواج من شخص ما عندما تشعرين بأنك لم تعودي تمضين وقتاً ممتعاً ، عندئذ تزوجي واستقرّي .

قالت إيڤيت :

ـ بالضبط .

ولكنها رغم كل مودَّتها الظاهرة الرقيقة كانت متضايقة من لوسيل . وأرادت فجأة أن تدير ظهرها لها .

بالإضافة إلى ذلك ، انظروا إلى الظلال الموجودة تحت عيني لوسيل المسكينة ، وإلى الكآبة في هاتين العينين الجميلتين . وآه . ليت رجلاً رقيقاً إلى حد بعيد ولطيفاً ، ومن الصنف الذي يصون المرأة يتزوجها ! . . وليتَ لوسيل ترضى بالزواج منه .

لَمْ تُخبر إيڤيت أباها القسّ أو الجدة شيئاً عن أسرة إيستوود ، لعلمها أنّ ذلك لن يؤدي إلاّ إلى إثارة الكثير من الجدل الذي تكرهه . لمْ يكن القس ليكترث بذلك شخصياً ، ولكنه هو أيضاً كان يعرف ضرورة البقاء بعيداً قدر الإمكان عن لسان الناس ، هذه الأفعى ذات الرؤوس العديدة .

*

صاحت اليهودية بإيڤيت يوماً :

ـ لكنني لا أريدك أن تأتي إلينا إنْ كان والدك لا يعرف بمجيئك .

قالت إيڤيت :

ـ أعتقد أنني يجب أن أخبره . وأنا واثقة أنه لا يبالي بالأمر حقاً ، ولكنه لو عرف فسيهتمّ على ما أعتقد .

نظر الضابط الشاب إليها في استمتاع غريب بعينيه الحادّتين ، الشبيهتين بعيني الطائر ، والخاليتين من العاطفة . هو أيضاً كان على وشك أن يقع في حب إيڤيت ، فقد كان ما شدّه إليها هو رقّتها العذرية الغريبة وانعزالها الهائم الشارد عن الأشياء .

وكانت هي مدركة لما كان يحدث ، فتأنقت إلى حد ما في ثيابها .

وقد أثار إيستوود خيالها ، فهو ضابط شاب وذكيّ ومن طبقة سامية إلى حد بعيد ، بالغ الهدوء ومثير للدهشة في قيادة السيارة وبطلٌ في السباحة . وإنه لممّا يستأثر بالاهتمام أن يراه المرء يغسل الأطباق بهدوء وسكينة ويدخّن غليونه ويقوم بعمله بمهارة فائقة ويقظة تامة ، أو وهو يُعدُّ الأرنب البري المطبوخ في وعاء فخاريّ في مطبخ الكوخ بالعناية نفسها التي كان يتفحص بها آلات السيارة الداخلية الغامضة ، ثم يخرج في الطقس المثلج لينظف سيارته حتى تبدو ككائن حي ، كالقطة عندما تلعق نفسها . بعد ذلك يدخل ليتحدث بتواضع واستجابة بالغين ، ولو بإيجاز ، مع اليهودية الصغيرة . ومن الواضح أنه لم يكن يعرف الضجر ، كان يجلس عند النافذة بغليونه في الطقس العاصف صامتاً لعدة ساعات شارد الذهن متفكراً ، ومع ذلك كان جسمه الرياضي يقظاً في سكونه .

لم تغازله إيڤيت ، ولكنها مالت إليه فعلاً . سألته :

ـ ولكن ، ماذا عن مستقبلك؟

فقال وهو يُخرج غليونه من فمه ، وفي عينيه الشبيهتين بعيني الطائر شبه ابتسامة لا أثر فيها للعاطفة :

ـ وماذا عنه؟

فحدّقت في عينيه بسذاجة غريبة وقالت :

ـ المهنة ! أليس على كل رجل أنْ يَجِدَّ لينال مهنة ، كإوزة ضخمة تسبح في صلصة مرق اللحم؟

رماها بنظرة باردة محددة وقال :

ـ إنني اليوم على أحسن ما يرام ، وسأكون على ما يرام غداً . فلماذا لا يكون مستقبلي استمراراً لليوم والغد؟

ونظر إليها بتفرّس ثابت ، فقالت :

ـ تماماً . إنني أكره الأعمال ، وكل ذلك الجانب المادي من الحياة .
ولكنها كانت تفكر في نقود اليهودية .

ولم يُجب على كلامها . كان استياؤه من النوع الثلجي الرقيق الذي يُخمد الروح بطريقة مريحة .

كانا قد وصلا في كلامهما إلى نقطة التحدُّث على نحو فلسفي . وبدت اليهودية الصغيرة في تلك الأثناء منحرفة الصحة قليلاً . كانت ساذجة على نحو غريب ولم تكن أنانية في موقفها من الرجل ، ولم تكن شرسة ماكرة مع إيفيت على الإطلاق . لقد كانت شاحبة نوعاً ما وصامتة فحسب .

واعتقدت إيفيت في نزوة مفاجئة أنه من الأفضل لها أن توضح ما يُداخلها .

قالت :

ـ أعتقد أن الحياة صعبة إلى حد كبير .

فصاحت اليهودية :

ـ حقاً !

قالت إيفيت وهي تُغضّن أنفها إلى الأعلى :

ـ وأبغض ما فيها هو أنه مفروض على المرء أن يقع في الحب ويتزوج .

فصاحت اليهودية وقد جحظت عيناها بشدة في تأنيب صاعق :

ـ ألا تريدين أن تحبي وتتزوجي؟

قالت إيفيت :

ـ كلاّ . ليس هذا ما قصدت إليه على وجه الخصوص ، ولا سيما عندما يشعر المرء أنه ليس لديه ما يفعله سوى ذلك . إنه قنٌ دجاج شنيع يتعيّن على المرء أن يدخله .

صاحت اليهودية :

ـ ولكن ألا تعرفين ما هو الحب؟

قالت إيفيت :

ـ كلاّ . وهل تعرفينه أنت؟

فصاحت اليهودية الصغيرة :

ـ أنا؟ أنا؟ يا إلــهي ! كيف لا أعرفه؟

ونظرت في كآبة ساهمة إلى إيستوود ، الذي كان يدخن غليونه ، وقد ظهرت غمازات السرور على وجهه النضر المتحيّر .

كان ذا بشرة ناعمة وبالغة الرقة ، والتي رغم نعومتها لم يؤثر فيها الطقس ، حتى بدا وجهه عارياً كوجه طفل . بَيْدَ أنه لم يكن وجهاً مستديراً ، كان مُميّزاً بما فيه الكفاية وخصوصاً حين بدت فيه غمازات ساخرة غريبة كقناع مضحك ولكنه متجمد .

وألحّت اليهودية :

ـ أتقصدين أن تقولي إنك لا تعرفين ما هو الحب؟

قالت إيفيت بصراحة لامبالية :

ـ نعم . لا أعتقد أنني أعرفه . هل هو جهل مني وفي مثل عمري ألاّ أعرفه؟

قالت اليهودية وقد اتسعت عيناها وهي تنظر إلى إيستوود :

ـ أليس هنالك أيّ رجل على الإطلاق يجعلك تشعرين أنك مختلفة تماماً . . تماماً؟

وكان إيستوود يدخن وهو لاهٍ عن الحديث بصورة مطلقة .

قالت إيفيت :

ـ لا أعتقد . إلاّ إذا ـ أجل ـ إلاّ إذا كان ذلك الغجري .

وأشاحت بوجهها جانباً وهي مستغرقة في التفكير .

فصاحت اليهودية الصغيرة :
ـ أيّ غجري تعنين؟
قالت إيفيت ببرود :
ـ ذاك الذي كان جندياً بريطانياً يعتني بالخيل في فوج الرائد إيستوود في أثناء الحرب .
فحملقت اليهودية الصغيرة في إيفيت وقد اتسعت عيناها من الخبل ، وقالت :
ـ أنت لا تحبين ذلك الغجري بالطبع !
قالت إيفيت :
ـ حسناً . لا أعرف . إنه الوحيد الذي يجعلني أشعر أنني مختلفة . . إنه الوحيد حقاً .
ـ ولكن كيف؟ كيف؟ هل قال لكِ شيئاً ما؟
ـ كلاّ . كلاّ .
ـ إذاً كيف ذلك؟ ماذا فعل؟
ـ لقد نظر إليّ فحسب .
ـ وماذا إذا نظر إليك؟
ـ حسناً . لا أعرف ، كما ترين . ولكنها نظرة مختلفة . أجل . مختلفة . مختلفة تماماً عن طريقة أيّ رجل نظر إليّ .
فقالت اليهودية :
ـ ولكن كيف كانت نظرته إليك؟
قالت إيفيت وقد بدا وجهها كبرعم زهرة :
ـ وكأنه في الواقع ، ولكن من غير ريب ، يشتهيني .
فصاحت اليهودية الساخطة :
ـ يا له من رجل خسيس ! بأيّ حق ينظر إليك على تلك الصورة؟

وتدخّل الرائد بهدوء وقد ارتسمت على وجهه ابتسامات وجه القط :

ـ قد ينظر القط إلى الملك .

فسألته إيڤيت وهي تستديرُ نحوه :

ـ هل تعتقد أنه ما كان ينبغي له أن يفعل ذلك؟

فصاحت اليهودية الصغيرة :

ـ طبعاً لا . رجلٌ غجري تنسحب وراءه نصفُ دزينة من النساء القذرات ! طبعاً لا .

قالت إيڤيت :

ـ لقد تعجبتُ ! كان ذلك أمراً عجيباً حقاً ! كان ذلك شيئاً مختلفاً تماماً في حياتي !

فقال الرائد وهو يخرج غليونه من فمه :

ـ أعتقد أن تلك الرغبة هي أعجب شيء في الحياة . إنّ منْ يستطيع حقاً أن يشعر بها لَهُوَ مَلكٌ ، ولا أحسد أحداً سواه .

ووضع غليونه ثانية فَي فمه .

فنظرت اليهودية إليه مخبولة ، وصاحت :

ـ ولكنْ يا تشارلز إنَّ أي رجل وضيع ومبتذل في «هاليفاكس» لا يشعر بغير هذه الرغبة .

فأخرج غليونه من فمه مرة أخرى وقال :

ـ تلك الشهوة ليس إلاّ .

وأعاد غليونه .

سألته إيڤيت :

ـ هل تعتقد أن الغجري هو صاحب الشعور الحقيقي؟

فرفع كتفيه وأجاب :

ـ لست أنا مَنْ يقول هذا . لو كنتُ مكانكِ لعرفتُ ولما سألت الآخرين .

وتهالكت إيڤيت قائلة :

ـ أجل . . ولكن . .

قالت المرأة :

ـ أنت مخطئ يا تشارلز ! كيف يمكن أن يكون شعوره حقيقياً؟ وكأنما يمكنها على وجه الاحتمال أن تتزوج به وتتجول معه في عربة !

قال تشارلز :

ـ أنا لم أقل فلتتزوجه !

ـ ماذا إذاً؟ علاقة حب . إنّ ذلك لرهيب ! ماذا ستكوِّن فكرةً عن نفسها ! . . إنَّ ذلك ليس حباً . . إنه . . إنه . . دعارة .

نفخ تشارلز دخان غليونه لحظات قليلة ، ثم قال :

ـ لقد كان ذلك الغجري أفضل مَنْ عندنا من السائسين ، وقد أوشك أن يموت من مرض ذات الرئة ، ولقد اعتقدتُ أنه مات . وهو في نظري رجل بُعث إلى الحياة من جديد . أنا نفسي بُعثْتُ إلى الحياة من جديد بكل ما للكلمة من معنى .

ونظر إلى إيڤيت وقال :

ـ لقد دُفِنْتُ تحت الثلج عشرين ساعة ولم أكن أسوأ حالاً عندما أُخرجت .

وتخلّلت المحادثة فترة صمت . ثم قالت إيڤيت :

ـ الحياة مريعة .

فقال :

ـ لقد أخرجوني مصادفة .

قالت إيڤيت في بطء :

ـ قد يكون القدر هو الذي أنقذك كما تعلم .

ولكنه لم يُجِب وآثر السكوت .

- ٨ -

سمع القس بعلاقة إيفيت الحميمة مع أسرة إيستوود ، وقد روّعها ما نتج عن ذلك إلى حدٍ ما .

كانت تعتقد أنه لَم يكن ليبالي بهذه العلاقة . لفظياً ، وفي أسلوبه الذي أُريد به أن يكون مَرحاً ، كان شخصاً خارجاً عن التقاليد بصورة مطلقة ، شخصاً جيداً بحَق وبصورة هائلة . وكما قال هو نفسه ، كان فوضوياً محافظاً ، ما يعني أنه كان كالكثيرين الكثيرين من الناس : مجرّد كافرٍ بالعرف . وقد امتدت الفوضى إلى حديثه المَرِح وتفكيره الخفي .

لكنّ نزعة المحافظة المرتكزة على الخوف الهجين من الفوضى كانت تهيمن على كل عمل من أعماله . وكانت خواطره ، في الخفاء ، شيئاً مروّعاً . لذا كان في حياته يخشى إلى حد التطرف الخروج على التقاليد .

وعندما كانت نزعة المحافظة لديه وخوفه الخفيّ يصلان إلى الحد الأقصى ، كان يرفع شفته دائماً كاشفاً عن أسنانه في سخرية كتكشيرة الكلاب .

قال لإيفيت :

ـ سمعت اليوم أنّ أحدث أصدقائك هما السيدة فوسيت ، نصف المُطلّقة ، وإيستوود القوّاد .

ولم تكن الفتاة تعرف ماذا تعني كلمة القواد ، لكنها شعرت بالسُمّ في أنياب أبيها القسّ . .

فقالت :

ـ أعرفـهـما فـحـسب . . إنهـما ظريفان إلى حد هائـل في الواقع ، وسوف يتزوجان في غضون شهر .

نظر القس بحقد إلى وجهها اللاّمبالي . كان مرتاعاً في مكان ما في أرجـاء نفسـه ، ولقـد ولد مرتـاعـاً ، وأولئك الـذين وُلدوا مُـرْتاعين هم بالطبيعة عـبيدٌ تجعلهم الغريزة العميقة يـخشون ويخوف رهيب أولئك الذين يمكن لهم فجأة أن يطوقوا أعناقهم بأطواق العبيد .

لذلك كـان يلفّ ويـدور بخـسـاسـة بالغـة ، كـمـا كـان يـلف ويدور بخساسة بالغة أمام «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» جراء خوفه العبودي من احتقارها ، احتقار الطبيعة التي وُلدت حُرّة للطبيعة التي ولدت خسيسة .

كانت لإيڤيت أيضاً ميزة هي أنها ولدت حرة ، وستعرفه هي أيضاً ذات يوم ، وستضع باحتقار طوق العبودية حول عنقه .

ولكن هل تفعل إيڤيت ذلك؟ سيقاتل حتى الموت هذه المرة قبل أن تفعل ذلك .

كـان العبـد الكامن في داخـله مـحاصـراً هذه المرة كـالجرذ المحـاصر وبشجاعة الجرذ المحاصر .

قال لها ساخراً :

ـ أعتقد أنهما من صنفك .

قالت بذلك الغموض المرح :

ـ حسناً ! . . إنهـمـا من صنفي حقاً . إنـني أحبـهـمـا إلى حد كبير . إنهما يبدوان قويين ونزيهين .

فسخر منها قائلاً :

ـ لديك فكرة غريبة عن النزاهة ! شاب طفيلي يهرب مع امرأة أكبر

منه سناً بحيث يمكنه أن يعيش بنقودها ! وتترك المرأة بيتها وأطفالها ! لا أعرف من أين أتيت بهذه الفكرة عن النزاهة ! لم تأخذيها مني على ما أرجو . ويبدو أنك على تمام المعرفة بهما لو أخذنا بعين الاعتبار قولك بأنك تعرفينهما فحسب ، أين قابلتهما؟

ـ عندما خرجت أتنزه على الدراجة فوق التلال أقبلا بسيارتهما واتفق أن تحادثنا . أخبرتني في الحال مَنْ تكون حتى لا أخطئ . إنها نزيهة .

كانت إيفيت المسكينة تجاهد لتتحمّل .

ـ وكم مرة التقيتِ بهما منذ ذلك الوقت؟

ـ لقد زرتهما هنالك مرتين فقط .

ـ هنالك ! أين؟

ـ في كوخهما في سكورسبي .

نظر إليها في كراهية وكأنه يودّ لو يقتلها ، ثم تراجع إلى الخلف مبتعداً عنها إلى ستائر النافذة في مكتبه كجرذ في وضع حرج . كان في مكان ما من مخيلته يظن بابنته فسقاً لا يوصف ، كما كان قد ظن «بالمرأة التي كانت تدعى سنثيا» . كان فاقد القوى أمام أدنى تلميحات مخيّلته .

وجعلته أنواع الفسق هذه ، التي نسبها إلى الفتاة الواقفة أمامه ، والتي كانت لا تزال صامتة ولكن مذعورة ، يتراجع كاشفاً عن كل أنيابه في وجهه الوسيم .

ـ إذاً ، أنت تعرفينهما فحسب ، أليس كذلك؟ أرى أن الكذب يجري في دمائك ولا أعتقد أنك أخذته عني .

فأشاحت إيفيت بوجهها الصامت قليلاً وفكرت بمراوغة جدّتها السافرة ولم تُجب . فصاح قائلاً :

ـ ما الذي يدفعك إلى الاختلاط بمثل هذا الثنائي؟ ألا يوجد في العالم ما يكفي من الناس المهذّبين لتتعرفي بهم؟ إنَّ أي شخص ليعتقد أنك كلبٌ ضال عليه أنْ يحوم حول غير المهذبين لأنّ المهذبين يرفضَونه . هل يوجد في دَمِكِ ما هو أسوأ من الكذب؟

فسألت :

ـ وماذا يمكن أن يكون لديّ أسوأ من الكذب في دمي؟

وبدأ يستبدُّ بها موت بارد . هل كانت شاذّة؟ هل كانت واحدة من أولئك الشذّاذ أنصاف المجرمين؟

لقد جعلها هذا الكلام تشعر بالبرود والموت .

كانت في نظره فتاة تتحدّى بالفسق الذي يقبع خلف وجهها العذري الرقيق الشبيه بوجه الطائر . وهكذا كانت «المرأة التي كانت تدعى سنثيا» : زهرة ثلجية .

واعترته تشنّجات من الرعب السادي وهو يفكر فيما يمكن أن يكون عليه الفسق الفعلي «للمرأة التي كانت تدعى سنثيا» . حتى حبه لها ، الحب الشهواني عند الذين ولدوا جبناء ، كان فسقاً في الخفاء بالنسبة إليه . إذاً ، كيف يجب أن يكون الحب غير الشرعي؟

وصرخ قائلاً :

ـ أنت نفسك أفضلُ منْ يعرف ماذا لديك في دمك . ولكن من الأفضل لَك أن تكبحي جماحه وبسرعة إن كنت لا تنوين أنْ تنتهي في مصح للجنون الإجرامي .

فقالت بصوت خافت : ولون شاحب ، وقد أصابها الخوف المتجمد بالحذر :

ـ لماذا؟ لماذا الجنون الإجرامي؟ ماذا فعلتُ؟

فقال متهكّماً :

ـ هذا أمر بينك وبين خالقك . . لن أسأل عنه قطّ . ولكنّ نزعات معينة لدى الإنسان تنتهي بالجنون الإجرامي إلاّ إذا كبح جماحها في الوقت المناسب .

فسألت إيفيت بعد وقت قصير من الخوف الخدر :

ـ هل تقصد مثل معرفة أسرة إيستوود؟

ـ هل أقصد مثل البحث عن أناس مثل السيدة إيستوود اليهودية الخائنة والرائد السابق إيستوود الذي يفرُّ مع امرأة أكبر منه سناً من أجل نقودها؟ أجل . إني لأقصد ذلك .

فصاحت إيفيت :

ـ لكنّك لا تستطيع أن تقول عنه ذلك ! إنه رجل بسيط ومستقيم إلى حدّ كبير .

ـ هو بوضوح تام من صنفك .

فقالت ببساطة وهي لا تكاد تدرك ما قالته :

ـ حسناً . . أعتقد أنه كذلك بطريقة ما . ولقد اعتقدت أيضاً أنك ستحبه .

فتراجع القس مستنداً إلى الستائر ، وكأن الفتاة تهدده بشيء مرعب ، وزمجر بخساسة :

ـ كُفي عن الكلام . كفّي عن الكلام . لقد قلت أكثر مما يكفي لتوريطك . لا أرغب في معرفة المزيد عن هذه الفظائع .

فألحّت قائلة :

ـ ولكن أيّة فظائع؟

وأذهلته سذاجةُ براءتها اللامبالية ، وزادت حتى من ترويعه ، فقال في صوت خفيض كفحيح الأفعى .

ـ كُفّي عن الكلام . ولكنني سأقتلك قبل أن تسيري في طريق أمك .

فنظرت إليه بينما كان يقف هنالك ، وقد أسند ظهره إلى ستائر مكتبه المخملية ، واصفر وجهه واضطربت عيناه بالخوف والغضب والكراهية كعيني الجرذ ، واستبدَّ بها شعور متجمّد خَدِر بالوحدة .

بالنسبة إليها أيضاً كان كل شيء قد فقد معناه . وكان من الصعب اختراق الصمت المتجمد العقيم الذي تلا ذلك .

وأخيراً ـ على أية حال ـ نظرت إليه ، وعلى الرغم منها وخلف نطاق إدراكها كان احتقارها له يكمن في عينيها الشابتين الصافيتين المرتبكتين ، وأخيراً سقط حول عنقه طوق العبيد .

قالت :

ـ هل تقصد أنه لا ينبغي لي أن أعرف أسرة إيستوود؟

فقال ساخراً :

ـ يمكنك أن تعرفيها إنْ كنت ترغبين ، ولكن يجب أنّ تتوقعي عندئذ أنْ تصارحي جدَّتك وعمتكَ سيسي ولوسيل . لا أريد تلويثهن . لقد كانت جدّتك زوجة مخلصة وأمّاً مخلصة إنْ وُجدت أم مخلصة واحدة قط . لقد سبق لها أن تلقّت صدْمة عار ومقتَ شديد ، يكفيها ما تحمّلت ، ولا يجب أبداً أن تتعرّض لصدمة أُخرى .

سمعت إيڤيت ذلك كله ولم تستوعبه وهي نصف مصغية . قالت :

ـ أستطيع أن أرسل لهما رسالة موجزة وأخبرهما أنك ترفض علاقتي بهما .

ـ اتبعي السبيل الذي ترتئينه ، ولكن تذكري أنه يجب عليك أن تختاري بين الناس الشرفاء وحرمة شيخوخة جدتك وبين الناس الملوّثين في عقولهم وأجسادهم .

وحلَّ الصمت مرة أخرى ، ثم نظرت إليه ، وكان وجهها شديد الارتباك ، ولكن في مكان ما من خلفية ارتباكها كان يقبع ذلك

الاحتقار العذريّ الهادئ الغريب الذي يُضمره من ولدوا أحراراً لِمَنْ ولدوا أنذالاً . وكان هو وكلّ آل سيول قد ولدوا أنذالاً .

قالت :

ـ حسناً . . سأكتب وأقول إنك ترفض علاقتي بهما .

لم يُجب فقد كان غروره قد أُشبع إلى حد ما ، وكان منتصراً في الخفاء ولكن بخساسة . قال :

ـ لقد حاولتُ أن أكتم هذا الأمر عن جدّتك والعمة سيسي فلا حاجة إلى الكشف عنه ما دمتِ قد اخترت أنْ تكون صداقتك سرية .

وساد صمت موحش .

قالت :

ـ حسناً . سأذهب لأكتب لهما .

وانسلّت إلى خارج الغرفة .

ووجهت من ثمَّ رسالتها القصيرة إلى السيدة إيستوود قائلة :

«عزيزتي السيدة إيستوود : إنّ والدي لا يستحسن مجيئي لرؤيتكما . لذا ستفهمين إذا ما اضطررنا إلى قطع العلاقة . إنني في غاية الأسف» .

كان هذا كل ما كتبته .

ومع ذلك شعرت بفراغ موحش عندما وضعت الرسالة في علبة البريد . كانت الآن خائفة حتى من أفكارها هي .

كانت تودّ أن يضمها صدر الغجري النحيل ذي التكوين الجميل . كانت تريده أنّ يضمّها الآن بذراعيه ولو لمرة واحدة ، مرة واحدة ، ويريحها ويُقويها . كانت تريده أن يقوّيها ضد أبيها الذي لم يكنْ يشعر إزاءها إلاّ بالخوف المُنفّر .

وفي الوقت نفسه انكمشت وأجفلت بحيث لم تعد تستطيع السير

إلاّ بصعوبة خوفاً من الفكرة القذرة : الجنون الإجرامي . فقد بدا أنّ الخوف يجرح عقبيها عندما كانت تسير .

الخوف . . الخوف الهائل البارد الذي ينتاب مَنْ ولدوا أخساء ، وينتاب أباها وكل ما هو بشري وحيّ . لقد غمرتها الإنسانية كمستنقع ضخم ، وغاصت وقد خارت ركبتاها وامتلأت نفسها بالنفور والخوف من كل شخص قابلته .

وعلى أية حال فقد كيّفت نفسها بسرعة تامة مع مفهومها الجديد عن الناس .

كان عليها أن تعيش ، وعرفت أنه من غير المجدي أن يتشاجر المرء مع مورد رزقه ، وإنه لاعتقاد صبياني أن يتوقع المرء الكثير من الحياة . وهكذا ، وبقدرة جيل ما بعد الحرب على التكيف السريع ، كيّفت نفسها مع الحقائق الجديدة . كان والدها كما هو دائماً . إنه يتملّق المظاهر دائماً ولسوف تفعل هي الشيء نفسه . سوف تتملّق المظاهر هي أيضاً .

هكذا تشكّلت صلابة معينة كالصخر المتبلور في قلبها تحت لامبالاتها المرحة الشبيهة بنسيج العنكبوت الواهي . لقد انهارت أوهامها بانهيار إحساساتها بالتعاطف . ظاهريّاً كانت تبدو مثلما كانت عليه . أمّا باطنياً فقد أصبحت صلبة ومنعزلة ، ودون أن تدرك هي نفسها أصبحت ميّالة إلى الانتقام . ظاهرياً ، بقيت كما هي ، كان ذلك جزءاً من خطتها .

يجب أن تبقى ، ظاهرياً على الأقل ، نسخة طبق الأصل لما يتوقعه الآخرون منها ، طالما أن الظروف بقيت هي هي . لكن النزعة على الانتقام كانت تتجلى في رؤياها الجديدة للناس .

كانت ترى تفاهة القس الواهنة الواهية تحت وسامته الشهمة ظاهرياً ، وكانت تحتقره .

بيد أنها مع ذلك أحبته بطريقة ما . إنّ المشاعر معقدة جداً .

وأصبحت الجدة المرأة التي بدأت تمقتها بكل جوارحها ، تلك العجوز البدينة التي تجلس هناك في ظلام عينيها كفطر ضخم ملطخ بالاحمرار ، وقد غار عنقها بين كتفيها المتكوّمين وذقنها الهرمة المتهدلة ، إلى درجة أنها كانت بلا عنق كحبة البطاطا المزدوجة . هي التي كرهتها إيفيت حقاً كراهية مطلقة نقية تكاد تكون ممتعة .

كانت كراهيتها صافية جداً إلى درجة أنها كانت تستمتع بها ما دامت تشعر بالقوة .

كانت العجوز تجلس بوجهها المجعد المحمر وقد انضغط إلى الخلف قليلاً ، واستقرت قلنسوتها ذات الرباط على شعرها الأبيض الخفيف ، وما زال أنفها القصير الغليظ ناتئاً ، فيما انغلق فمها الهرم كالفخ . كان فم هذه الروح العجوز الرؤوم يكشفها ، فقد كان دائماً من النوع المضغوط ، بيد أنه أصبح مع سنها الكبير كفم الضفدع ، دون شفتين ، بينما كان الفك الأسفل يضغط إلى الأعلى كفك الفخ السفلي .

وكان أشد ما تبغضه إيفيت هو منظر ذلك الفك السفلي وهو يضغط بقسوة إلى الأعلى ضغطاً قوياً متواصلاً بارزاً ، بحيث كان الأنف القصير الغليظ يضطر بدوره إلى الضغط نحو الأعلى ، وكان الوجه بكامله ينضغط قليلاً إلى الخلف تحت جبهتها الكبيرة الشبيهة بالجدار .

كانت الإرادة الضفدعية الهرمة القذرة الكامنة في العجوز مخفية حالما تراها : إرادة ضفدعية ذاتية ملحدة وأدنى من أن تكون بشرية . كانت تنتمي إلى ذلك العِرق القديم المتبقي من الضفادع أو السلاحف ، وكان ذلك يجعل المرء يشعر بأن الجدة لن تموت أبداً ، فهي ستواصل الحياة كهذه الزواحف الراقية في حالة نصف غيبوبة وإلى الأبد .

ولم تجرؤ إيفيت حتى على الإيحاء لوالدها بأن الجدة لم تكن كاملة . لو فعلت لهدد ابنته بالمصحة العقلية ، ذلك التهديد الذي كان يبدو دائماً أنه يحتفظ به لاستخدامه عند الحاجة : المصحة العقلية . تماماً وكأن كره الجدة ومنزل الأقارب الرهيب كان بحد ذاته برهاناً على الجنون ، الجنون الخطير .

ومع ذلك فقد انفجرت باهتياج ذات مرة في إحدى حالات كآبتها النزقة قائلة :

ـ كم هو بغيض هذا المنزل ! تأتي العمة لوسي والعمة نل والعمة آليس ويشكلن حلقة كحلقة الغربان مع الجدة والعمة سيسي ، وقد رفعن جميعاً تنانيرهن ليدفئن أرجلهن على نار المدفأة . ويوصد الباب في وجهينا أنا ولوسيل فنحن لسنا إلاّ دخيلتين في هذا المنزل البغيض .

فنظر والدها القس إليها في فضول ، غير أنها أفلحت في إسباغ شيء من النكد على حديثها ، ومن الوقاحة النزقة فحسب على نظرتها ، لتدفعه إلى الضحك ، وكأنها في سَوْرة غضب صبيانية ، وعلى الرغم من ذلك فقد أدرك في مكان ما من دخيلة نفسه أنها كانت ، عمداً وبحقد دفين ، تعني ما قالته ، وكان حَذراً منها .

وبدت حياتها الآن وكأنها ليست إلاّ احتكاكاً نَزِقاً بأسرة سيول البغيضة التي وُلدت فيها . لقد اشمأزَّت من الأبرشية اشمئزازاً استهلك حياتها ، اشمئزازاً كان من القوة بحيث أنها لم تستطع معه في الواقع أن تبتعد عن المكان . وما دامت الأبرشية باقية كانت إيفيت مشدودة إليها وكأنما بفعل السحر ، إنما بنفور .

من ناحية ثانية لقد نسيت أسرة إيستوود . فقبل كل شيء ، ماذا كانت ثورة اليهودية الصغيرة لتُشكّل إذا ما قورنت بالجدة ومجموعة سيول؟

لم يكن الزوج أبداً أكثر من شيء نصف عرضي . ولكن العائلة ! . . العائلة المريعة ذات الرائحة الكريهة التي تأبى أن تتشتت وقد التصقت نصف ميتة حول قاعدة تنتصب عليها امرأة عجوز شبيهة بالفطر ! . . كيف كان في استطاعة المرء أن يتغلب عليها؟

ولم تنس الغجري تماماً ، ولكن لم يكن لديها متسع من الوقت لأجله .

تلك الفتاة التي كانت ضجرة تقريباً حتى النزع ، والتي لم يكن لديها على الإطلاق ما تفعله ، ألم يكن لديها متسع من الوقت لتفكر حتى بأي شيء على نحو جدّي؟

الوقت ، قبل كل شيء ، إنْ هوَ إلاّ تيار الروح في تدفقها .

ورأت الغجري مرتين . فقد جاء مرة إلى المنزل ليبيعهم بعض الأشياء ، وكانت تراقبه من نافذة منبسط الدرج ، غير أنها رفضت أنْ تنزل إليه . وقد رآها هو أيضاً بينما كان يعيد الأشياء إلى عربته ، لكنه هو أيضاً لم يَعرها اهتماماً . ولكونه ينتمي إلى عِرْقٍ يعيش فقط ليغير على ضواحي مجتمعنا ، وليكُنَّ العداء إلى الأبدَ ، ويَعيش على الغنائم فحسب ، كان إلى حد كبير سيد نفسه وأكثر احتراساً من أن يُعرّض نفسه جهاراً لقبضة قانوننا الهائلة الرهيبة . كان قد خاض غمار الحرب ، وكان قد استُبعد رغم إرادته في ذلك الوقت .

وهكذا فقد عَرض نفسه الآن عند الأبرشية وشغل نفسه بهدوء وبطء عند عربته خارج البوابة البيضاء وبمظهر الانعزال الصامت الذي لا يعرف الاستسلام إلى الأبد ، والذي أسبغ عليه رشاقته الضارية المنعزلة .

كان يعرف أنها كانت تراه ، ويجب أن تراه صلباً وهو ينادي على أوعيته النحاسية بهدوء ، في عدائه القديم المتوارث ضد من هم على شاكلتها .

من هم على شاكلتها؟ ربما كان مخطئاً . فقد قرع قلبها الآن بشدة في ضربات كضربات مطرقته على النحاس طارقاً في نبضاته الظروف من حولها .

بيدَ أنّ الغجري كان يطرق خلسة من الخارج ، بينما كانت هي بسرية أكثر تطرق من داخل الأبرشية . لقد أحبته . أحبت وجوده الهادئ الصامت الواضح . أحبت ذلك الثبات الغامض فيه والذي يصمد في المقاومة دون أدنى فكرة عن النصر . وأحبت الصلابة الغريبة المتزايدة والتحرر من الوهم في عدائه ، وهي صفات تنتمي إلى روح ما بعد الحرب . نعم ، لو كانت تنتمي إلى أيّ جانب ، وإلى أيّ عشيرة ، لكان انتماؤها إلى جانبه وإلى عشيرته . وكان في مقدورها تقريباً أن تكتشف في قلبها نزوعاً إلى الذهاب معه لتصبح امرأة غجرية منبوذة .

لكنها وُلدت داخل الحدود ، وكانت تحب الركون إلى الراحة ، وأنْ يكون لها مكانة معينة ، حتى كمجرد ابنة للقس يستطيع المرء أن ينال مكانةً معينة . وكانت تحب ذلك كما كانت أيضاً تحب أن تُفَتِّت أعمدة المعبد من الداخل . كانت تريد أن تكون في أمان تحت سقف المعبد ، ومع ذلك فقد استمتعت بتفتيت شظايا صغيرة من الأعمدة التي تدعم المعبد . وما من شك في أنّ شظايا كثيرة قد نُجرت من أعمدة معبد فلسطين قبل أنْ يقوّض شمشون أرجاءه .

ـ لا أعرف لماذا لا ينبغي للفتاة أن تنال نصيبها من المتعة حتى تصبح في السادسة والعشرين ثم تستسلم وتتزوج !

كانت هذه هي فلسفة لوسيل التي تعلمتها من نساء يكبرنها سنّاً . كانت إيڤيت في الواحدة والعشرين وهذا ما كان يعني أنه ما زال لديها خمس سنين أخرى تنال فيها هذه المتعة النفسية . وكانت المتعة تعني في تلك اللحظة : الغجري . أمّا الزواج في سن السادسة والعشرين فقد

كان يعني ليو وجيري . وهكذا تستطيع المرأة أن تستمتع ، وتضمن حظها من الرزق في الحياة .

كانت إيڤيت الغائصة في العداء الرهيب المتورط لأسرة سيول كبيرة في السن وحكيمة جداً : بكهولة وحكمة الشباب التي تتخطى دائماً كهولة وحكمة المُسنين أو مَنْ هُمْ أكبر سناً .

وفي المرة الثانية قابلت إيڤيت الغجري مصادفة . كان ذلك في شهر آذار/ مارس ، وكان الطقس مُشمساً بعد هطول أمطار لم يسمع أحد بمثلها .

كانت نباتات بقلة الخطاطيف صفراء خلف الأسيجة المكوّنة من الشجيرات ، وكانت أزهار الربيع قد أينعت بين الصخور . ومع ذلك ، كانت تنبعث رائحة الكبريت من مصنع الفولاذ البعيد قادمة من السماء الزرقاء زُرقة الفولاذ نفسه .

ومع ذلك ، كان الوقت ربيعاً !

كانت إيڤيت تتنزه على دراجتها ببطء على طول «كودنر غيت» بمحاذاة مقالع الكلس عندما شاهدت الغجري وهو يخرج من باب كوخ حجري . كانت عربته متوقفة في الطريق ، وكان عائداً إلى العربة بمكانسه وأشيائه النحاسية .

قالت :

ـ هل صنعت أيّ شيء جديد وجميل؟

فقال وهو يلقي عليها نظرة عجلى :

ـ لا أعتقد ذلك .

كانت تلك الرغبة لا تزال هناك في عينيه ، لا تزال غريبة وسافرة . لكنها كانت أكثر نأياً وقد خفّت حدّة جرأتها . وكان ثمة ومضة ضئيلة وكأنه في مقدوره أن يبغضها ، ولكنّ هذه الومضة ذابت ثانية عندما

رآها تجول بنظرها بين قطع النحاس الأصفر والأحمر . كانت تتفحّصها بعناية . وكان ثمة صحن نحاسيّ صغير بيضوي الشكل وقد نقشت عليه صورة غريبة أشبه ما تكون بشجرة نخيل .

قالت :

ـ إنّه يعجبني . كم ثمنه؟

قال :

ـ كما تشائين .

وأثار ذلك أعصابها ، فقد بدا فظاً تعوزه الكياسة ، بل يكاد يكون هازئاً .

فقالت وهي ترفع بصرها إليه :

أُفضل لو ذكرت الثمن .

قال :

ـ أعطني ما تريدين .

فقالت فجأة :

ـ كلاّ . إذا لم تخبرني بثمنه فلن آخذه .

فقال :

ـ حسناً . شلنان .

ووجدت معها نصف كراون ، فأخرج من جيبه حفنة من النقود الفضية أعطاها منها نصف شلن .

قال وهو ينظر إليها بعينين فضوليتين متفحصتين :

ـ لقد راود الغجرية العجوز في الحلم شيء عنك .

فصاحت إيفيت وقد اهتمت لكلامه في الحال :

ـ حقاً؟ وماذا كان هذا الشيء؟

ـ قالت : «كوني أكثر شجاعة في قلبك وإلاّ خسرت المباراة» . لقد

قالتها على النحو التالي : «كوني أكثر جرأة في جسدك وإلاّ سيتخلى عنك حظك» ، وقالت أيضاً : «أنصتي لصوت الماء» .

خلّف كلامه انطباعاً قوياً جداً في نفس إيڤيت فسألته :

ـ وماذا يعني كلامها هذا؟

قال :

ـ سألتها . وقالت إنها لا تعرف .

قالت إيڤيت :

ـ أخبرني ثانية بما قالته .

ـ «كوني أكثر جرأة في جسدك وإلاّ سيتخلى عنك حظك» . وأيضاً : «أنصتي لصوت الماء» .

ونظر في سكون إلى وجهها المتفكر الناعم . وبدا له أنّ شيئاً ما يشبه العطر تقريباً بدأ يتدفق من صدرها الغض نحوه مباشرة في صلة عرفان بالجميل .

قالت :

ـ عليّ أن أكون أكثر جرأة في جسدي وعلي أن أنصت لصوت الماء . حسناً . إنني لا أفهم ولكن ربما سأفهم لاحقاً .

نظرت إليه بعينين صافيتين . إنّ الرجل والمرأة مجبولان من أنفس كثيرة .

ولقد أحبت إيڤيت هذا الغجري بنفس واحدة ، ولكنها تجاهلته ، أو هي أضمرت النفور منه بأنفس كثيرة . سألها :

ـ ألن تأتي إلى المقلع مرة أخرى؟

ومرة أخرى نظرت إليه بشرود وقالت :

ـ ربما سآتي ذات يوم .

فقال وهو يبتسم ابتسامة باهتة ويلقي نظرة عجلى نحو الشمس :

ـ الطقس ربيعي وسنقوّض خيامنا قريباً ونشدّ رحالنا .

فقالت :

ـ متى؟

ـ ربما في الأسبوع القادم .

ـ إلى أين؟

فحرّك رأسه مرة أخرى وقال :

ـ ربما إلى أعالي الشمال .

فنظرت إليه وقالت :

ـ حسناً . ربما سآتي قبل أن ترحلوا لأودع زوجتك والغجرية العجوز التي أرسلت إليّ هذه الرسالة الحلم .

لم تبرّ إيڤيت للغجري بوعدها . كانت الأيام القليلة المتبقية من شهر آذار/ مارس جميلة ولقد تركتها تمضي .

كانت تتميّز بنفور غريب دائماً إزاء الشروع في عمل ما أو القيام بأية حركة حقيقية من طرفها . كانت تريد دائماً أن يقوم شخص آخر بالحركة نيابة عنها وكأنها لم تكن تود أن تلعب دورها الخاص في هذه الحياة .

وعاشت كما اعتادت . كانت تخرج لزيارة أصدقائها ، وإلى الحفلات ، وترقص مع ليو الذي لم يعرف الهزيمة . ولقد أرادت يوماً أن تذهب وتقول وداعاً للغجر . . أرادت أن تقوم بذلك ولم يكن يمنعها شيء .

ولقد أرادت أن تذهب بعد ظهر يوم الجمعة بصورة خاصة . كان الطقس مشمساً وكانت آخر أزهار الزعفران عند أسفل الممر في تألقها الكامل ، وقد تفتّحت على مداها وراحت تتقلب فيها أوائل أسراب النحل . كان نهر «بابل» يندفع تحت الجسر الحجري وقد زخر بالمياه على نحو غريب وكاد أن يملأ القناطر ، وقد فاح عبق أشجار المازريون .

أحسّت إيڤيت بالكسل الشديد ، الكسل الشديد ، الكسل الشديد ، فهامت في الحديقة قرب النهر نصف حالمة وهي تتوقع شيئاً ما . . تتوقّع ما لا يقع .

ستبقى خارج المنزل ما دام وميض شمس الربيع يتألق . ففي داخل المنزل كانت الجدة تجلس وقد أسندت ظهرها إلى الخلف كأسقف عجوز رهيب ، بجسدها الضخم المتلفّع بالحرير الأسود وقلنسوتها البيضاء ذات الرباط ، وهي تدفىء قدميها قرب النار وتسمع كل ما ينبغي على العمة «نل» أن تقوله .

كان يوم الجمعة هو يوم العمة «نل» ، وكانت تأتي عادة لتناول الغداء وتغادر بعد تناول الشاي في وقت مبكر .

وهكذا كانت الأم والابنة الضخمة ، المبتذلة إلى حد ما ، والتي أصبحت أرملة في سن الأربعين ، تجلسان وتنهمكان في الحديث والأخبار قرب النار ، بينما كانت العمة سيسي تجوس المكان جيئة وذهاباً .

كان يوم الجمعة هو يوم ذهاب القس إلى البلدة ، وكان أيضاً إجازة نصف اليوم بالنسبة إلى الخادمة .

جلست إيفيت على مقعد خشبي في الحديقة على ارتفاع بضعة أقدام فقط من ضفة النهر الزاخر بالمياه ، والذي يتدفق بمقدار غريب وعجيب من الماء . كانت أزهار الزعفران تتخطى مساكب الأزهار المزينة ، وكان العشب في الأنحاء التي قلّم فيها بلون أخضر داكن ، بينما بدا الغار أكثر تألقاً . وظهرت العمة سيسي عند أعلى درجات المدخل المسقوف ، وصاحت تسأل عن إيفيت فيما إذا كانت تريد تناول فنجان من الشاي في ذلك الوقت المبكر . . وبسبب صوت خرير النهر الذي كان تحتها بالضبط لم تستطع إيفيت أن تسمع ما قالته العمة سيسي ، لكنها تكهنت بذلك وهزت رأسها . فنجان مبكر من الشاي في داخل المنزل في الوقت الذي كانت فيه الشمس مشرقة فعلاً؟ كلاّ . شكراً .

كانت تحس برجُلها الغجري بينما كانت تجلس هناك تتفكر في ضوء الشمس . كانت روحها تتحلّى بموهبة القدرة على الانفلات منها بصورة نصف مؤلمة ونصف مريحة ، والتجوال على غير هدى بعيداً في مكان ما وإلى شخص ما سلب خيالها . فأحياناً تكون عند منزل أسرة فراملي على الرغم من أنها لم تقترب منه ، وأحياناً تقيم بروحها طوال الوقت مع أسرة إيستوود . أمّا اليوم فقد كانت مع الغجر . كانت هناك في

الأعالي عند مخيمهم في المقلع . وتراءى لها الرجل وهو يطرق النحاس ويرفع رأسه لينظر إلى الطريق والأطفال يلعبون في حظيرة الحصان ، والمرأتان زوجة الغجري والمرأة القوية المسنّة ، وقد عادتا إلى البيت بصررهما في رفقة الرجل العجوز .

وفي هذا الأصيل شعرت على نحو قوي أن ذلك المكان كان مأواها : مخيم الغجر والنار والكرسي الخفيض والرجل صاحب المطرقة والعجوز الشمطاء .

والواقع أنه كان جزءاً من طبيعتها أن تنتابها هذه النوبات من الحنين إلى مكان تعرفه ، أن تكون في مكان ما مع شخص ما يمثل مأوى لها . وفي هذا الأصيل كان مأواها مخيم الغجر . ولقد جعله الرجل ذو السترة الخضراء بيتاً لها . فيكفي أن تكون في المكان الذي يؤمه لتشعر أنها في بيتها . عربات القافلة ، الأطفال ، النساء الأخريات . كان كل شيء طبيعياً بالنسبة إليها ، كان بيتها وكأنها ولدت فيه .

وتساءلت عمّا إذا كان الغجري يشعر بها ، عمّا إذا كان في مقدوره أن يراها جالسة على الكرسي الخفيض قرب النار ، وفيما إذا كان سيرفع رأسه ويراها وهي تنهض ناظرة إليه ببطء نظرة ذات مغزى وتستدير باتجاه درجات عربته . هل كان يعرف؟ هل كان يُدرك؟

ورفعت نظرها في غموض إلى مرتفعات أشجار اللاركس المعتمة الكائنة في شمال المنزل ، حيث كان الطريق يرتفع مخفياً عن الأنظار وينطلق باتجاه «بونسل هد» . لم يكن ثمة من شيء ، وهامَ نظرها إلى الأسفل ثانية .

عند سفح المنحدر كان النهر ينعطف ويرتد بقسوة وبشكل منذر بالشؤم عن الصخور المخفيضة الكائنة عبره ، ويتدفق بمحاذاة الحديقة إلى الجسر . كان زاخراً على نحو غير طبيعي مثقلاً بالطين الأبيض .

قالت لنفسها :

ـ «أنصتي إلى صوت الماء» ، ولكن لا حاجة إلى الإنصات إليه إن كان صوته يعني الضجة .

ونظرت مرة أخرى إلى النهر الزاخر وهو يتكسر بغضب لدى التفافه حول المنعطف ، ومن فوقه تعلقت حديقة المطبخ ذات المظهر الأسود وأشجار الفواكه ذات الطبيعة القاسية . كان كل شيء على المنحدر يواجه الجنوب والجنوب الغربي من أجل الشمس . ووراءه ، فوق المنزل وحديقة المطبخ ، تدلت غابة صغيرة منحدرة من أشجار اللاركس التي ران عليها الذبول .

كان البستاني يعمل في حديقة المطبخ في أعالي ذلك المكان على مقربة من طرف غابة اللاركس .

وسمعت إيڤيت نداء ، وكان ذلك النداء صادراً عن العمة سيسي والعمة نل . كانتا عند الممر تلوّحان لها بالوداع . وردّت إيڤيت ملوحة ، ثم صاحت العمة سيسي وهي تحاول أن تجعل صوتها يطغى على صوت المياه :

ـ لن أتأخر . لا تنسي أن الجدة بمفردها .

فصرخت إيڤيت دون جدوى :

ـ حسناً .

وجلست على مقعدها وراقبت المرأتين غير الوقورتين بسترتيهما الطويلتين وهما تسيران ببطء فوق الجسر وتبدآن الصعود المنحني على المنحدر المقابل . كانت العمة نل تحمل ما يشبه الحقيبة ، وكانت قد أحضرت فيها بعض البضائع إلى الجدة ، وأخذت خضروات أو أي شيء كانت تقدمه حديقة أو خزانة الأبرشية . وتلاشى الشبحان ببطء على الطريق المنحني الصاعد والمائل إلى البياض وهما تجاهدان في

الصعود ببطء باتجاه قرية «بابلويك» .

كانت العمة سيسي ذاهبة إلى القرية من أجل شيء ما .

كانت الشمس تميل إلى الغروب وقد اصفر لونها . ويا للأسف ! . . يا للأسف ! . لقد أشرف اليوم المشمس على الانقضاء ، وسيكون عليها أن تدخل المنزل إلى تلك الغرف المقيتة ، وإلى الجدة . وستعود العمة سيسي مباشرة . كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ، وسيصل الآخرون كلهم من البلدة بعد السادسة بقليل ، وسيكونون متعبين نزقين إلى حد ما .

وعندما نظرت حولها في قلق سمعت عبر صوت المياه المتدفقة الضجة الحادة لعربة وحصان وهما يصدران قعقعة على الطريق المختفي بين أشجار اللاركس . وكان البستاني ينظر إلى الأعلى أيضاً .

واستدارت إيفيت مرة أخرى وهي تتباطأ وتتقدّم متمهلة بضع خطوات قرب النهر الممتلئ ، غير راغبة في الدخول إلى المنزل ، وتلقي نظرة عجلى إلى أعلى الطريق لترى فيما إذا كانت العمة سيسي قادمة ، ولو رأتها لدخلت المنزل .

وسمعت فجأة شخصاً يصيح ، فنظرت حولها ، وعند أسفل الممر الكائن بين أشجار اللاركس كان الغجري يقفز ، كما كان البستاني يركض أيضاً على مسافة بعيدة وراء الغجري . وفي اللحظة نفسها شعرت بهدير هائل قبل أن تستطيع الحركة لينقلب إلى زمجرة هائلة تصمُّ الآذان . وكان الغجري يومئ بيديه فنظرت وراءها .

نظرت ورأت عند منحنى النهر طائفة من الأمواج الهوجاء السمراء المائلة إلى الاصفرار تتقدم نحوها كجدار من الإسمنت ، ما أصابها برعب وهلع وذهول .

كان الصوت الهادر يكتسح كل شيء . وكانت هي فاقدة القوى

وشديدة الذهول وقد استبدّ بها العجب ، وأرادت أن تراها . وقبل أن تتمكن من التفكير مرتين كانت الموجة قريبة منها كجرف هار من المياه . وكاد يغمى عليها من الرعب . وسمعت صرخة الغجري ونظرت إلى الأعلى لتراه وهو يثب نحوها وقد جحظت عيناه السوداوان .

وصرخ وهو يمسك بذراعها :

ـ اركضي .

وفي اللحظة نفسها كانت الموجة الأولى تجرف قدميها من تحتها وهي تلتف كالدوامة في هذه الضجة المجنونة التي بدت فجأة ولسبب ما كالسكون مصحوبة بفيضان مفترس فوق الحديقة . إنه حصاد الماء الرهيب !

وجذبها الغجري بمشقة وراحا يترنحان ويغوصان ومع ذلك يخطوان بثبات باتجاه المنزل . كانت بالكاد تحتفظ بوعيها وكأن الفيضان كان في روحها .

وكان ثمة مصطبة وحيدة للحديقة محاطة بالعشب على مقربة من الممر المحيط بالمنزل .

شق الغجريّ بأظفاره طريقه متسلقاً هذه المصطبة ليصل إلى المستوى الجاف من الممر وهو يسحبها وراءه ، وقفز بها إلى المدخل المسقوف بمحاذاة النوافذ .

وقبل أن يصل إلى ذلك المكان طغت عليهما موجة عارمة هائلة وهي تحصد وتسقط حتى الأشجار وأسقطتهما أيضاً .

وأحسّت إيفيت بنفسها منساقة في تيار جليدي مبرح من الماء وهي تدور وتدور ، ووحدها قبضة يد الغجري المخيفة كانت على رسغها ، وسقط كلاهما في الماء وانجرفا .

وشعرت بكدمة أليمة في مكان ما من جسدها أصابتها بدوار . ثم جذبها الغجري إلى الأعلى .

كان منتصباً ومبتلاً يسيل منه الماء وقد تشبث بجذع شجرة الوستارية الكبيرة التي كانت تنمو على الحائط وقد سحقه الماء هناك .

كان وجهها فوق الماء ، وكان يمسك بذراعها حتى بدا وكأنه خلع من مكانه ، لكنها لم تكن لتستطيع النهوض على قدميها .

وأخذت تجاهد وتجاهد محمومة كأنها في حلم ، لكنها لم تستطع التحكم في قدميها ، ووحدها يده كانت مطبقة على رسغها .

وأخذ يجذبها ويقرّبها منه حتى أمسكت يدها الأخرى برجله ، وكاد أن يهوي مرة أخرى ، بيد أن شجرة الوستارية سندته ، وجذبها نحوه إلى الأعلى ، وأنشبت أظفارها فيه على نحو رهيب ، ووقفت على قدميها وقد تعلق هو بجذع شجرة الوستارية وكأنّه شطر إلى نصفين .

كان الماء يعلو ركبتيها . ونظرت هي والرجل كل في وجه الآخر الرهيب الذي كان الماء يتدفق منه . وصرخ :

ـ اذهبي إلى الدرجات .

كانت الدرجات عند طرف الزاوية وعلى مبعدة أربع خطوات !

ونظرت إليه . لم يكن في وسعها أن تذهب . وحدقت عيناه فيها كعيني النمر ودفعها بعيداً عنه ، فتشبثت بالحائط وبدا أن الماء قد همد قليلاً ، وترنّحت عند الزاوية ، لكنها رغم ترنحها دارت واستندت إلى طرف درابزين درجات المدخل المسقوف والرجل في إثرها .

ووصلا إلى الدرجات في الوقت الذي تناهى فيه صوت هدير آخر ، واهتزت حوائط المنزل ، وجاش الماء إلى الأعلى حول أرجلهما مرة أخرى ، لكن الغجريّ كان قد فتح باب الردهة ، فاندفعا مع الماء إلى الداخل وهما يدوران نحو الدرجات الداخلية .

وبينما كانا يفعلان ذلك شاهدا جسد الجدة القصير الممتلئ وهو يظهر للعيان في الردهة بعيداً عن باب غرفة الطعام . وعندما التفت أول موجة من الماء حول رجليها رفعت يديها وقد برزت أصابعها ، وفتحت فمها الشبيه بالتابوت في صرخة مبتلة ترتجف في حالة من فقدان الوعي .

ولم تكد تشعر بالغجريّ المخضل بالماء حتى ارتقت منبسط الدرج وهي ترتجف والماء يقطر منها ، حتى أنها لم تكن تقوى على الوقوف منتصبة القامة متشبثة بالدرابزين ، بينما كان المنزل يرتج والماء يعصف في الأسفل . وكان الغجري يخوض نوبات من السعال عند أعلى الدرجات وقد اختفت قلنسوته وانسدل شعره الأسود على عينيه وهو يحدق من خلال شعره المبتلّ إلى جيشان الماء المقزز للنفس في الردهة إلى الأسفل .

ونظرت إيفيت أيضاً وقد خارت قواها ، ورأت الجدة وهي تبرز فجأة كطوف غريب وقد اصطبغ وجهها بلون أرجواني ونتأت عيناها الزرقاوين المكفوفتان وأخذ الزبد يهسهس في فمها ، وأنشبت إحدى يديها الهرمتين الأرجوانيتين أظفارها في حاجز الدرابزين وظلت عالقة به للحظة حيث التمع خاتم الزواج .

قال الغجريّ الذي كان قد تخلّص من السعال ودفع شعره إلى الخلف مخاطباً ذلك الوجه الرهيب الشبيه بالطوف في الأسفل :

ـ هذا شنيع . . هذا شنيع . .

وأصيب المنزل مرة أخرى بضربة عاتية بدت كالرعد ، وتناهى صوت ضوضاء تصدع وتحطم وتقعقع غريب . وماج الماء عالياً كالبحر . واختفت يد الجدة واختفى كل ما يدل على أي شيء باستثناء ذلك الماء الهائج .

واستدارت إيفيت في جنون أعمى لا أثر فيه للوعي وهي تترنح كقطة مبللة نحو الدرج وراحت تتسلق برشاقة ، ولم تتوقف إلى أن وصلت إلى باب غرفتها وقد شلها صوت انهيار ممزق مغث ، فيما راح المنزل يتأرجح .

وصاح الغجري الشاحب المخضر في وجهها :

ـ المنزل ينهار .

وحدق في وجهها المخبول قائلاً :

ـ أين المدخنة؟ المدخنة الخلفية؟ في أية غرفة هي؟ المدخنة ستصمد .

وحدق بضراوة غريبة في وجهها مرغماً إيّاها على الإدراك ، وأومأت برأسها بطريقة غريبة مخبولة ، أومأت في هدوء تام قائلة :

ـ هنا . . هنا . . إنها على ما يرام .

ودخلا غرفتها التي كانت تحتوي على مدفأة ضيقة . كانت غرفة خلفية بنافذتين تطل كل منهما على أحد جانبي أنبوبة المدخنة الضخمة . وذهب الغجري الذي كان يرتجف بكل أطرافه ويسعل بشكل حاد إلى النافذة لينظر إلى الخارج .

إلى الأسفل وما بين المنزل وارتفاع التل المنحدر ، كان يتدفق تيار موحش من الماء محملاً بالنفايات بما فيها بيت الكلب روفر الأخضر . وراح الغجري يسعل ويسعل ويحدق نحو الأسفل في شرود . وراحت الأشجار تتهاوى واحدة إثر الأخرى وقد حصدها الماء الذي كان عمقه عشرة أقدام دون شك .

واستدار نحو إيفيت وهو يرتجف ويضغط بيديه المخضلتين بالماء صدره المبتلّ وقد رانت على وجهه المزرق نظرة استسلام .

ومزقت المنزل ضجة رهيبة ثم دوى انفجار مائي عميق . كان شيء قد تقوّض في الأسفل . وهاجت الأرض وماجت تحتهما ، وتجمد

كلاهما بضع لحظات وقد صعقهما الذهول . ثم أفاق الغجري قائلاً :

ـ هذا مريع ! . . هذا مريع . . هذه ستصمد . هذه ستصمد هنا . أترين تلك المدخنة؟ إنها كالبرج . أجل ! حسناً ! . . حسناً ! . . اخلعي ملابسك واذهبي إلى الفراش وإلاّ ستموتين من البرد .

فقالت له وهي تجلس على كرسي وترفع بصرها إليه بوجهها الصغير الأبيض المخبول الذي التصق الشعر حوله :

ـ كل شيء على ما يرام ! كل شيء على ما يرام تماماً .

فصاح :

ـ كلاّ ! . . كلاّ ! اخلعي ثيابك وسأجففك بهذه المنشفة وسأجفف نفسي ، فإذا انهار المنزل نكون قد متنا دافئين ، وإذا لم يسقط المنزل عشنا دون أن نهلك بذات الرئة .

وجذب حافة سترته إلى الأعلى وهو يسعل ويرتجف في عنف ، وجاهد بكل قدرته المرتجفة التي أرهقها البرد ليخلع سترته المبتلة المحكمة .

صاح وقد التفع وجهه بالسترة :

ـ ساعديني .

فأمسكت بحافة السترة في طاعة وجذبت بكل قدرتها ، وخرجت السترة من فوق رأسه ، ووقف وقد ظهرت حمالات بنطاله .

وأمرها في ضراوة وقد بدت عليه همجية الحرب :

ـ اخلعي ملابسك وجففي نفسك بهذه المنشفة .

وأخرج نفسه من بنطاله كالشخص الممسوس ، وأفلت من قميصه المبتل الملتصق بجسمه فظهر نحيلاً مزرقاً وهو يرتجف من البرد والصدمة . أمسك منشفة وبدأ يجفف جسده بسرعة وقد أخذت أسنانه تصطك كقعقعة الصحون . ورأت إيفيت أن ذلك العمل كان حكيماً

فحاولت أن تتخلص من ثوبها ، ونزع الغجري عنها الثوب المبلل الرهيب المميت ، ثم ذهب إلى الباب على أطراف أصابعه فوق الأرض المبتلة وهو يواصل تجفيف نفسه .

وهناك وقف عارياً متحجّراً والمنشفة في يده ، ونظر نحو الغرب باتجاه المكان الذي كانت توجد فيه نافذة منبسط الدرج الأعلى ، وكان ينظر إلى الغروب فوق بحر مجنون من المياه يعج بالأشجار المقتلعة والنفايات . وكانت زاوية المنزل البعيدة ، حيث يقوم المدخل المسقوف ودرجات السلم ، قد اختفت بكاملها . كان الجدار قد انهار وترك الطوابق وقد انكشفت إلى الخارج ، وكان الدرج قد تلاشى .

وأخذ يراقب الماء دون حراك . وهبت عليه ريح باردة فأطبق على أسنانه المصطكة بجهد جهيد من إرادته ، واستدار إلى داخل الغرفة مرة أخرى مغلقاً الباب .

كانت إيڤيت تحاول أن تجفف نفسها وهي عارية ترتجف ارتجافاً شديداً أمضّها ، فصاح :

ـ حسناً . . حسناً . . لم يعد الماء يرتفع . . هذا شيء حسن . .

وبدأ يجففها بمنشفته ، وهو نفسه ينتفض بكامل جسده ، لكنه ظل ممسكاً بها من كتفها بقبضته ، وببطء وخدر راح يجفف جسدها الرقيق محاولاً أن يجفف إلى حد ما شعر رأسها الصغير المثير للشفقة ، وفجأة توقف . وأمرها قائلاً :

ـ من الأفضل أن تستلقي في الفراش فأنا أريد أن أجفف نفسي .

وراحت أسنانه تصطك وتصطك وتصطك في طقطقات هائلة كانت تقطع عليه كلماته . وزحفت إيڤيت إلى فراشها وهي تنتفض في شبه غيبوبة ، وذهب هو مرة أخرى إلى النافذة الشمالية لينظر إلى الخارج وهو يبذل جهوداً مضنية ليحتفظ بثباته ويدفئ نفسه بالتجفيف .

كان الماء قد ارتفع قليلاً ، وكانت الشمس قد انحدرت ، وكان ثمة وهج مائل إلى الاحمرار . وجفف شعره حتى أصبح كتلة متشابكة مبتلة سوداء ، ثم توقف لفترة قصيرة ليلتقط أنفاسه في نوبة مفاجئة من الارتجاف ، ثم نظر إلى الخارج مرة أخرى وفرك صدره ثانية ، وبدأ يسعل مرة أخرى بسبب الماء الذي ابتلعه .

كانت منشفته قد احمرت : لقد جرح نفسه في مكان ما ، لكنه لم يكن يحس بشيء . كانت ضجة الماء الهائلة الغريبة لا تزال تسمع ، وكذلك صوت الارتطام الرهيب للأشياء وهي ترتطم بالجدران .

وبدأت الريح تهب مع غروب الشمس باردة قاسية ، وأخذ المنزل يهتز بضربات متفجرة وتعالت أصوات غريبة ، غريبة ومرعبة .

وذهب مرة أخرى إلى الباب وقد زحف الرعب إلى روحه ، وعندما فتحه هبت الريح إلى الداخل وهي تهدر مع المياه . ومن خلال الفجوة الرهيبة في المنزل رأى العالم والمياه واختلاطات المياه الرهيبة والشفق والبدر الجديد عالياً فوق غروب الشمس ، وقد بدا باهتاً ، والغيوم السود تتدافع في السماء مع الريح الباردة العاصفة .

ودخل الغرفة وأغلق الباب وهو يطبق أسنانه مرة أخرى ، وقد اختلط في روحه الخوف بالاستسلام أو التسليم بالقدر ، ثم التقط منشفتها ليرى فيما إذا كانت أكثر جفافاً من منشفته وأقل تلطخاً بالدم ، ومرة أخرى راح يجفف رأسه وهو متّجه إلى النافذة . واستدار بعيداً وقد عجز عن كبح جماح الارتجاف .

كانت إيفيت قد اختفت تماماً تحت أغطية الفراش ولم يعد يبدو منها شيء سوى كومة ترتجف تحت اللحاف الأبيض . ووضع يده على هذه الكومة المرتجفة وكأنه يلتمس الأنس والصحبة ، لكنها لم تكف عن الارتجاف . فقال :

ـ حسناً . . حسناً . . الماء ينحسر .

وكشفت عن رأسها فجأة وحدقت فيه بوجهها الأبيض ، حدقت في وجهه المائل إلى الاخضرار والهادئ على نحو غريب وهو في نصف غيبوبة .

كانت أسنانه تصطك دون أن يوليها اهتماماً ، في حين أنه أخذ يحدق فيها ، وما زالت عيناه السوداوان مليئتين بنار الحياة من هدوء المتشرد في استسلامه القدريّ .

وأنّت قائلة بأسنان مصطكة :

ـ أدْفئني . . أدْفئني . . سأموت من الارتجاف .

وسرَى تشنج رهيب في جسدها الأبيض الرقيق كان كافياً في الواقع لأن يمزقها ويسبب لها الموت . فأومأ الغجري برأسه وأخذها بين ذراعيه وضمّها في عناق مُطْبق ليهدئ من ارتجافه هو . كان يرتجف على نحو مخيف وهو في شبه غيبوبة . كان ذلك من تأثير الصدمة . وبدت سيطرة ذراعيه الشبيهتين بالملزمة حولها ، تلك النقطة الثابتة الوحيدة في وعيها . كانت نوعاً من الإغاثة الهائلة لقلبها الذي توتر إلى درجة الانفجار .

وعلى الرغم من أن جسده الذي التف حولها بدا غريباً ورشيقاً وقوياً كالمجسات ، فقد كان يتموج بالقشعريرة كالتيار الكهربائي ، إلاّ أن توتّر العضلات الصلبة التي أمسكت بها في إحكام هدّأت من روعهما كليهما ، وشيئاً فشيئاً خف عنف الارتجاف الرهيب الذي سببته الصدمة ، خف في جسده أولاً ثم في جسدها ، وشاع بينهما الدفء ومع انبعاثه غاب عقلاهما عن الوعي بعد أن كانا معذبين ونصف غائبين عن الوعي ، وأخلدا إلى النوم .

كانت الشمس قد أشرقت في كبد السماء قبل أن يتمكن الرجال من عبور نهر «بابل» بالسلالم . كان الجسر قد انهار ، لكن حدة الفيضان كانت قد خفت وأضحى المنزل ـ الذي مال إلى الأمام وكأنه يؤدي انحناءة احترام للنهر ـ قائماً وسط الطين والحطام مع كومة ضخمة من المبنى المنهار والأنقاض عند الناحية الجنوبية الغربية . كانت أفواه الغرف الفاغرة كئيبة ورهيبة .

ولكن لم يكن ثمة في الداخل أي أثر للحياة . غير أن البستاني كان قد جاء عبر النهر للاستطلاع ، وظهرت الطاهية أيضاً ، وقد أثارها الفضول . كانت قد هربت من الباب الخلفي صاعدة عبر أشجار اللاركس إلى الطريق العام عندما رأت الغجري يقفز بمحاذاة المنزل ، فقد اعتقدت إنه إنما جاء لقتل شخص ما ، ووجدت عربته تقف عند البوابة العليا الصغيرة . وعندما هبط الظلام قاد البستاني الحصان إلى «الردلايان» عند أعالي منطقة «دارلي» .

هذا ما كان علمه أهالي «بابلويك» عندما عبروا النهر في النهاية بالسلالم واتجهوا إلى مؤخرة المنزل . كانت أعصابهم متوترة إذْ كانوا يخشون أن ينهار المبنى الذي تقوّضت واجهته برمتها وسدت مؤخرته ، وكانوا يحملقون في رعب في الرفوف الصامتة لصفوف كتب القس في مكتبه الذي شقّه التمزق ، وفي هيكل السرير النحاسي الكبير في غرفة الجدة ، الذي صنع على نحو عميق ومريح ، لكن إحدى قوائم هيكل السرير النحاسية كانت قد استقرت في الفجوة الممزقة بشكل مؤقت ، وفي خطام غرفة الخادمة في الطابق العلوي . وانتحبت الخادمة

والطاهية ، ثم تقدم رجل في حذر من خلال نافذة محطمة من نوافذ المطبخ إلى حديقة ومستنقع الطابق الأرضي ، ووجد جثة المرأة العجوز ، أو على الأقل رأى قدمها في خفها الأسود المسطح وقد برزت موحلة من كومة طينية من الأنقاض ، ففر هارباً .

وقال البستاني إنه متأكد من أن الآنسة إيڤيت لم تكن في المنزل ، إذ كان شاهدها هي والغجري وقد جرفهما الماء . ولكن الشرطي أصر على التفتيش والبحث ، واندفع أبناء أسرة فراملي ، وربطت السلالم معاً بالحبال .

ثم أطلق الفريق بكامله صيحة مدوية ولكن بلا طائل . لم يرد أي جواب من الداخل .

فنصب بوب فراملي سلماً وتسلقه ثم هشم نافذة وانحدر بجهد إلى غرفة العمة سيسي ، وقد أرعبته كالأشباح الألفة المنزلية التامة لكل شيء ، كان المنزل عرضة للانهيار في أية دقيقة .

وكان الرجال قد نصبوا السلم على الطابق العلوي للتو عندما جاء بعض الرجال مهرولين من «دارلي» وهم يقولون إن الغجري العجوز جاء إلى «الردلايان» في طلب الحصان والعربة ، وترك كلمة يقول فيها إن ابنه كان قد شاهد إيڤيت في أعلى المنزل . لكن الشرطي كان في تلك اللحظة يهشم نافذة غرفة إيڤيت .

ورفعت إيڤيت التي كانت تغط في نوم عميق ملاءات السرير ، وأطلقت صرخة عندما تطاير الزجاج ، وشدت الملاءات حول جسدها العاري . وأطلق الشرطي صرخة مذعورة حوّلها إلى نداء قائلاً :

ـ آنسة إيڤيت . . آنسة إيڤيت . .

واستدار نحو النسلم وصرخ بالموجودين في الأسفل :

ـ الآنسة إيڤيت في السرير . . في السرير .

وجثم هناك على السلم لكونه رجلاً أعزب ، وهو يتشبث بالنافذة على نحو محفوف بالخطر لا يدري ماذا يفعل .

واستوت إيفيت جالسة في السرير وقد تشابك شعرها منضفراً ، وأخذت تحدق بعينين ضاريتين وهي تشد الملاءات على صدرها العاري . كانت قد غطت في نوم عميق جداً ، حتى أنها كانت لا تزال ذاهلة عمّا حولها .

وانحدر الشرطي ـ الذي كان قد أفزعه السلم الضعيف ـ إلى داخل الغرفة وهو يقول :

ـ لا تخافي يا آنسة . . لا تقلقي على شيء بعد الآن . أنت في أمان .

وظنت إيفيت التي كانت مصابة بدوار شديد أنه يقصد الغجري .

وكان أول شيء خطر لها هو : أين الغجري؟

أين كان رجلها الغجري الذي شاركها ليلة نهاية العالم هذه؟

كان قد ولى ! . . كان قد ولى ! . . وكان في الغرفة شرطي !

شرطي ! !

ومسحت بيدها على جبهتها .

قال الشرطي :

ـ إذا ارتديت ثيابك يا آنسة فسيكون في مقدورنا أن ننقلك إلى الأرض الآمنة . من المحتمل أن ينهار المنزل . أعتقد أنه لا يوجد أحد في الغرف الأخرى !

وخطا بحذر شديد في الممر ، وحملق في ذعر من خلال الطرف الذي حل به الدمار ، ورأى القس على مسافة بعيدة وهو قادم في سيارة على الهضبة التي كانت قد أضاءتها الشمس .

ونهضت إيفيت ـ التي كان وجهها قد اعتراه الخدر وخيبة الأمل ـ

بسرعة وهي تشد الملاءات حولها ، ونظرت إلى نفسها لحظة ثم فتحت أدراجها لتحضر ثياباً .

ارتدت ثيابها ثم نظرت في مرآة ورأت في رعب شعرها المنضفر ، ومع ذلك لم تكترث ، فقد ولى الغجري على أية حال .

كانت ثيابها ملقاة على الأرض في كومة مشبعة بالماء ، وكان على السجادة بقعة كبيرة مخضلة بالماء حيث كانت ثيابه هو ، ومنشفتان قذرتان ملطختان بالدماء .

وباستثناء ذلك لم يكن ثمة أي أثر له .

كانت تسرح شعرها بمشقة عندما نقر الشرطي بابها ، فدعته إلى الدخول ، ورأى في ارتياح أنها كانت قد ارتدت ثيابها وثابت إلى رشدها ، فردد قائلاً :

ـ من الأفضل لنا أن نخرج من المنزل بالسرعة الممكنة يا آنسة فقد ينهار في أية لحظة .

قالت إيڤيت في هدوء :

ـ حقاً؟ هل الأمر سيئ إلى هذا الحد؟

وتعالت صيحات عظيمة وكان عليها أن تتجه إلى النافذة .

وهناك إلى الأسفل كان القس قد فتح ذراعيه على اتساعهما والدموع تسيل على وجهه .

فقالت بهدوء مشاعرها المتناقضة :

ـ أنا على أتم ما يرام يا والدي .

وقرّرت أن تبقي أمر الغجري سرّاً تكتمه عنه . وفي الوقت نفسه سالت الدموع على وجهها .

ـ لا تبكي يا آنسة ، لا تبكي . . لقد فقد القس أمه ولكنه يشكر طالعه على بقاء ابنته . لقد اعتقدنا أنك متّ أيضاً . لقد اعتقدنا ذلك .

فقالت إيڤيت :

ـ هل غرقت الجدة؟

قال الشرطي بوجه وقور :

ـ يؤسفني ذلك . يا للسيدة المسكينة .

فانتحبت إيڤيت في منديلها الذي كان عليها أن تحضره من أحد الأدراج .

قال الشرطي :

ـ هل يمكنك النزول على هذا السلم يا آنسة؟

فنظرت إيڤيت إلى أسفل السلم المنحرف وقالت لنفسها على الفور :

ـ كلاّ ! . . مهما كان السبب .

لكنها تذكرت عندئذ قول الغجرية : «كوني أكثر جرأة في جسدك» ، فقالت وهي تنتحب وتستدير نحو الشرطي :

ـ هل دخلت كل الغرف الأخرى؟

ـ أجل يا آنسة ، ولكنك كنت الشخص الوحيد في المنزل ، كما تعلمين ، باستثناء السيدة العجوز ، فقد هربت الطاهية في الوقت المناسب ، وكانت الخادمة عند والدتها . لقد كنت أنت والسيدة العجوز المسكينة فقط من أثار قلقنا . هل تعتقدين أنك قادرة على نزول ذلك السلم؟

فقالت إيڤيت في لامبالاة :

ـ أجل .

كان الغجري قد ولى على أية حال .

وأخذ القس يراقب في قلق ابنته الطويلة النحيلة وهي تخطو وظهرها للخلف هابطةً السلم المنحرف ، بينما كان الشرطي يمعن النظر ببطولة من النافذة المهشمة وهو يمسك طرف السلم العلوي .

عند أسفل السلم أغمي على إيڤيت بين ذراعي والدها ، ومن ثم أقلها بوب في السيارة إلى منزل أسرة فراملي .

وهناك انتحبت لوسيل المسكينة ، والتي كانت قد أضحت شبحاً من الأشباح من الارتياع ، إلى أن انتابتها الهستيريا . حتى العمة سيسي صرخت وسالت دموعها :

ـ ليرحل المسنّون وليبق الشباب . . أوه . . لا أستطيع أن أبكي على «الأم» الآن وقد أُنقذت إيڤيت . وانتحبت بالدمع الغزير .

كان سبب الفيضان انفجار مفاجئ للخزان الكبير الموجود في أعالي «بابل هايديل» على مبعدة خمسة أميال من الأبرشية . وتبيّن فيما بعد أن نفقاً قديماً ، وربما كان نفقاً لأحد المناجم الرومانية ، لم يكن أحد قد تنبّه إليه أو تحت سد الخزان ، قد انهار مقوضاً السد بكامله . كان ذلك هو سبب امتلاء نهر «بابل» بالمياه على نحو غريب جداً في ذلك اليوم الأخير ، وبعدها انفجر السد .

وبقي القس والفتاتان ضيوفاً في منزل آل فراملي حتى يتسنى لهم إيجاد منزل جديد . ولم تحضر إيڤيت جنازة الجدة فقد بقيت راقدة في الفراش .

عندما كانت إيڤيت تروي قصتها ، كانت تقص فقط كيف أوصلها الغجري إلى داخل المدخل المسقوف ، وكيف زحفت في الماء إلى الدرجات .

وعُرِفَ أنه كان قد نجا : هذا ما قاله الغجري العجوز عندما أحضر الحصانَ والعربة من «الردلايان» .

ولم يكن في مقدور إيڤيت أن تقول الكثير ، كانت غامضة مرتبكة ، وبدا أنها لا تكاد تتذكر شيئاً . ولكن تلك كانت طبيعتها تماماً .

وكان بوب فراملي هو الذي اقترح قائلاً :

ـ أتعلمون؟ أعتقد أن ذلك الغجري يستحق وساماً .

وقبلت العائلة كلها بهذا الاقتراح .

فصاحت لوسيل :

ـ علينا أن نشكره .

وذهب القس بنفسه مع بوب في السيارة ، لكن المقلع كان مهجوراً . كان الغجر قد قوّضوا خيامهم ورحلوا . ولم يعرف أحد إلى أين رحلوا !

وكانت إيڤيت المستلقية في الفراش تردّد في قلبها :

ـ آه . إني أحبه . . أحبه . . أحبه .

لقد أنهكها حزنها عليه ، لكنها كانت ميالة أيضاً إلى الإذعان لحقيقة اختفائه ، فقد عرفت روحها اليافعة الحكمة من ذلك .

غير أنها بعد مراسم جنازة الجدة استلمت رسالة صغيرة مؤرخة ولكن من مكان مجهول . . جاء فيها :

«آنستي العزيزة

علمت من الجريدة أنك على ما يرام بعد أن خضت في الماء كما حدث معي . آمل أن أراك مرة أخرى ذات يوم ، ربما في سوق الماشية في «تايدزويل» ـ أو ربما عدنا من ذلك الطريق مرة ثانية .

كنتُ في ذلك اليوم قد أتيت لأقول لك وداعاً . ولم أقلها أبداً .

حسناً ، إن الماء لم يفسح في الوقت لذلك .

ولكنني أحيا بالأمل .

خادمك المطيع

جو بوزويل»

وعندئذ فقط أدركت إيڤيت أنه كان يحمل اسماً .

الفهرس

عشيق الليدي تشاترلي



تزوجت كونستنس ضابطًا عندما قفل راجعًا من ميدان القتال ليقضي شهرًا في الراحة والاستجمام، فأمضيا شهر العسل هذا في متعة وهناء ولذة. ثم عاد الزوج أدراجه إلى ساح الوغى ليصاب بعد ستة أشهر وينقل إلى منزله ممزّق الجسد! وكانت كونستنس في ذلك الحين امرأة يافعة لا تتعدى الثالثة والعشرين.

تمسك الزوج المحطم بالحياة .. فلم يمت.. وتراءى أن الأشلاء الممزقة قد تجمّعت ثانية في جسد متماسك. ولبث الطبيب يعالجه ويشرف عليه، حتى إذا مرّت سنتان جهر برأيه وقراره وأعلن للجميع أن الخطر زال ولكن الجسد شُلَّ قسمه الأسفل.

هكذا قوّضت الحرب دعائم بيت كونستنس فسقط على رأسها، وأيقنت بعد أن جرفها تيار المصائب أن على المرء أن يحيا وأن يتعلّم..

كيف عاشت.. وماذا تعلّمت هذه الزوجة الشابة!؟

ISBN 9953-449-71-6

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع